أسرار أمونة

© مركز الأدب العربي للنشر والتوزيع، ١٤٤٢هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

أخازي، خالد
أسرار أمونة. / خالد أخازي - الدمام، ١٤٤٢هـ
٣٨٤ ص؛ ١٤ سم
ردمك: ٣- ٤٢ - ٨٣٢١- ٦٠٣- ٩٧٨

١ -القصص العربية - المغرب أ. العنوان
ديوي ٨١٣،٠٣٩٦٤ ٢٠١٩/ ١٤٤٢

رقم الإيداع: ٢٠١٩/ ١٤٤٢
ردمك: ٣- ٤٢ - ٨٣٢١- ٦٠٣- ٩٧٨

مركز الأدب العربي للنشر و التوزيع

الموقع الإلكتروني :
Www.Adab-Book.Com
مركز الأدب العربي
@Services_Book
@Services_Book
مركز الأدب العربي
adabarabic7
services_book@outlook.sa

مسؤول النشر : للتواصل
0597777444

المملكة العربية السعودية- الدمام
لطلب إصدارات مركز الأدب العربي
00966594447441

حمل تطبيق
مركز الأدب العربي للنشر والتوزيع
Google Play
App Store

دولة الإمارات العربية المتحدة مكتبة الأدب العربي 00971569767989

جمهورية مصر العربية مركز الأدب العربي 00201120102172

الحقوق محفوظة : لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة جميع المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال بدون إذن سابق من الناشر .

جميع العبارات و الأفكار الواردة في الكتاب تعبّر عن
وجهة نظر المؤلف دون أدنى مسؤولية على الناشر .

أسرار أمونة

خالد أخازي

١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

«التراجيديا الكبرى ليست الاضطهاد والعنف الذي يرتكبه الأشرار، بل صمت الأخيار على ذلك».

مارتن لوثر

إهداء

إلى هاجر... صغيرتي... نجمتي التي أَفَلَت في غفلةٍ مني، ومنذ أفولها افتقدت ضوء كل نجمة ونعمة كل مهد...

إلى عبد الله... بِكري... الذي مات في الغربة غير مودع، وبرحيله تشظَّت روحي، واختفى صخب الحياة من حولي...

إلى زوجتي التي احتملَتْ شغفي وأرقي وعرقي وجنوني، وبللت حبر كتابتي بالرجاء والعزاء...

إلى والدَيَّ اللذَيْن كانت لهما الشجاعة في زمن صعب ليَلِجَا عالمَ المودة والسكينة...

إلى أبنائي الذين ما ضجروا من مزاجي كلما غلبني عالم أبطالي في هوسي، وما ضجروا من وساوسي...

١

أدبر خريف عام **١٩٤٦** بلا غيث، مخلفًا القرَّ الشديد، بلا مُزن مغيث، فتقلَّص مع رحيله الرجاء في الأفئدة المتطلعة إلى رحمة السماء التي ما زالت متعلقة بأمل من بشارة سيدة بلدة «**الغرافين**» المسماة «**العالية**» وقد أفشت بين الناس أن هذا العام هو عام الرخاء، وأن البشارة توالت عليها كالضياء، رؤًى كالفلق، أو طائفًا هامسًا في الخفاء، وهي امرأة عندهم مباركة صدوق غير مريبة، وزخَّات الخريف المتقطعة القليلة، لم تَرْوِ أرضًا عانت القحطَ سنواتٍ، ولم تُجْرِ ماءً في وادي «**أم الشتا**»، ولا أنعشت عيونًا غارت، ولا أحيت آبارًا غاضت، وقد غدا الوادي كئيبًا وسط النقع والغبار، حتى كاد المزارعون يتحولون عن الزراعة إلى التجارة، وبلدتهم أرض «الأضرحة » التي لا تبور تجارتها ولا تكسد بضائعها، فمزاراتها قِبلة كل زائر يائس، أو راغب خانع، وكل زائر لا بد له من طعام، ومسكن، وقرابين، وعطايا، وبخور، وشمع، وحناء، وأثواب معلومة الألوان والأشكال.

حار أهل البلدة حتى تَشَاكَوْا بألمٍ وحسرة في مجالسهم النهارية، ونوادي سمرهم الليلية من صِرِّ وقُرِّ هذا العام اللذَيْن أوشكا أن يُعطِّلا تجارتهم ويشلَّا عصب الحياة فيها، وكادت الأجواء الباردة ولا

مطر تثبِّط عزائمَ وهِممَ زُوَّار مغارةِ الولي الصالح «**سيدي الفَرَاش**» والعين المباركة عين «**أمونة السودانية**»، فقد قلَّ الزوار والوافدون، وخفَّتِ الحركة في البلدة، بيد أن البلدة لم تكابد مرارة السنوات العجاف كباقي القرى، لاستمرار إقبال الزوار على المزارات، وإن لم يكن الرواج كما عهدوا، لكنهم لم يملقوا أشد الإملاق كأهالي الحضر والقرى المتاخمة، وهي صامدة ترزح تحت قهرين: قهر مخلفات سنين القحط الأبتر والجفاف الأغبر، وقهر خدام الاحتلال الأخطل، من بعض الزعماء والقُوَّاد ورجال «المخزن» «الدولة» المحسوبين على السلطة المركزية الذين استمالهم الاحتلال الفرنسي إغراءً وعطاءً، فلم يترددوا في فرض الضرائب المجحفة الظالمة والمكوس الجائرة، وقهر الناس قهرًا لم يُطيقوه إلا خوفًا وفزعًا، وهم يشهدون مصير المتمردين الذين يُعذَّبون جَلدًا، أو يُشنقون علنًا. ورغم انحصار المراعي ومنابع المياه على الرُّحَّل والرعاة المبتلين بنفوق القطعان والمزارعين المكتوين بشُحِّ السماء، لم يخمد حماس هؤلاء الموالين لفرنسا في جمع ما يمكن جمعه لإنعاش خزينة فرنسا المالية المنهكة، وقد أرهقتها تكاليف الحرب العالمية الثانية، فعاث الخونة والموالون للمستعمر في الأرض فسادًا وظلمًا، تُعضِّدهم خُفيةً «**العالية**» زاعمةً أن لها كراماتٍ وحظوةً عند الولي دفين «المغارة»، وكانت لها معهم منافع متبادلة، ومصالح جارية.

دبَّت برودة نافذة لا تُطاق في أبدان الأحياء من بشر وبكماء،

حتى لزم الناسُ البيوتَ والدُّور مضطرين، وتعالى هرير الكلاب في الأرجاء، وضغاء القطط من وراء الأبواب، وأبردت النسائم القارسة الأسِرَّة والأفرشة والمضاجع حتى دبَّ اليأس في قلوب التجار، وما يئست «**العالية**» ولها من المال ما لا ينفد، ومن الغلة ما يكفي لتكفل الـمُعوِز المغلوب على أمره رياءً، وتعين الـمُملِق إلى حين، وتقرض الذي ضاقت به الدروب وسُدَّت في وجهه أبواب الكسب، وكل هذا وذاك مُحْصًى ومُدوَّن في سجلاتٍ، ومُرتَّب في «كناشاتٍ» يسهر عليها خادمُها وراويةُ ملاحمها المسمَّى «**الرقاص الملهوف**»، ولكل دَيْن موعد، إن حلَّ لا يؤجل صاحبه ولو قبَّلَ الأقدام ذليلًا خاضعًا، وتعفَّرت نساؤه بالرماد، فتستبيح «العالية» تجارة الـمُعسِر وممتلكاته، وتصادر قطعان المغْرَم، ولكل عطاء غاية، تأسر بها عقول الضعفاء، وتستميل بها قلوب الجهلة من العامة والغوغاء.

مالت الشمس إلى المغيب، فانتشرت ظلال رمادية كئيبة لبيوتِ ومرافقِ البلدة الطينية المنتشرة على **سفوح الجبل الأخضر وجبل الغور** الـمُطِلَّين على وادي «**أم الشتا**». تفرَّقَ بعض الأهالي هنا وهناك، يترقبون هبوب ريح غربية يعرفون أنها ريح السحاب الغَيِّث، يسرحون بنظراتهم في الأفق البعيد، مُنعشين الآمال بما تنبَّأت به ادعاءً «**العالية**»، وقد جاءها خبر تغيُّر الأحوال الجوية من إدارة المحتل، فتحوَّل الخبر إلى نبوءة. والناس الذين عاشوا سنوات القر بلا مطر والبرد بلا غيث

يصدقون ما يفتح لهم باب الرجاء، ويتعلقون بأي بصيص أمل، فلا يُمحِّصون في الأخبار ولا يشككون في التنبؤات، لزموا بيوتهم إلى أن حلت ظلمة الليل فارتفع صوت جهور في أرجاء البلدة بين الدروب على وقع دقات متتالية على طبلٍ، أطلَّ الناس من شقوق الأبواب، ومن فُرَج النوافذ، يستطلعون ما الأمر، والصوت يعلو ويعلو: «يا أهل بلدة «**الغرافين**»...! من كان في حاجة إلى الخشب والفحم، فليقصد مخازن السيد «**كلود**» هناك ستجدون «**عزوز الأخنس**» في الخدمة، الأسعار زادت هذا العام، وأنتم تعلمون أن الخشب قليلٌ وغالٍ، ومفتقَدٌ بالبلدة والنواحي، من يُؤَدِّ نقدًا يُخْدَمْ أولًا، ومن عجز عن الأداء فورًا، فلينتظر عند نهاية الطابور، له تأجيل إلى حين على ضمانة «العالية» راعية الـمُعدَمين والمحتاجين...».

كاتب ومدَّاح وراوية السيدة «**الرقاص الملهوف**» متربص بالمعوزين كالثعلب الماكر، تدور عيناه في محجريهما، أمام مخزن المعمر الفرنسي «**كلود**» يشرئبُّ بعنقه القصير الدقيق من حينٍ لآخر مستطلعًا القادمين كأنه يحصيهم بنظراته، وقد فوَّضت له «العالية» أن يؤدي عن المعسرين والمعوزين مقابل صكوك ديون مؤجَّلة الأداء، مع زيادةٍ تربو عند اكتمال العام.

يواصل الطبال مسيرته، مكسرًا صمت الليلة البرداء، فأخرج

الفضول مَن لاذوا بالمواقد إلى الدروب، واستفزَّ مَن استكانوا للخمول من شدة البرد، وقد تبعه جمعٌ من الأطفال وهم يصخبون ويتصايحون وراءه، وما صدَّهم القرُّ ولا النسائم الباردة التي تشققت لها الخدود وجلود الأكف، أمام أعين بعض الزوار الذين اختلطوا بالناس، فملؤُوا البلدة ضجيجًا وصخبًا.

في هذه البلدة التي تجمع المتناقضات، لا فاصل بين الجد والمزاح، ولا بين المقدس والمدنس، قد يتجاور - دون تنافر ولا استياء - بيت ساهر يقيم أهله «**حضرةً**» لأسياد عالم الخفاء والجن والأرواح، يضج بالمزامير وقرع الطبول، تنتشر فيه روائح الأبخرة وأدخنة المجامر، ويعلو صراخ النساء والرجال الصرعى، وبيت يصخب بالموسيقى الشعبية ورقص النساء والرجال وهم سكارى.

هرع قلة من الرجال بخطوٍ سريع حثيث، وظهر آخرون يدفعون العربات الخشبية اليدوية، والكثرة تقود عربات مجرورة بالحمير والبغال والخيول الضامرة بالحث بالسياط، والصياح والتصايح يعلوان علوًّا ويختلطان بالصهيل والحمحمة والنهيق وطقطقة وقع الحوافر على الأرض الصلبة، الكل يجري بعَدوٍ مضطرب صاخب صوب مخزن الخشب، بتسابُق لا يرحم لاحتلال الصدارة في الصفوف. اصطفت العربات طوابير، وكثر اللغط والهذر، والكل ينتظر الدور و«النوبة»،

للتزود بخشب التدفئة وأكياس الفحم، ولو بأداء مريح في الزمن إلى أجل معلوم. يحضر بعض الوجهاء من أهل البلدة وما هم في حاجة إلى الخشب الليلة، ومن احتاج إليه منهم يصله إلى الدار دون أن يطلبه، ومن بين هؤلاء ذوا الحظوة الوجيهان «**سليمان الغاشي**» و«**الراضي غربان**» اللذان يرقبان ما يقع بفضول وشغف غريبَيْن على بُعد أمتار من المخزن الذي انتصب على كدية من الصخور الصلبة، وهما يتبادلان أطراف الحديث ويتابعان ما يجري بهدوء، وقد غطيا رأسيهما بغطاءي «الجلبابين»، ودسَّا أياديهما في الجيوب العميقة الجانبية، اتقاءً للصِّرِّ الشديد.

أخرج «**سليمان الغاشي**» لحظة يديه وفرك راحتيهما، وهو ينفخ فيهما، وقال وهو يزفر كالضباب الأبيض الخفيف، وشفتاه ترتعشان:

- قل لي يا «**الراضي غربان**»...! من أين يأتي هذا «الفرنساوي» المسمى «**كلود**» بكل هذا الخشب...؟ وأين يصنع الفحم؟!

يحرك «**الراضي غربان**» رأسه، ويمعن في التفكير ثم يقول مترددًا غير حاسم:

- أظن... أنه... غالبًا من فاس أو مكناس أو جبل «زرهون».

يرد عليه **سليمان الغاشي** بأسفٍ وحسرةٍ:

- آه...! لو تعلمنا هذه الحرفة، لأغنانا الله... أي والله...!

يزجره صديقه بعنف وقسوة:

- يا سليمان الغاشي...**!** ألا تكفيك تجارتك يا رجل؟**!** أنسيت أنك كنت في الحضيض فعلَوْتَ سريعًا...؟!

يرد عليه سليمان الغاشي مستاءً وقد جحظت عيناه:

- الغنى يَجُبُّ الفقر الذي سبقه... أتعيرني يا رجل؟ البحر نفسه يقول: هل من مزيد... وهل يشبع البحر؟**!** وهل اكتفى «الفرنساوي» «**كلود**» بالزراعة وتربية المواشي وبضياع الفواكه؟**!** ها هو يتاجر في الخشب والفحم... ويعلم الله فيمَ يتاجر أيضًا...؟!

- يا طماع...**!** اصْمُت. لِنَعُد أدراجنا...!

قبل أن يُدبِرَا صَوَّبَ «**الراضي غربان**» نظرَه إلى وجه «**سليمان الغاشي**» متسائلًا بمكرٍ وهو يرفع حاجبًا ويحط آخر:

- وهل حصلت على الخشب والفحم «**يا بوناكا**»...**؟!**

متفاجئًا مرتبكًا يتوقف «**سليمان الغاشي**» وقد غلبه العجب ويقول باستغراب:

- بمَ دعوتني...؟**!** بـ«**بوناكا**»...؟**!** يا لئيم...**!** عدتَ لتناديني بما يناديني به «الفرنساويون» يا «**ماروكان...!**»

يرد عليه» **الراضي غربان**» وهو يحكم حزام سرواله الفضفاض:

- وأنت لا تَبيتُ على ثأرٍ، فتدعوني توًّا بلا تأخير بلقب «**ماروكان**» الذي أطلقه الفرنسيون عليَّ...!!

يرد عليه ساخرًا **سليمان الغاشي** وهو يلوي شفته شماتة:

- السن بالسن والعين بالعين والبادئ أظلم...!

يهز **الراضي غربان** رأسه هازئًا، يسوي جلبابه وهو يزحر، يقول ملتفتًا يمنةً ويسرةً وكانت تلك عادته كوسواس قهري:

- لا تتهرب من الجواب...! ما زلت أنتظر... لَمْ تُجب بعدُ على سؤالي...

باستغراب مزمجرًا غاضبًا يقول **سليمان الغاشي**:

- نعم...! نعم... أوف... حصلت عليه مثلي مثلك يا لئيم...! حصة سنوية هدية من دار «**العالية**»... دعنا من هذا الآن...! تأخر المطر... ألا يزعجك هذا؟ قد تبور تجارتنا هذا العام... لو طال الجفاف...!!

بثقة وباعتداد بالنفس، ينفخ «**الراضي غربان**» صدره ويرد عليه وما برح عادة الالتفات:

- يا أحمق...! تجارة القبب والأولياء ينعشها اليأس ولا تكسد

بقحط ولا جفاف... و«**العالية**» قالت: إن هذا العام عام خير...!

يردف «**الراضي غربان**» قائلًا وهو يفرك يديه:

- لا تقلق...! ستجد «**العالية**» وسيلةً لإنعاش التجارة أكثر، واستقطاب مزيد من الزوار إلى البلدة، ولا تنسَ أننا عشنا سنوات الجفاف والجوع والوباء، وعانينا من ضرائب كثيرة فرضها الفرنسيون الذين أفلست الحرب خزائن دولتهم، وما بارت تجارتنا... ما دام اليأس في القلوب، نحن نكسب في السلام والحرب، لأن تجارتنا تُغيِّر جلدها كالأفعى ولونها كالحرباء، بتغيُّر الظروف حربًا كان أم سِلمًا... وهذا البرد الذي تشكو منه دواؤه سرير دافئ وعناق شهي.

ناظرًا إليه بطرف عينه، كأنه لمس منه لمزًا، يقول **سليمان الغاشي** وهو يسوي ملابسه بزهو وخيلاء:

- فعلًا... لا ينفع معه إلا سرير وثير دافئ وجسد طري ملتهب...

يرد عليه **الراضي غربان** وهو يقوس حاجبًا بنبرة ساخرة هامزًا:

- إيه...! أنت يا أخي...! صاحب السرير الدافئ اللذيذ، والطراوة والحلاوة، وسعدتَ بزوجةٍ ثانية جميلة وصغيرة...

- وما منعك أنت «يا **الراضي غربان**»...؟!

- ربما مُنحتَ قوةً يا «**سليمان الغاشي**» لا تُمنح لكل الناس، وأنا راضٍ ومكتفٍ خوفًا أن يخذلني جسدي يومًا...

يطوق **سليمان الغاشي** صديقه بيديه ويهزه بقوة وهو يقول مقهقهًا:

- يا أحمق...! الفحولة لا تموت...

أفلتَ الراضي غربان من قبضة صديقه بحركةٍ سريعةٍ منتفضًا، سوَّى تلابيبَه وقال:

- يا **سليمان الغاشي**...! الشهوة تخفت مع المرض تخمد مع السنين، ولا بد من تكافؤٍ في الزواج حتى لا يكون أحد الزوجين عالةً على الآخر، ظالمًا حقه في العشرة...!

بإلحاح وبنبرة الواثق يثب سليمان الغاشي نحو صديقه قائلًا:

- إن خمدت في الرجل شهوة أيقظها جسد طري وأشعلها كبريت الشباب في جمرات النساء... يا أحمق... لو تُجرِّب!

ينظر **الراضي غربان** إلى صديقه بعجب منفرج الأسارير، يضرب على صدره خفيفًا قائلًا:

- والعشرة والألفة...؟! يا رجل...! العشرة أقوى من كل لذة مهزومة بالدهر والمرض، المودة والسكينة هما عماد الزواج بعد ما تخفت الشهوات.

بخيلاء يرد سليمان الغاشي وهو يسوي ملابسه ضاحكًا:

- الحقوق محفوظة للقديم، يا الراضي غربان...! بلا جحود ولا نكران نعمة، وما أُحرِّم شيئًا حلَّله الله.

- يا لئيم...! تعرف من أين تأخذ الفتوى للهوى، سنرى... قد تغلبك يومًا الحسناء... وإن كنتَ لا تُغلَب في الحِجاج...

- والله ما غلبني غير برودة هذا العام، وصدمتني موجة البرد المبكرة التي غدت لها المياه في بعض الروافد القليلة فريسة مجمدة، كشظايا زجاج صقيل، والحقيقة باغتنا هذا الطقس المتقلب الذي لا يطاق ونحن غافلون.

يخطو كالثعلب حثيثًا نحوهما سي «**الرقاص الملهوف**» وعيناه غائرتان في وجهه النحيل وهو يرتعش من البرد، ينظران إليه بتوجُّس وتبرُّم متكلِّفَيْن التبسُّم، يسلم عليهما مصافحةً سريعةً... مضطربًا ويقول:

- إن احتجتما إلى المزيد فخذا ما تريدان...

يرد عليه «**سليمان الغاشي**» بلطف مُتكلفٍ لم يوارِ كُليًّا تبرُّمَه:

- لا...! يا سي «**الرقاص الملهوف**»... شكرًا عندنا ما يكفي... واشكر باسمنا «العالية»... لكن لا ترفع كثيرًا الأسعار على الناس...!

- أوه...! يا «**سليمان الغاشي**»...! أنت تعلم... لستُ مَن يُسعِّر... أنا أدوِّن الديون فقط، وما كرهت مهمة غير مهمة الليلة، وخروجي في هذا الجو، أوه...! المطر تأخر، لكن «العالية» قالت: انتظروا خيرًا قريبًا. نبوءتها لا تخيب... لولا بركتها وزيارة الناس للمزارات لجُعنا، أي... والله أعلم... قلَّتِ الزيارات ولكنها لم تنقطع... ضاقت سبل العيش لكنها لم تُغلَق كما يحدث حوالينا... الحمد لله... الحمد لله... حفظكِ الله يا «**العالية**»...

يهرول بعجلةٍ وقفقفة، وهو يهز سرواله المتراخي، ويشد حزامه وقد كان نحيلًا قليل اللحم، فتزلُّ قدمه على كتلة تلج، فيصيح من هول السقطة، ثم ينهض وهو يشكو من ألم في ظهره، محملقًا في الوجوه فاغرَ الفم، وقد علت الأجواء ضحكات وقهقهات صادرة من أفواه المصطفين في الطابور أمام بوابة مخزن السيد «**كلود**».

يضحك «**الراضي غربان**» و«**سليمان الغاشي**» بصوتٍ عالٍ، يثير على حين غرة فضولَهما وجودُ شاب أسمر البشرة فوق كدية وهو يتابع بصمتٍ ما يقع وبين شفتيه سيجارة معذَّبة من نهمه للتبغ، يهمس سليمان الغاشي لصديقه مصوبًا نظره بقلق جهة الشاب: «أمر هذا الغريب مثير... كأنني أرى في عينيه حقدًا خفيًّا»!

يرد عليه مضطربًا الراضي غربان: «حلَّ هذا الغريب ببلدتنا... سكن بلا خوفٍ منعزلًا بتل الريح، من يسكن ذاك التل الموحش غير المجاذيب ومن رُفع عنهم القلم؟!... كلما أمعنت النظر فيه شعرت كأنني أعرفه...»!

يجرُّ سليمان الغاشي صديقه من ثيابه بقوةٍ قائلًا زاجرًا إياه بقوة: «أنت واهم... هو فضولي فقط... يُسمَّى إدريس السوسي... يعمل بالمنجم مهندسًا... ربما ليس من أهل البلد... وإن كان لقبه السوسي، فطريقة كلامه غريبة كما يقول الناس، وخمارة اليهودي هي مُقامه الدائم... دعك منه... لنذهب...! لن يكدر صفو ليلتنا هذه غريب فضولي...»!

يُدْبران وقد تركا وراءهما الطوابير تمتد وسط الصياح والصخب، وقد انضم إلى رَجُل «**كلود**» وذراعه اليمنى «**عزوز الأخنس**» الأعرج، شابان مفتولا العضلات واسعا المنكبين، يُعِينانه على رفع الأثقال وتنظيم الطابور، بلجم الصخب، وقمع المتطاول على «نوبةٍ» ليست له، أو سلعة دُوِّنت لغيره، وعلى مقربة من المكان، ظهر بين الظلال القاتمة، رجل أَفْجَى، يسير معتدًّا بنفسه بكبرياء، التفتت الجموع نحوه وحين فطنوا إلى وجوده قبل أن يختفي، همهمت قلقة بأصوات خفيضة: «هذا «**الذئب**»... «**الذئب**»... حارس «**العالية**»... فقط الغريب كان

يتعقب بنظراتٍ قاسيةٍ «الذئبَ» وهو يدخن بشراسة لفافةً تلو أخرى، ويضغط بقوة وحنق على الأعقاب.

إنْ كان الضِّرُّ من أحوال حياتهم، وألِفُوا العيش في بيئة باردة شتاءً وحارة صيفًا، فإنهم لم يُعِدُّوا العدَّة اللازمة لاستهلال بارد على حين غِرة، لا حطبَ ولا فحمَ ولا مؤونةَ مدخَرة، حتى شغلهم الأمر وهمَّهم، وفشا الحديث عن نفحٍ جارح تشقَّقت لهبوبه البارد سحناتُ الوجوه، ولسعٍ غير مُبارح تيبَّست لسياطه القاسية شفاهُهم، وتقرَّحت لريحه المجمِّدة للطير في السماء جلودُ أكفهم، وما تصدَّوْا لذلك إلا بالسمن الذائب على لهب، والزيت يطلون بهما ما تشقق ترطيبًا ووقايةً، وبالاستدفاء داخل البيوت حول المواقد القصديرية التي برع في صناعتها الحدادون اليهود بمدينة «**ميدلت**» والتي توزعها «**العالية**» بالمجان، وادعاءً منها في سبيل الله، وحنوًّا منها ورحمةً بأهل بلدتها.

في مثل هذه الأجواء البائسة، تجدد «العالية» وهج سلطتها وتختبر مدى ترسخ قوة صيتها في العقول والقلوب، فتنعش جذوة سطوتها وهيمنتها من حطب معاناة الناس، فالأزمات والمآسي والويلات والأرزاء مطياتها كالعادة، فلا تفوت بدهاء على ديدنها ومسلكها في ترسيخ سلطتها، حدثًا حزينًا أو ويلًا شديدًا دون أن تستغلهما

استغلالًا ماكرًا في ترسيخ سلطتها الغاشمة، وتعظيم شأنها كسيدة البلدة الوحيدة الطاغية بلا منافس ولا منافح.

في مثل هذه الظروف الصعبة على العباد والبلاد كانت «**السيدة**» تَحطِب لِنارِ سُمعتِها وأسطورتها من وَهَن الضعفاء، ووجع المرضى، وآلام وفواجع الثكالى، وعوز الفقراء واحتياج الغرباء، وفواجع اليتامى، لتقوي أعمدة صروح سطوتها من أزماتهم وحاجتهم وجهلهم أو تجاهل بعضهم ممن استلذَّ العطاء والصدقات، فصاروا عن عطائها لا يستغنون، وعن سيادتها لا يجنحون، وعن كلمتها لا يميلون، ومِن حِلفها لا يخرجون، القول قولها، والكلمة كلمتها، مباركين أو مؤيدين، مجاملين مرائين، خوفًا أو جشعًا، وهي الداهية تسبر أغوارهم، وتَعْلم أهواءهم، وتدرك رياءهم، فتزيد في إذلالهم كلما لمست طيفَ تمرُّد أو نظرة تردُّد.

يشتد البرد والعوز والمرض على العباد والدواب والأنعام، فتعود **سيدة البلدة** المرضى عيادةَ المتفقدةِ للرعية، وتزور اليتامى والثكالى في موكب حاشد صاخب، كملكة من زمن بعيد، تجعله مهيبًا جليلًا، يتصدَّره «**الرقاص الملهوف**» معلنًا عن حلولها وعبورها بعبارات التقديس والتهليل والثناء، فيهرع الناس إلى الطرقات، ويتدافعون كالقطعان للتبرُّك بطلعتها، بتقبيل يدها أو كتفها، أو أخذ حفنة

من عَفَرٍ وطِئَتْه قدماها، ورجالها الأشداء من عسس وحرس وعيون، يُؤَمِّنون لها الطريق بشدة وغلظة، يدفعون دفعًا الحشود ويزجرون نهرًا المتحمسين المبالغين، وأكثرهم النساء، والكل كالمسحورين يتسابقون إليها باكين خانعين منتحبين بتأثر غريب يهزهم هزًّا حتى يُصرعوا أمامها، والوجهاء يقومون بحركات تنمُّ عن الخضوع والمذلة، والمباركة والمسكنة، تكاد رؤوسهم تلامس سررهم من الانحناء والانتصاب المتواتِرَيْن، يترصَّد رجالها البعيدَ والقريبَ بنظرات حادة ثاقبة، كالصقور المتربصة من الأعالي، أما هي فتخطو بخيلاء وكبرياء بين الحشود، وفيهم مَن يُغمى عليهم، ومَن تتخاذل أرجلهم. مقدَّسةٌ عند العامة الغوغاء، مهيبةُ الجانب عند الخاصة من التجار والوجهاء، ماكرة خبيثة عند القلة الصامتة المغلوبة على أمرها بين الكثرة الزائغة، وكان أشدهم جلافةً حارسها الخاص ورئيس عسسها وأمين سرها الـمُكنَّى بـ«**الذئب**» لشراسته و«**الأعوج**» لكونه أَفْجَى متباعد الركبتين، وهو في عقده الخامس ولا يُعرف له أصل ولا فصل، يضبط الموكب بفظاظةٍ لا تخلو من عبارة بذيئة، يزجر بسفالةٍ ودناءةٍ، ويعطي أحيانًا أخرى العبرة بقهر الضعيف فيضربه بسوطه ضربًا شديدًا، وقد تحول «العالية» ادعاءً بينه وبين الضعيف بيدها أو بنظرة منها، غاضبة من فعل في عاطفتها لا تستنكره، مشفقة برياء، و**الأفجى** أعلم بما يعتلج في دواخلها من

سخط عليهم، وضغينة دفينة، وأكثر ما يسعدها في سرها مظاهر الخنوع والمذلة، ومشاهد الهوان والمسكنة.

تطوف «العالية» البلدة وسط الزغاريد والصلاة على النبي تدلف البيوتَ زائرةً عائدةً مطمئنةً ومتفقدة بعض الدور والأسر، وهي مغطاة بثوب أخضر، تسحب ذيله بخشخشة وخيلاء، وتقوم بطقوس الشفاء الغريبة والعجيبة لطرد ما تزعمه من لعنةٍ وخفي سَرَيا بالوباء في البدن والروح، ولا ترى منه أعين العامة غير العَرَض، فإن قضى السقيم نحبه أوعزت الأمر إلى الأجل وحكمه، «ولكل أجل كتاب»، وإن شُفي مصادفةً ولم يحِنِ الأجلُ، نُسب الشفاء إلى بركتها وخلطاتها، وما بهما من سلطان على داء لم يُعْلَم له دواء، وما الأمر إلا تدليس ودجل وغش وبهتان ولعب بالأهواء.

تستميل **السيدة** القلوب الضعيفة، والعقول الجاهلة، والبيوت المملقة، فتجعل المحتاجين المملطين عنها لا يستغنون، واليائسين البؤساء عن بركتها الوهمية لا يميلون، والطُّمَعَاء الجِشَاع عن عطائها لا يجنحون، بتوزيع الأغطية والملابس والأطعمة والأقوات، والوعود والعهود، و«الملاءات» والملاحف و«الجلابيب» والأقمصة والأثواب والأغطية، والسكر والزيت والحطب وأعواد التدفئة على الفقراء والمعوزين والغرباء والسقماء، فيتهافت بعض الموسرين الجِشَاع هم

أنفسهم على العطاء، بحجة أن فيه بركةً تربو ولا تفنى، تغدو خيرًا يعم من قليلها البيوت فينمو، وشأن أهل الدار بها يصفو، وما هم في حقيقة الأمر إلا في حمأة الجشع والطمع يرتعون، عدا قلة كانت تنأى بنفسها عن عطائها أَنَفَةً وكبرياء، ودراية وفهمًا، لكنها صامتة من ضعف، أو مُهادِنَة من وَجَل، أو مُتَحَيِّنة الفرصة، مُعوِّلة على صروف الدهر.

صار الجوع الحليفَ القويَّ لسيدة البلدة «العالية» وغدا الخوف والعوز خادمَيْها الوفيَّيْن، فكلما جاع وجزع الناس لجؤوا إليها، حتى دحضوا بمسكنتهم ومذلتهم كل نَظَرٍ يسند إلى الجوع بذرة اندلاع القلاقل والتمرد على الأوضاع، فما أكثر الثورات التي كان مطلبها في البدء خبزًا، حتى احتدمت واستعرت نارها في الصدور والعقول، فقلبت النظم والأوضاع، وأسقطت سقوطًا مدوِّيًا مُخزيًا أنظمة حاكمة عبر القرون.

٢

أثار فضولَ «العالية» خلال خرجتها الحولية على الناس وجهُ رجلٍ لا تعرفه، بقلق وتوجس رمقته بطرف عينها اليسرى، وعقلها منشغل بفك شفرة هويته وهي تعرف كل الناس، ومطلعة على كل الهويات، وتُكْشَفُ لها كل الأسرار والتفاصيل، رجل سحنته مختلفة عن سحنات أهل البلدة، اعتزل الحشود، تفرَّست فيه مليًّا هذه المرة، ولم تكن عادتها إطالة النظر في الوجوه صونًا لهيبتها، واعتدادًا بنفسها، وهي التي لا تنظر إلا بعيدًا، ولا يسرح بصرها إلا في الأفق البعيد، بدا هذا الغريب غير مكترث ولا مهتم بموكبها، متكئًا على جدار دار كبيرة، وهو يدخن لفافة تبغ بهدوء، ويرسل إشارات ساخرة بابتسامة هازئة، ما خنع ولا تسابق للسلام، وما هبَّ لتقبيل اليد ولا الكتف، توقف الموكب بإشارة منها، وعادت تستجلي معالم وجه هذا الغريب المثير، المختلفة ملامحه عن ملامح أهل بلدة **الغرافين**، وقد خالت على عادة الناس ممن يبجلونها أنها ما أن تتوقف وتنظر إليه حتى يهرع إليها مُقبِّلًا يدَها، لكنه ظل هناك متسمِّرًا في مكانه، تداعب شفتيه سيجارتُه، فخيب ظنها وأربك موكبها، فانتظرت على الأقل أن يخفض بصره حين تحدق فيه، لتخرج بأقل الخسائر، لكنه يأبى إلا أن تتكبد هي كل الخسائر، فينظر إليها بنظر ثاقب باستعلاء تصغيرًا لشأنها، نظراته العميقة كشفت لها

عن شيء غريب في هذا الرجل، كأن عينيه تكشفان لها عن وجه قديم، غاصت في ذاكرتها وحفرت وقلبت الرواسب دون أن تهتدي للعلائق الممكنة ولا لخيط رابط بماضٍ أو حاضر راهن، شغلها الغريب حتى كاد تصرُّفُه المستفز يهز ثقتها في نفسها، وهو يهز رأسه هزات متواترة، لم تفهم أهي حركات وعيد أم سخرية... نادت مرتجفة الصوت:

- أين أنت يا «**الأعوج**»؟ أين أنت يا «**الذئب**»؟

يفشو صخب وسط الحشود، فتتطلع العيون بفضول صوب الجهة حيث أشارت السيدة، وتشرئبُّ أعناق مَن حالَ التجمهرُ العارم دون اطلاعهم بنظرة ولو خاطفة على ما يقع، فتتعالى الهمهمات الخافتة، تكاد لا تبِين إلا لأصحابها، وما عهدوا «**العالية**» تقطع موكبها، إلا لعيادة أو شعيرة من طقوسها المزعومة، وما عهدوها تلتفت لأحد على الطريق ولو ردًّا لتحية أو سلام، رأوا منها ما لم يألفوا، امرأةً كأي من النسوة، نزلت توًّا من أعالي التأمل، وفقدت نعمة الصمت، وركبها الغضب كما يركب العوام، فانقادت له نفسها قبحًا وغيظًا مسخًا تعابير وجهها المتجعد أصلًا، وهي اللينة اللطيفة حسب ما يعتقدون.

يستقرئ «**الرقاص الملهوف**» ما يمكن أن يجول في الخواطر، ويعصف بالمشاعر، ويُضعف العزائم، فيهمس لها: «سيدتي... تحملي...! ولا تُظهري الغضب، فإن العامة ألفت منكِ العجب والحنو، فأظهري الصبر والعفو، وابتسمي...!» ترمقه بنظرة قاسية،

فينقلب المزاج عندها اصطناعًا من غيظ إلى انشراحٍ وانفراج أسارير، ولو أن بقية حنق ظلت عالقةً بالنظر، لا يجليها إلا مَن يعرفها عن قرب، يهرول نحوها رأس رجالها وأشدهم بأسًا وخِسَّة بخفة وسرعة كالبرق، فيغدو أقربَ إلى حبل وريدها، وهو ينحني وينتصب بتواتر يكاد يُقبِّل سُرَّته ويرد ملبيًا النداءَ بخنوع وخضوع:

- نعم...! سيدتي...! أنا هنا...... أوامرك؟

تشير بسبابة مرتعشة صوب الرجل الذي ما انفك يهز رأسه ويبتسم هازئًا، دون أن يغض بصره حين التقت نظراته ونظراتها العاتبة في البدء، وتهمس في أذن «**الذئب**» بانفعال واضح:

- هناك...! على الناصية... من ذاك الرجل الذي استند على حائط دار **الراضي غربان...؟!**

ثم تردف باضطراب غريب:

- في عينيه أرى ماضيًا ما مضطربًا... لا أستطيع تلمُّسه... أعرف تجليات الخوف في العيون، هذا الغريب عيناه تصدان كل فزع، وفيهما بريق يخيف...!!

ينظر «**الذئب**» جهة الرجل ويطمئنها قائلًا وهو يقهقه مستخِفًّا هازئًا:

- ذاك يا سيدتي... ذاك... ذاك؟!

ويرفع صوته مقهقهًا منتقِصًا ساخرًا:

- لا تهتمي به يا سيدتي، ذاك الرجل غريب عن البلدة وهو مهندس في المنجم، سكير عربيد لا يصحو، لا شأن له ولا جاه، يسكن بيتًا قديمًا على «**تل الريح**».

- مِن أين هو؟!

- **إدريس السوسي**: حتمًا هو من منطقة **سوس**، لكن لكنته غريبة، لا هي بلكنة أهل سوس ولا لكنتنا نحن...!!

- لا يعجبني هذا الرجل ولا ابتسامته الساخرة... ولا تجرؤه على التحديق في وإطالة النظر دون خجل ولا حياء... ألا يعرف من أنا...؟!

- من لا يعرف **سيدة البلدة**؟! وهل يصحو مثله حتى يعرف ما يدور حوله؟! لا عليك سأربيه حالًا سيدتي، ربما لم يعرف «هو مع مَن بعدُ».

يقصد «**الذئب**» الرجل الغريب «**إدريس السوسي**» على بُعد خطوات بعجرفة وغرور، يتوقف لحظة على بُعد بضعة أمتار منه، يتفرَّس فيه باستعلاء بنظرات شرسة قاسية مبتسمًا ابتسامةً صفراء ساخرة، وهو يضرب عصا سوطه على راحة كفه ويهز رأسه مستصغرًا، ويلوي شفتيه متوعدًا، علَّه يُضعف هِمَّة غريمه، وينهي الصراع قبل اللقاء، لكن «**إدريس السوسي**» مصمم على المضي بعيدًا، ففي عينيه إصرار وإلحاح، وقد قَبِل التحدي على ما يبدو، فهو لم يتحرك

قيد أنملة، وظل يبتسم ابتسامته الساخرة، ويصد تهديد النظرات والحركات بثبات الملامح والخطوات وبرباطة جأش، وتمادى فرمى بعقب سيجارته في وجه غريمه، فسقطت بين قدميه، وخطا حتى غدا قاب قوسين أو أدنى من وجهه، وداس باعجًا عقب اللفافة بقوة وحنق بقدمه، ثم تراجع حتى أسند ظهره إلى حائط الدار. هذا الغريب الذي عكَّر على «العالية» أجواء موكبها، وطقوس جولتها، لم تُغَيِّر فيه نظرات «**الذئب**» المشتعلة غيظًا وحنقًا ونقمةً شيئًا، وقد كان «**الذئب**» يعوِّل على حركاته هذه ووقْعِ أثرِ ندبٍ غائرٍ على وجهه في النفوس، ليُلحق بخصمه الهزيمة في النفس قبل الوقيعة، لكن هذا الغريب ثابت غير عابئ باستعراضه، ولم تهتز رباطة جأشه، فقط كان يحدق فيه بتربُّص، ويضرب قبضتَه على راحة كفه كأنه في إحماء، ويصنفه في خاطره كلبًا من كلاب فتات موائد الفساد، وحقيرًا من فضلات مفاسد الاستبداد، بل إن الكلب أشرف منه، هكذا كان يفكر فيه، ويحسبه مخنثًا، ويرى أنه بطل من ورق، شخصية استعراضية، لكن هشَّة خيالية، ينوب عنها ممثل آخر في الظل يتلقى الضربات في المواقف الصعبة.

الرجل الأسمر الغريب «**إدريس السوسي**» يحصي ما تبقى من الخطوات بينه وبين غريمه بحذر متوجس، قبل أن يحدد في عقله هدفًا مضمونًا، و«**الذئب**» نفسه شعر بحرج لم يستطع أن يداريه من صمود هذا **الغريب** المتطاول المتجاسر، وانتابه ضعف عابر، وشعور حائر، حتى شك في قدراته، وارتاب في قوته، فاهتزت معنوياته، وردَّد في

نفسه بقلق لم يعهده: «هل أخاف من هذا الغريب الأسمر»؟! لم يتلقَّ صدًى لسؤاله، بل تفادى عقله - وقد اضطرب - أدنى احتمال مُذِلّ، وتسرب إلى خلده ما كان يتجنبه، شعور برهبة اللحظة وتضارُب المشاعر في لُجَّة الصدر، والحقيقة التي اكتشفها اليوم وتناساها وتغافلها أنه منذ زمن لم يختبر قوته وشدة بدنه، ولم يُمْتحَن في مواجهة رجل لرجل، لأنه ببساطة لم يكن في حاجة إلى مواجهة عنيفة، تتطور فيها الأحداث إلى صراع بدني، يحتكم فيه إلى قوة الأبدان... ومَن كان يجرؤ؟! لكن ماذا لو صرعه هذا الغريب القادم من حيث لا يدري... هذا الغر...؟! ماذا لو وضع حدًّا لأسطورته كرجل لا يُهزم ولا يقهر؟ ستكون الضربة القاضية له لا محالة، وبداية الانهيار، لا... بل الانهيار التام، فقد كان يكفيه أن يلوح بالسوط أو ظله حتى ينضبط الجميع، ويتزاحم القطيع، ويتراجع كل من تجاسر بطيش، ومعظم أهل **بلدة الغرافين** أصبحوا يخافون من ظل السوط لا من السوط ذاته، تناسوا السوط، وغدت تلويحة منه تفض الجموع التي تنأى بأجسادها بعيدًا... بعيدًا عن جلدات لم تعد إلا أثرًا في العقل والوجدان، وصار ظل السوط يهز النفوس ويردع المتنطعين.

تناسلت في عقل «**الذئب**» الأسئلة الحارقة بحسرة دفينة، أوَلَم يكن يكفيه أن يصرخ مزمجرًا كالأسد الضاري ليزرع الرعب في النفوس ويُرَكِّع الحشود؟! فما من أحد تجرَّأ عليه قبل اليوم، يلعن الغريبَ في خاطره بحقد غالب أعمى، احتشدت له عقبان الشر في خياله، تلوح

بمخالبها الدامية مرفرفةً بأجنحة الغضب تؤجِّج صهد الضغينة في صدره، «ابن الكلبة هذا...! من أين خرج؟! وأية مصيبة جرفته إليَّ...»؟! لكن هذا الغريب الذي يبدو كالصخرة الصماء، يعرف هو أيضًا حق المعرفة هذا النوع من أشباه الرجال، ويعرف ما علق بعقول ونفوس أهل «**بلدة الغرافين**» من خوف وهمي، وأثر لسطوة بلَّدَت التفكير، نعم هذا ما يجول في خاطره، فهو يحسبه من عينة عفنة سافلة وضيعة من الرجال المزيفين، الذين يبيعون روحهم للشيطان مقابل حظوة أو نعمة من خواء، يعرف أمثاله من زيف الأبطال في أزمنة المحن والشدة، فهم أشداء على الضعفاء جبناء في البأساء عبيد للأقوياء.

يتسلح «**الذئب**» ببقية كبرياء، وسمعته غدت على المحك على كف عفريت، وسلطته على شفير حفرة سحيقة عميقة تطل منها رؤوس اللهب وقد تحيلها رمادًا إن لم يحسم الأمر كما اعتاد، فيعزم العزم على حسم التحدي اليوم، نظرة خاطفة منه لرجاله المتربصين تعني ما تعني، فهو لا يضمن النتيجة لأول مرة في حياته، ويُعوِّل على مؤازرتهم ومبادرتهم حين يحمى الوطيس، قبل أن يصرعه الغريم، ينهر غريمه ملوحًا بسوطه صارخًا بألفاظ بذيئة:

- تحرك...! تحرك من هنا... يا ابن «الفاعلة»!

لا يستعجل «**إدريس السوسي**» الرد، ويخطو نحوه وهو مبتسم يهز

رأسه، ولفافته تدور بين شفتيه كأنه يعذبها تعذيبًا، بهدوء يربك الخصم قائلًا برباطة جأش:

- وهل هذه أرض تركها لك آباؤك إن كان لك أصل...؟
- ماذا تقول يا كلب...؟!
- الكلب هو أبوك يا ابن العاهرة.
- يظهر أنك لا تعرف بعدُ مَن هو «**الذئب**.»
- مَن تكون غير كلب تقتات من الجيف؟!
- يظهر أنك في حاجة إلى من يعيد تربيتك يا صعلوك...!
- جرب...! يا جبان...!
- لا...! لا...! هذا كثير، أنت تحتاج إلى أن تُجلَد من أخمص قدميك ويُطاف بك في البلدة عاريًا ذليلًا... ويرشقك الصغار بالحجارة.
- حاول...! يا من تختار من الفرائس الضعيفة وتدعي الفروسية ولا تجرؤ على النفوس الأبية! مَن تكون أنت...؟ يا وضيع...! لستَ غير حقير... عفن... تتسلط على رقاب الناس بحس أسيادك...!

كأن «**الذئب**» لم يصدق ما سمع ورأى، تجحظ عيناه من الصدمة والذهول، فيلتفت يمنة ويسرة مرتبكًا، يرى في عيون الناس ما حدسه وأوَّله، يرى في نظراتهم بذرة استصغار لشأنه، شماتة بعضهم

به، فيشعر بالحرارة تسري في لحمتي أذنيه، لتتحول هرشًا في فروة رأسه، وبدبيب الغضب الجارف يجري ملتهبًا في مجرى الدم، فتركبه حمية طاغية وعصبية مرغية مزبدة، وسط أصوات الحشود العالية المضطربة وصياح رجاله المختلط الإيقاعات، وهم يحثونه ملوحين بالأيدي حث الكبش الأقرن على الكر على كبش آخر في مضمار صراع الأكباش، فلا يكفون عن الصخب والصراخ مطالبين بحماسة وضغينة أن يقتص «**الذئب**» من المتنطع المغتر، ويقطع لسانه ويرمي به للكلاب ليكون عبرةً لكل متجرئ على خدام «**السيدة**»؛ فيصرخ «**الذئب**» وقد شحذت الأصوات همته، وألهب الصراخ حميته، وهو يهتز اهتزازًا:

- ستعرف الآن يا ابن الساقطة مَن أنا ومن أسيادي.

يعمد إلى سوطه، ويرفع يده عاليًا، وهي ترتجف... أمِنْ خوفٍ أم من غضبةٍ...؟! لا أحد حسم في الأمر، لكن الأعين التقطت الرجفة. والذاكرةُ الجماعية سجلتها بدهشة، وغالبًا ستُحسَب ضده وليس له، فما أكثر الخصوم...! وما أثنى عليه إلا خائف أو موارب منافق مخاتل، أو متملق طامع في رضاه ليحصل على مَنَعة من سيدته إن زكاه، وهذا حظ المقربين المغترين بما حظوا به من حظوة القرب، أو مَن يدورون في فلك البطانة الفاسدة، فكل مديح فيهم علنًا هو ذم في السر، وكل ثناء عليهم جهرًا هو نقمة عليهم في الستر، وكل إطراء حضورًا هو سخرية غيابًا. يمنعه «**إدريس السوسي**» بخفة حركة، فيشده من ساعده بقوة وشدة ومهارة محبِطًا ما نوى، فينثني السوط وتهوي ضفيرته

وتتراخى، ثم يلوي عضدَه ليًّا حتى كاد يفصلها عند مفصل الكتف، يقمع «**الذئب**» ألمه في البداية خجلًا وكبرياء، فيعتصر في وجهه الدم اعتصارًا وهو تحت رحمة غريمه حتى يحمر، وتنتفخ عروق صدغيه وجبهته، ثم يضعف فيتألم ألـمًا مكتومًا ويتأوَّه حتى عجِبَ من ذلك الجمع، ويفلت من قبضته بصعوبة، وربما أفلته عمدًا، ولم يكتف بما فعل به، بل يدفعه زجرًا عنيفًا بساعدين قويين، حتى كاد يسقط صريعًا أرضًا. تصرخ «العالية» صرخةَ المفجوعةِ والمنبهرةِ، وهي تضع يديها المرتجفتين المنكمشتي الجلد على خديها اللذَيْن غزاهما نمش وكلف الشيخوخة، وقد جحظت عيناها رعبًا مستنكرةً مستاءةً مما تابعت من وقائع، فأحاط «**بـ «إدريس السوسي**» رجال «**الذئب**» من كل جانب كأنهم ضباع جوعى، وهم يلوحون بالعصي والهراوات والسلاسل، وكانوا كثرةً لا تردُّهم شجاعة ولا بأس، والكثرة تغلب على الشجاعة، ولا يرمي بنفسه بينهم غير طائش لا يُقدِّر الأمور حقَّ تقديرها ولا يفرق بين الشجاعة والطيش، فلم يستعجل «**إدريس السوسي**» العراك، ولم يطلبه بل اضطر إليه، ورغم ذلك ظل مترقبًا معوِّلًا على الإدبار لا الإقبال، صخبت الغوغاء أيضًا عليه، ترضيةً للسيدة، وميلًا لِحِلْفها الذي لا يخرج منه إلا هالك، حتى كادت تتمكن منه وهي في ذروة الغضب، مقبلةً عليه كعاصفة هوجاء، ولو فعلت العامة ما كانت تنوي لتفرق دمه بين الناس، فشق القصاص والدية، وعسر توجيه الاتهام. لكن فجأة... لعلعة رصاص دوت وعمت الأرجاء، أفزعت

القلوب وهزت الصدور، وكبحت كبحًا غضب الجموع، وصدت الهجوم، وأجهضت تكالب رجال «**الذئب**»، فتطلعت العيون بذعر إلى مصدر الطلقات من كل الجهات، فظهر «**قاسم**» ولد «**الراضي غربان**» وفي يده بندقية وفي عينيه برق وميض العزم والجرأة.

«**قاسم**» هذا الشاب المثير للجدل بلباسه ومظهره الغربيين، المرح حدَّ النَّزَق، الساخر المستخف بعادات وأعراف ومعتقدات أهل بلدة **الغرافين**، يصف طقوسهم بالخرافات والجهل، هو شوكة في حلق **السيدة** ورجالها، لا يتردد في كشف دجلها، واصفًا إياها بالساحرة الحمقاء التي تستغل السذج والجهلاء، جاعلةً المغارة مصدر غناها والكل مصدق عدا قلة مغلوبة، مدعية أن المزار هو الضريح والمرقد المبارك للولي الصالح «**سيدي الفَرَاش**» الذي لا حول له ولا قوة، ولكن اسمه غدا عندها صكًّا تجاريًّا تبيع وتشتري به، تغتني وتَطَال به ما تشاء من ضياع وأموال، وكان هذا الشاب مأخوذًا بحياة الفرنسيين حدَّ النَّزَق والطيش، منبهرًا بأسلوب حياتهم حتى غدا جزءًا من هرج شبابهم وصخب لياليهم وضوضاء حفلاتهم.

في هذا الشاب جرأة مشوبة بطيش، وجسارة معجونة بنَزَق، ووجب الحذر منه كل الحذر، فها هو يظهر من حيث لا يعلمون ويخطو متقدمًا أمام «**إدريس السوسي**» خطوًا حثيثًا، يُرخي نظارتيه السوداوين على أنفه، يتفرَّس في الوجوه لحظة قصيرة غدت كالدهر في نفوس المتربصين المترقبين، ساد خلالها صمت رهيب من ترقُّب

مرير في النفوس لما سيحدث بعد قليل، فلم تصبر الغوغاء فهاجت مرة أخرى، صاخبةً مهدِّدةً بهرج ومرج، فصوَّب **قاسم** البندقية ذات الفوهتين صوبهم بلا تردُّد ولا خوف، وأظهر العزم والتصميم، وهو يرفع عن البندقية زر الأمان، فتُسمع الطقطقة ويسري وقعُها في النفوس؛ فتخبو هِمَم المتحاملين، وتقع في مسامعهم موقع الخوف والفزع، ويتبدَّد الجمع بين مُدبِر وفارٍّ ومُندسٍّ بين الحشود، فهم يعرفون الشاب ونزقه، وحظوته عند أهل السلطة، حصانة مؤكدة، وقد تعلم في مدارس البعثات بين الراهبات والمبشرين مع أبناء وبنات المعمرين، ويعلمون بلا ريبة بل يقينًا قُربَه من الأوساط الشابة الفرنسية والأجنبية، فحفلاته مثل حفلاتهم صاخبة مختلطة، يحضرها شباب وشابات من أبناء وبنات الفرنسيين ووجهاء القوم المغاربة في المدن، بملابسهم وبدلاتهم العصرية، وتبدو أمامهم الفتيات وهن يخطون أنيقاتٍ متبرجاتٍ، تملؤهن الحياة في التنانير الضيقة القصيرة البهية الألوان والتي لا تتعدى الركبتين، وقَصَّات شعورهن القصيرة دون ضفائر، متحررات دون عُقَد من كل منديل أو مشد أو غطاء رأس، ككائنات غريبة من عوالم أخرى عجيبة، فتكتفي النساء بالتلصص في تعوُّذ وبعض الرجال بالتجسس بتلذذ أو استنكار مزيَّف.

وقد فشت حكايةٌ بين الناس أن «**قاسمًا**» على علاقة غرامية مع الشقراء النحيلة «**صوفيا**» الابنة الصغرى للحاكم العسكري للمنطقة المسمى **جورج**، والتي قالت عنها نساء وفتيات البلدة: إنها لا تصلح

لا للحلب ولا للحطب ولا للسرير ولا للخبيز، من قلة لحمها ورقَّة عظمها، وتساءلن سرًّا أو جهرًا بعجب ساخرات: «كيف يطيق الحمل والولادة جسم نحيف كجسمها...؟!» وشوهدا معًا – حسب الرواية الشفوية التي تسري كالنار في الهشيم، زيادةً وتفصيلًا من العقول – أكثرَ من مرة في خلوات عشق بين الأحراش، وكانا فعلًا يتجولان من حين لآخر على صهوتي فرسين من أفراس أبيه بين الشعاب والمروج المتاخمة، وقد تلصص وتجسس الفضوليون عليهما وهما في قمة النشوة، يُشعلان لهب اللذة بقبلات مترنحة، كأنها تُعْصَر من الشهد، وكلما سمعت النساء الحكاية ضربن بأياديهن على صدروهن واستعذن بالله وهن يلوين شفاههن، ويرددن: «هذا آخر الزمن...».

قاسم شاب مليح فارِهُ الجمال، جلي الحذاقة، ومتناغم الجسد دون عيب كأنه نُحِت من حجر بأبعاد فنية دقيقة، وقيل إنه ورث عن أمه الشمالية «الطنجاوية» نسبةً إلى مدينة «**طنجة**» نعومةَ شعره المسدَل على كتفيه الذي تلاعبه الرياح فيتطاير غجريًّا، في مفارقة بهية مع سُمرة صافية لبشرته، مما جلب على الأم المليحة شرَّ ألسُن أهل البلدة، فتتمكَّن الغيرة والحسد من صدور النساء، ويزعمن أنها تزوجت من «**الراضي غربان**» والد **قاسم** وهي حبلى، وأن **قاسمًا** ليس من صلبه، أما الرجال فيذهبون أبعد من ذلك بكثير حقدًا وكراهيةً وغيرةً، فيرددون ساخرين بهزء مُنفِّسين عن صدروهم ثقل ألم الضغينة: «أي فحل هذا من الأعلاج زرع بذرة في رحم المرأة قبل أن تحل

بالبلدة؟!، والمرأة بريئة فاضلة، محصنة غير دارية بما يُنسج حولها من افتراء وأباطيل، وإن صادفتها النساء ذواتهن في الأسواق والأعراس والولائم والمآتم أَثنَيْن عليها أجمل ثناءٍ وعلى جمالها وجُودها وخُلُقها، وارتمين في حضنها مقبلات معانقات بحرارة وشوق، وإذا أدبرت تغامزن وهن يلوين شفاههن ويقوسن حواجبهن، ولو تمحصوا جميعًا رجالًا ونساءً وتتبعوا أثر الأب في الابن، لوجدوا الأثر من الأصلاب في ضِيق العينين، ودقة الأنف، وطريقة المشي، وحتى النزق لم يأتِ به **قاسم** من بعيدٍ، والابتسامة هي ابتسامة الأب، والغضب في الشاب الوسيم هو غضب أبيه، وفيه من ملامح «**الراضي غربان**»، لكن الحقد يُعمي العقول، والضغينة حين تتمكن من الصدور تُطفئ نور الحقيقة، وتحتفل بظلام الباطل، وما سخريتهم في الحقيقة إلا طريقة ملتوية للتنفيس عن ألم الحسد، بمسايرة هوى النفس الأمارة بالسوء، ومس الأعراض بما يسفه كل نعمة لا تطال، والحسد والغيرة يعميان البصر والبصيرة، ويحطبان لنارهما من خشب سقف السكينة، فينهار سقف الطمأنينة، وتهبُّ الأنواء العاصفة على النفس المضطربة، فتزيدها همًّا وغمًّا، وتؤرِّق الضغينة الحاقدَ وتنغِّص عليه ما بين يديه من نِعَم، فلا استلذَّ بما لديه، ولا حاز ما بيد غيره، فذاك هو الجحيم المؤلم، وما ينفكُّ الحاقد مجتهدًا مكِدًّا في المس بالأعراض والافتراء واختلاق النقائص والجرائر، والادعاء على السرائر، حتى يأتي من لسانه ما لا ترده غير الخناجر والبندقيات في هذا الزمن الغادر.

أخذ «**قاسم**» موقعه بحذر على بُعد خطوة من «**إدريس السوسي**» وقال بصوت ثابت غير متردد فيه من الشجاعة ما يساويه من الجرأة والثقة في النفس:

- مَن يقترب من الرجل أطلق عليه النار...! أفهمتم...؟

يتراجع الجمع القهقرَى بصخبٍ وقد جحظت العيون وفُغرت الأفواه، واهتزت الرؤوس عجبًا، وهمهمت النفوس ذهولًا، ففسحوا زاوية واسعة للنظر «**للعالية**» من أعلى عربتها، تحدجه بنظرة تتطاير منها شرارات الغضب، وتصرخ كأنها فقدت صوابها وقد غلبها ما لم تقدر على لجمه:

- حتى أنت يا «**قاسم**» أصبحت لك بندقية وهمَّة ورجولة! سيكون لي حديث آخر مع أبيك، يا تربية «الفرنسيس»!

يتقدَّم نحوهم بجسارة ونظرات ثاقبة ويصيح مزمجرًا:

- ألا تخجلون من أنفسكم؟! كيف تستفردون برجل أعزل غريب عن الديار يا أهل بلدة **الغرافين**؟! ما دهاكم وأنتم من صلب رجل جُبِل على المروءة، وعدم القتل غيلةً، وعدم التعرض للعُزَّل؟! أين نخوتكم وشهامتكم وفروسية جدكم الأول «**الغرافين**»؟! أنسيتم من أنتم؟! أنسيتم سيرة «**الغرافين**»؟

- أتُعلِّمنا المروءةَ يا فاسق؟!

جاءه الصوت من بين الجموع، فلم يُحدِّد مصدره، فردَّ عليه ببرودة

وهو ينقل نظره بين وجوه الناس:

- أرني وجهك إن كنت رجلًا، بدل الاختفاء بين أكتاف الرجال...

يعم صمت قاتل، تضع «العالية» حدًّا لهذا الصراع، يهمس لها «الرقاص الملهوف» مسِرًّا بشيء، تستحضر أن الغريب محسوب على رجال المنجم الذي تديره الإدارة الفرنسية، وتستحضر حظوة **قاسم** عند الفرنسيين فتقول بهدوء مصطنع:

- تعالوا يا رجال ليس اليوم... ليس اليوم...!

يتراجع «**الذئب**» القهقرى دون أن يولي ظهره **لقاسم** و«**إدريس السوسي**»، كأن **السيدة** رمت له بطوق النجاة في اللحظة المناسبة، وظل حذرًا أن يباغته غريمُه الغريب، وقد رأى منه ما يخيف، وخَبَرَ بأسَه، ظل «**إدريس السوسي**» يتعقب «**الذئب**» بنظراته الملتهبة، كلاهما متربص بالآخر، إلى أن يستأنف الموكبُ سيرَه، تحت نظرات الناس وهمهماتهم التي أوجعت «**الذئب**»، فقد استصغره الغريب وكاد يصرعه واستخفَّ به **قاسم** أمام رجاله، وغدت سطوته مهدَّدة، أما «**العالية**» فقد تعكَّر مزاجها، وأحسَّت لأول مرة أن مارقَيْن خرجا اليوم عن طوعها وسلطتها علانيةً، ويسخران من بركتها ومنزلتها المقدسة، وكم تخشى من هذا الوباء - التمرد - لأنها تعرف أنه سريع الانتشار كالنار في الهشيم. يلوح **قاسم لإدريس السوسي** بتحية من بعيد مبتسمًا برباطة جأش، ويختفي في عمق الدار والحذر لم يفارقه دون أن ينبس ببنت شفة.

إن تلهَّت **السيدة** عن الحدث بزيارة أهل البلدة، فالواقعة سكنَتْها، وملامح وجهَي الرجلين ملأت رغمًا عنها خيالها واستفزَّت حواسَّها، فاضطرت للمجاراة وستر القلق والهم، وطفقت تزور كل دارٍ بها كرب أو حِداد، فتبكي بلا دمع ساخن يترجم الحزن العميق في اللواعج، فإن انتحبت فرياءً واصطناعًا، فبكاؤها بلا ألم حقيقي في العوالج، تمسح بيدها الرعناء على رأس هذا مصطنِعةً العزاء، وتُطعِم ذاك وهي كارهةٌ بدهاءٍ، وفي كل هذا، ينحِط «الرقاص الملهوف» نحيطًا شديدًا، متصنِّعًا تأثُّرًا عميقًا، يدعو لها بالدعاء الشديد، وكفاه مرفوعتان تضرُّعًا إلى السماء، يدعو لها بالعُمْر المديد، وما زال في فمه أثر من ثمالة نبيذ بجلاء، يرسم لها في الأذهان المستلَبَة صورةَ القُدسية ذات الكرامات، راعية وحاضنة المتشردين، والضائعين، واليتامى، المعوزين، والأرامل، والضعفاء، والغرباء، والثكالى، والمغرمين، والسقماء، وذاك كله من تسلُّطٍ مُغنِم أو جور مُغرِم، ومن غِنًى وفير غزير لا ينضب مَعِينه، لا أصل فيه لمالٍ طيِّبٍ من عَرَقِ جبينٍ، ولا لغلَّة من حرثٍ تحرثه بمشقَّة وكَدٍّ، أو من ثمار رعتها حتى غدت غلَّة من صريم، فتجمعها في جرين، ولا من جلودٍ دبغَتْها بعد نقعها في حوض عطين، ولا من تجارةٍ روَّجتها عبر السنين، ولا من عِلمٍ بوَّأها مقعد الشرف العزيز، ولا من محتد شريف أصيل أثيل، كله فساد من فساد، ومن غش وتدليس وغثاء جهل، وسُحت مُبين، ونهب مكين، ونصب سليط، تغرف منه متى تشاء، وتترك للناس وَهْمًا في غفلةٍ منهم الشربة

الأَسِنَة من حوض غناها الكثير، مُستغفِلَةً ومُستغبِيَةً الحشودَ والأتباع، بأسطورتها التي رسختها في العقول والصدور، فغدت مصدرَ الغنى والجاه والسلطة لها ولوجهاء البلدة وكل مَن يبارك الوهم ويقتات من الخديعة.

٣

انتعشت البلدة بقوة بالزوار والوافدين من كل صَوْب أواسطَ الشتاء، بعد ما هطل المطر الغزير، ففشا الأمل وتغيَّرت السحنات من وجوم إلى حبور، سالت العيون، وجرى الماء في وادي «**أم الشتا**»، وغطَّت الثلوج قِمتي **الجبل الأخضر** و**جبل الغور**، وامتدت إلى أدنى السفوح، فصدقَتِ البشارة التي زعمتها **السيدة**، وزادت من مكانتها بين الناس، وما البشارة التي بشَّرَتْ بها إلا خبرٌ من برقية عن أحوال الطقس نقلها إليها العقيد **جورج**.

عادت الحياة إلى الدروب والمسالك، وعادت ليالي البلدة إلى سهرها وسمرها وصخبها، فالعيون الساهرة والجفون الحائرة لا تغفو منذ غسلت الأمطارُ البلدةَ، وتصالحت قمم الجبال والثلوج، لم تهدأ العربات الجامحة التي تجرها الخيول والبغال والحمير الراكضة بجنونٍ على الطريق التي سُميت تيَمُّنًا بـ «العالية» وهي تقلُّ الزوار بصخب من حثٍّ صديعٍ وصياح مريع، وقد علَتْ أصوات السياط في الأرجاء، وطقطقةُ الحوافر كقرعٍ رتيبٍ على الطبول، لا يعوق عَدوَهَا السَّلِس غير حذر الكبو عند الصفواء الشاردة، أو الصخرة الصلبة الناتئة.

طريق «**العالية**» طريق مسلكية وعرة، وطَّأَها ومهَّدها بالحجارة المدكوكة الحاكم العسكري الفرنسي العقيد **جورج**، لعبور الآليات

الضخمة إلى منجم الفضة **بجبل الغور**، وتمتد كأفعى بين المسالك الوعرة، تحفُّها غابات الصنوبر والسنديان، وينمو على جنباتها نبات الحسك وحشائش «الدوم»، تخنقها المنعطفات الضيقة والمسارات الحادة، وتغشاها العتمة الموحشة في الليلة الظلماء، وتفرَّعت عنها طريق مسلكية ضيقة تسمى «**طريق الغور**»، تنعطف شمالًا نحو قمة **جبل الغور** حيث تعلو الأسوار العالية لثكنة الفيلق الفرنسي ٧٧٧.

بلدة «**الغرافين**» تنتعش وتنفضُ عنها غبار سنوات القحط مع تباشير المطر التي أعادت البسمة للوجوه وحفَّزت البعيدَ على السفر والموسم مبشرة بالخير العميم، فتكاثر الزوار من كل حدب وصوب بفضل الأسطورة التي نسجتها «**العالية**» ورعتها وفرَّعتها حتى غدت عصبَ الحياة والتجارة وحقيقةً لا ينال منها عقل متنوِّر، ولا فكر متحيِّر مشكِّك، أسطورة تغيرت بصِيتِها الحياة والأنشطة والاهتمامات بالبلدة، وامتدَّ بها البنيان والعمران رغم بساطته، حتى ضاقت السفوح والشعاب بالناس، فكادوا يعمرون «**غابة الحسك**» التي تشكل حزامًا طبيعيًّا للبلدة، لولا الرهبة التي تلفها من خوف دفين منها لا يُعْرَف له أصل غير ما يُحكَى من عالم الأرواح والجن توارثوه شفاهًا عبر الأجيال والأحقاب.

لم يكن بها لا مركز للدرك ولا قوة شرطة ولا سلطة مدنية محلية، إلا سلطة **السيدة** وأتباعها، أما دار القيادة حيث يحكم القائد «**الشراجي**» الذي يمثل سلطةَ السلطان، فبعيدة مسافة خمسة عشر كيلومترًا، منتصبة

على ربوة على الطريق المؤدية إلى مدينة **فاس**، فإن كان لكل قرية على عادةِ أهل **المغرب الأقصى** شيخ يمثل السلطة المركزية أو على الأقل «**مقدم**» يتحدث بلسان العاصمة، فبلدة «**الغرافين**» لا تعرف **شيخًا** ولا مرجعًا قانونيًّا يُرجع إليهما فيما شجر بين أهلها إلا «العالية»، فهي السلطة والفاصل والمفتي في كل شاذَّة وفاذَّة، مؤيَّدَة بالحاكم العسكري العقيد **جورج**، ومؤازَرة بالقائد «**الشراجي**».

لم تخفُتِ الحركة ولا الصخب ولا العربدة الرعناء، ولم تهدأ الأهواء في الأزقَّة والدروب المؤدية للمزارات، وقد جاوز الليل منتصفَه، ولم تمنع عفرة البرد القارس ليلًا الزوارَ من التجوال، رغم صرصر الريح المخيف وخريقها الشديد اللذَيْن يحملان معهما زمهريرًا لا يطاق، يشهقه **الجبل الأخضر** و**جبل الغور**، ويزفرانه من رئات السفوح المثلجة، هواءً باردًا قارسًا على الوادي والدور والطرقات، ظلَّ قلَّة من الزوار يتوافدون دون انقطاع، يقصدون مغارة «**سيدي الفراش**» وعين «**أمونة السودانية**» والدار الكبيرة حيث تقيم **السيدة** وراء الأسوار العالية كقلعة محصنة، ولا تنقطع كلابها الضارية عن النباح ليلًا.

وقد أشاع «**الرقاص الملهوف**» بين القرى أن هذا العام عام **الزيارة الكبرى**، وفيه بركة ويُمن وشفاء، وسَعَة رزق لكل زائر مملق أو حائر عليل، فنودي بالأمر في الأسواق والضواحي، وبثَّه أعوانه وعيونه في الحواضر والبوادي، فتناقله بحماسة وهمَّة كل مصدِّق مستلَبٍ، وبثَّه بثًّا سريعًا «**البراحون**» المأجورون مروِّجُو الأخبار والأحداث بالأجرة،

ناسجين من مَعين الخيال الواسع قصص بركات وكرامات «**العالية**» في عام **الزيارة الكبرى**، مبشرين بالسرِّ النوراني الذي تزعم أنه تجلَّى فيها فيضًا من الولي الصالح «**سيدي الفراش**» فزعمت **السيدة** أنها غدت «روحَه» في غيبتِهِ، وصار قلبُها مرآةً تتلقى الخبر والأثر حضورًا أو شهودًا، فاتصالها به غير منقطع، وتفرَّق من خدام الكرامات الأدعياء ممن ينشرون ويذيعون ما أُملِي عليهم وحفظوه عن ظهر قلب من «**الرقاص الملهوف**»، ولم يتأخر الرد كثيرًا، وكان الناس في القرى البعيدة والحواضر الناشئة، قد كابدوا وعانوا من صروف الدهر ومن أثر سنوات القحط وأحوال الجوع أشد العناء والمشقة، فالتمسوا في بركة هذا العام - كما سمعوا - ما يبدد يأسهم وكربهم، ويجدد أملهم وحظوظهم، فتقاطر الزوار زرافاتٍ ووحدانًا، رغم عفرة الصرِّ، وأُتيِحَت لكل راغب خمر ولو في خفاء الأقداح التي تدفئ الصدور من نبيذ التين المنبوذ، ليضفي على العقول نزَقًا في خاطر، وأثرَ حبورٍ عابرٍ، ويوهم الأجساد المنهكة بقوة بدن وهو واهن عاثر، وتشعَّب عن ناشري الأخبار الرؤساء شهود صغار وحُكاة انتشروا بين الجموع المتعطشة للرجاء وحول الحلقات وتحت الخيام، يُرسِّخون الوهم سحرًا وزخرفًا في القول ببركة المزارات ونبوءات السيدة وقدراتها الخارقة، يسردون على الغُفَّل الذين لا يُرْجى منهم خير ولا شر ولا يطلبون سوى التلذذ بالعجيب والغريب، ولليائسين والسقماء ما يرمم الرجاء المتداعي في الشفاء من داء أعجَزَ الحكماءَ والعقلاءَ، وما يعيد الأمل للعاقر العقيم

في الذرية والأبناء، وما يجدد الرجاء للمفلس الذي ضاقت به الأرض بما رحبت في النجاة من كساد مُغرِق، وما يُغري العِنِّين العاجز المشتاق بمتعة الأسرة المفتقَدَة، وبما ينعش أمل العانس في الزواج المرجو وقد تعطلت مفاتيحه، وما أفلس - في الحقيقة - العبادَ غير توالي سنوات الجدب الشديد واحتباس المطر، وثقل الديون والمكوس، ونهب القواد ورجال الدولة المرتشين ذوي النفوذ والحماية تحت الأجانب، وكثرة الضرائب الفرنسية و«المخزنية» لتغطية عجز الخزينة الفرنسية خلال الحرب، وقد نفقت البهائم وهلك كثير من العباد من الوباء والجوع، فكسدت التجارة والأسواق ببوار البيوت وانطفاء نار المطابخ حتى افتُقِد الرماد، مما قلَّل الطلب على السلع والبضائع والأقوات، وما عطَّل الزواج والزيجات والأعراس إلا ضيق وعَوَز ثقيلان جثَما على القلوب، فضيَّقَا سبل الرزق وأغَمَّا العقول والصدور، وأعجزا الشباب عجزًا متمكنًا في العقول قبل البدن عن طلب المتعة، وما طالت أياديهم قوتَ يومهم، فخملت همَّتهم وخبَتْ رغبتهم من إملاق في الزواج، وإن وجدوا في سنوات الجوع من المومسات الرخيصات من القرويات الهاربات ما أطفأ شهوةً عابرةً وأبرد نزوةً جامحة، حتى غدت دعارة القرويات مألوفةً في الأسواق بين الخيام وفي الخُرُب والأطلال، تكاد لا تستتر عن العيون، فتغافل وتساهل الناس في الأمر وإن لم يُجْبَلوا على الرذيلة والفاحشة، وما لهم من قوةٍ لصَدِّها والبطون جائعة تطلب الطعام صراخًا وبكاءً ونحيبًا يقضُّ المضاجع، والأرض غبراء جديبٌ

يلفُّها البؤس والشقاء، والصغار في الأكواخ والبيوت يتلوون بألمٍ من جوع متمكِّن أنهك الأجساد، وإن تلهَّوْا بطعامٍ من أعشابٍ مُرَّة تُطبخ لهم في قدور علها تلجم النحيب والبكاء، حتى انتشر المغص والقيء والمرض، وهلك منهم الكثير من سموم ما يُطبخ ولا أصل له في طعامهم، وقد تناسَى الناس الأعراسَ في لجة الجنائز وهلكى الأمراض والأوبئة وقتلى الجنود الفرنسيين، وما عطل لذة الفراش عند الأزواج إلا همٌّ جارف ليلًا تتقلب له طول الليل الجوانب، وخوفٌ قاتلٌ من غد مُعتم المعالم، أبردا الدم في العروق، وعطَّلا محفزات الشهوة في العقول، فكيف للأجساد المنهكة أن تجد سبيلًا لنساء جائعات...؟! وكيف السبيل للذة فراش وصراخ الأطفال جوعًا يفطر القلوب ويُفتت الأكباد...؟!

والعام هذا فيه من تباشير الخير مما أمطرت السماء وأثلجت بغزارة، وفيه من الرعود والبروق ما يُجدِّد الآمال والأحلام، وإن قسا عليهم ببرده القاسي الشديد الاستثنائي هذا العام، وإن تأخر الهطل لكنه حلَّ بغزارة ممتلئ الغيم والمزن، ومعه الثلوج الكثيرة، وبالثلوج تسعد السواقي والينابيع والأودية والآبار، بيد أن ندوب أعوام متتابعة من الجوع والقحط والفوضى والوباء لن تنمحي بين ليلة وضحاها، فإن علَّقوا الأمل على هذا العام الممطر، فهو رجاء مشوب بحذر وتردد، أغلَّ إلى الأعناق الأيادي على ما بقي من قوتٍ ومالٍ على قِلَّتهما.

سُمح لجنود الفيلق ٧٧٧ بالنزول إلى البلدة، وحدهم هؤلاء

العساكر بإمكانهم بسط أياديهم كلَّ البسط دون الحذر من تقلُّب الأيام، ولا صروف الزمان، هم وحدهم قادرون بلا تردد على إعادة الحياة إلى البلدة، ولهم متطلبات غير ما تقدمه «العالية» عادةً للعامة، وعلى البلدة ألا تفرط فيهم، وأن تغمض العين عن أهوائهم ونزواتهم، فهؤلاء الجنود أجورهم جارية غير منقطعة ولا متعلقة بمطر ولا أجواء، ولا ضريبة ولا جفاف، وقد كانوا مختلطين متنوعي الرتب والأصول والأعراق، منهم الضباط وضباط الصف الفرنسيون، الذين يرتدون بدلات عسكرية زاهية، بسترات لها أزرار نحاسية لامعة، وسراويل بأحزمة جلدية بنية، بها جُرُب أغماد المسدسات، أما المجندون المحليون والزنوج ممن عادوا عام **١٩٤٥** أحياءً بلا عيب أعطابٍ جسدية ولا نفسية إلى العسكرية، فكان زيهم في الغالب جلابيب ثقيلة بلون الزيتون وعمائم بيضاء، وجزمًا عسكرية برقاب طويلة، وقلَّة منهم ترتدي بِدَلًا عسكرية بسراويل وسترات وقبعات ونياشين، على غرار الجنود الفرنسيين.

وكان العقيد «**جورج**» يعرف حق المعرفة عينة من جنود المستعمرات، وكان ينظر إليهم بغطرسة وازدراء متعمدًا بمكر إشعارَهم بالخزي والاستصغار، وبنظرات ساخرة ثاقبة تنضح بالازدراء والاحتقار، وخصوصًا العريف الخمسيني المسمى «**بيهي**»، وقد كان ينعته بالمغتصِب حين يغضب منه ويروم رميَه في مقتل، مستحضرًا لغرض الإذلال وكسر النفس، بتعصُّب وخفي ضغينةٍ ما وقع **بإيطاليا**

سنة **١٩٤٣**، وخاصة في جزيرة صقلية، بعد النصر الساحق في معركة «**مونت كاسينو**» التي خاضها ببسالة وفتح بها الجنودُ المغاربة وجنود المستعمرات من الزنوج الأفارقة الطريقَ للحلفاء، وكان «**بيهي**» واحدًا منهم. وأصل هذا العار المزيف المصطنع، أنه راج رواجًا شديدًا حينها كالنار في الهشيم أن جنود المستعمرات تحت قيادة الضباط الفرنسيين، عمدوا خلالها بجلافة وفظاظة وهمجية، إلى النهب والسرقة والسلب واغتصاب النساء الإيطاليات وحتى الأطفال الأبرياء، وما سلم من أذيتهم حتى الرهبان الذين هبُّوا لحماية الناس.

وكان العريف «**بيهي**» كهلًا ممتلئ اللحم على قِصَر، متدلي الكرش، لا يدخل خمارةَ البلدة التي يديرها اليهودي «**زخارى**» أبدًا تديُّنًا ومروءةً، وما فتئ يُقسِم بأغلظ الأيمان لزملائه من الجنود حين يُطوِّقونه بالأسئلة المحرجة الجارحة، أنه ما فعل ذلك ولا شارك فيما ادعَوْا بهتانًا، ويقسم أنه كان مصليًا قوَّامًا لليل، يصوم رمضان وأيامًا أُخَر متطوعًا، ويصلي الأوقات كلما سمحت ظروف الحرب ومعه عصبة من رفاق السلاح وإخوة العقيدة من القارة السمراء ممن أُخِذوا قسرًا إلى أتون هذه الحرب اللعينة، وهم لا يعرفون عن العدو إلا ما سمعوا خُطبًا وأخبارًا، لا يدركون للقضية التي هم من أجلها جاؤوا أصلًا، وما انتموا إليها حق انتماء بالقلب والعقل إلا بعد ما رأوا من جرائم ومذابح النازية العمياء، وفظائعها الشنيعة النكراء، ومحارقها وأفرانها الخرقاء، فغدَتِ الحرب حربَهم بالفطرة والطبع ضد الشر والشيطان،

وإن جُنِّد في البداية أكثرُهم على عَجَل دون اختيار، ودون حماس ولا محفِّز معنوي، وإن عُبِّئُوا مباشرة من الحقول والمراعي والجبال والفيافي تعبئةَ استنفار شاملة في مستعمرات فرنسا والحلفاء.

كان فيهم المسلمون الذين يصلون الصلاة جماعةً ويصومون رغم المحن والصعاب، ويدعون في صلاتهم لكل رفيق بغضِّ النظر عن العقيدة، وكان فيهم المسيحيون الذين تَشِعُّ عيونهم بمحبَّة المسيح، وكان فيهم اليهود الذين لهم قضيتان، قضية الإنسانية، وقضية الجرح الغائر لبني جلدتهم، لا يُفرِّقون في الدعاء بين مِلَّة أو نِحلة، المسيحي يجثو متضرعًا لله بمحبة وسلام، والمسلم يسجد مسلِّمًا الأمر للواحد الديَّان، والعِبري يبتهل قائمًا لرب الأكوان، اختلفت الطقوس والشعائر، لكن الكل حريص على سلامة رفيق السلاح حرصَه على نفسه، يبكون الشهداء مسيحيين كانوا أو مسلمين أو يهودًا وحتى دهريين ووثنيين، لا يخوضون جدالًا حول معنى الشهادة، ولا يحتكر جانبٌ الجنةَ دون آخر، فكما يشتركون في الطعام والآلام والأحزان، يشتركون في الأسرار وقراءة الرسائل والأخبار، يتواصَوْن بالصبر والسلوان، ويتواسون بالآخرة وعدالة السماء، وهي عندهم في هذه الحرب المبيدة، آخرة واحدة وسماء واحدة، وما اختلفوا في ذلك لحد العجب، ما تفرقه الأهواء والطوائف والنحل والملل في زمن السلام تجمعه المآسي ووحدة المصير والآمال زمن الأزمات الكونية، وتذوبه

رفقة السلاح على الجبهة، فقد كانت نار النازية عمياء، لا تفرق بين لون أو عرق أو مِلَّة.

كم باح «**بيهي**» بألم دفين بحسرةٍ حتى تدمع العينان لرفاق السلاح والمصير عن جرح غائر من عار غدا لصيقًا به، رغم أنه خضع لمحاكمة عسكرية وبُرِّئ ورفاقُه من التهمة الشنيعة، التي تستنكرها فطرتُه وتعافها سجيَّته، غير أنه ظل في أعين عُصبة من الضباط والجنود الفرنسيين همجيًّا لعينًا، مغتصِبًا حقيرًا للنساء وظنينًا لا يؤتمَن له، فلم تشفع له كثرة الندوب على الجسد الذي خَذَّعَتْه الحروب، ولا كل المعارك التي خاضها تحت لواء فرنسا.

نسِي أو تناسَى الضحايا الإيطاليون إن صدقت الحكاية ألمهم وتبدَّدت معالم الحادثة المؤلمة مع الأيام، وتناست فرنسا ذاتها بسالة جنودها من المستعمرات، وتناسَى الحلفاء كثرة الشهداء من مجندي المغرب الكبير وجنوب الصحراء الذين صارت جثثهم جسرًا للحلفاء للعبور نحو النصر المجيد، فمُجِّد الضباط وغُمطَ المجندون الأفارقة الأشاوس حقَّهم في الاعتراف والتنويه، ولاقوا من الجحود ما كسر إرادتهم، ومرَّغ أنوفهم في التراب، وما نسي ضباط فرنسا، وبعض جنودها المتعصبين قصة اغتصاب الأطفال والنساء المشكوك في أمرها، فصارت سُبَّة وشتيمة لكل جندي من المستعمرات، وظلوا يعيِّرونهم بها ويكسرون أنفسهم وكبرياءهم.

تساهل أهل البلدة على مضض - حتى ألفوا وتطبَّعوا - مُكرَهين ومضطرين عربدةَ وتهتك هؤلاء الجنود الذين يحوِّلون ليالي البلدة خلال مُدَد رُخَصهم إلى احتفالات متهتكة صاخبة دائمة بين الأحراج وعلى المسالك، ماجنة بلا عنان يلجم حماقاتها، ولا عقال يحدُّ نزواتها، ولم يعد ذلك يزعج حتى كبار البلدة من التجار والوجهاء والأغنياء، وصدق ابن خلدون حين قال فيها معناه: «**إن الأمم المقهورة تسوء أخلاقها**»، فالناس هنا كانوا يقابِلون مجون وعربدة الجنود بالتنكيت والسخرية التي تُخفي ألـمًا دفينًا وتراوغه بألفة مصطنعة مع واقع مرير جديد، ما داموا لا يتحرشون بنسائهم وبناتهم، ويروجون تجارتهم وسلعهم. وقد ندر وجود العلم والعلماء في المنطقة إلا من بعض المتعلمين **كقاسم** ولد «الراضي غربان» تاجر الأثواب وما كان على شاكلتها وصنع منها ونسج منها، قاسم الذي تمرد على أبيه مستنكرًا بشدة تأييده للسيدة، وقد درس بمدرسة للراهبات المسماة «**العش الدافئ**» وهي مدرسة كاثوليكية تابعة لدير في نواحي مدينة آزرو الجبلية، وتلقى تعليمه فيها بعد بمدارس أبناء الأعيان، ولا يقلُّ عنه شراسةً في خصومة العجوز الدجَّالة وإنْ بهدوءٍ وحكمة «سي حمو» ابن تاجر البهائم «**سليمان الغاشي**» الذي أرسل ابنَه إلى **جامعة القرويين** العتيقة حاضرة العلم بمدينة **فاس** ليُجاز بإجازة العلماء فيغدو أول عالمٍ فقيه في البلدة.

تكره «العالية» أن يقاسمها سلطتَها أيٌّ كان، بحجة العلم أو

الفهم أو التفقه في الدين، أو بأي جاه أو سلطان، لكن أكثر ما تخاف العلماء والفقهاء، وكان «**قاسم**» و«سي حمو» بالنسبة إليها نوتة نشازًا في سمفونية عالمها المزيف، وانضاف إليهما هذا الغريب المريب المسمى «**إدريس السوسي**»، هؤلاء الثلاثة هم شوكة مؤلمة في خصرها، لا يباركون ولا يزكون، لكنهم صامتون، كلما مرَّ موكبها المهيب، أشعل في قلوبهم فتيل نار التمرد لا يطفئونها إلا بتوجس حكيم، فيتحاشون الجموع، ويكتمون غيظهم الدفين، ويئدون حنقهم بصبر رقيب، يتابعون الوقائع والأحداث بغضب صامت، ولِمَ لا وقد ينهرهم القريب من الأهل قبل البعيد خوفًا عليهم من بطش مكين، إن أبدوا ما في العقول من استياء مؤلم وما يضطرب في الصدور من استنكار مكتوم...؟! وما العمل وكل البلدة تعيش وتحيا وتقتات من ريع الأسطورة وعلى ما نسب لدفين المغارة «**سيدي الفراش**» من كرامات ومعجزات خفية مُنحَت أسرارها **للسيدة** المطاعة...؟! ما العمل وتجارة البلدة قائمة على ما نُسب أيضًا بدهاء لماء عين «**أمونة السودانية**» من قدرةٍ على الشفاء ومعجزةٍ في «فسخ» الأسحار وفك الأقفال، ومن قدرة على التحصين ضد الأهوال من عين الحساد؟!

بهذا الوهم الراسخ في العقول على مدى الأحوال غدت «**العالية**» **سيدة** البلدة الوصية على الكرامات المزعومة، فعلى يدها يتيسر النفع ويدفع القمع والروع، ولَيَكاد الأهل يتبرؤون من قريب من أصل أو فرع إن تمرد أو ارتاب، خشية انقطاع العطاء أو تذوق أصناف العذاب،

أو انقطاع أسباب الرخاء، وكساد التجارة في البلدة والأرجاء، فالكل يعيش من الوهم الجاثم على الفكر، من الحوذي إلى التاجر والخضار والكساب والحلاق والجزار والكهان والعرافات والمومسات والوسطاء، والرواة والمغنين والمغنيات الشعبيات، والحواة والقرادين والمشردين والحمقى.

أَلِف أهلُ البلدة الجنودَ الذين أينما حلوا حلَّ معهم الرواج والرخاء، وتغاضوا عن عربدتهم وهم يشتمون ببذاءة وسفاهة، ويسبون الشجر والحجر والأحياء والأشياء بعربدة، وأحيانًا يتعاركون ويتشاجرون لأسباب تافهة، يسكرون ويترنحون ويتقيؤون هنا وهناك بين الدغل والأشجار والحشائش، فإن تجرأ متجرئ واستاء ولو سرًّا بين اثنين، «**بات ولم يصبح**» أو يُجلَد على الملأ حتى يتقرح جلده، وتُشَرَّد أسرته، فيصمت إلى الأبد، وبصمته يبتلع كلُّ مستنكِر لسانَه.

وما كانت تعافه الأنفس في البداية على فطرتها وسجيتها، غدا عاديًّا ومألوفًا في طرقات البلدة، وأمام أعين الناس، فرواج البضائع والسلع وتدفُّق الأموال من جيوب هؤلاء الجنود المعربدين - وهم مضطرون و«الضرورات تبيح المحظورات» كما أفتى أحد المتنعمين من فقهاء العطاء - شَلَّا التفكير في الحد الفاصل بين الفضيلة والرذيلة، أما القلة الرافضة فصامتة ضعيفة معزولة، وما لها من نفوذ، وحقها باطل خفي في الصدور، وباطل **سيدة البلدة** هو الحق الذي لا ريب فيه عند الأغلبية الجاهلة، رسخته الباغية بالسلطان والأشياع وبفتات موائدها

وشرائها للذمم، وكل النفوذ بيدها، تسود وتحكم وتفتي وتحسم من وراء أسوار دارها العالية في قلب «غابة الحسك»، وبرأيها يأتمر القائد «**الشراجي**» ويجد فيها شفيعًا ووسيطًا لدى الحاكم العسكري للمنطقة، العقيد **جورج**.

غدا ليل «**بلدة الغرافين**» ليل العسكر دون منازع، خلال زمن رُخَصهم، ومرتع عربدتهم، ففي دروبه يتسيَّدون ويثملون، ويستأنسون به من غربتهم وعزلتهم في ثكنة محاطة بالفراغ والخوف والرتابة والضجر، فما أن تفرغ الثكنة منهم، حتى يصيروا في فضاءات البلدة كالحيوانات الضارية المحرَّرة توًّا من عُقُلها، فيركبهم الشبق الجامح، ويجنح بهم نحو الرعونة العمياء الشعواء، وتُعميهم الشهوة، وتُلجم فيهم البصيرة، وتُغريهم بالتهتك حد الجنون، وقد غلبهم سكر طافح رفقةَ المومسات اللواتي تعاقدوا معهن، وجئن من مدن قريبة أو قرى متاخمة، لمهمات جنسية خاصة، وقد نشطت خلال السنوات الصعبة والبئيسة حركة النساء السائحات الهاربات من البيوت والقرى ومن نير الاضطهاد والظلم في كنف الرجال، فامتهنت بعضهن الدعارة، وما سلمت من الفاحشة غير فئة منهن تنعت «**بالمجذوبات**» اللواتي يرافقن «**المجاذيب**» نحو القبب والأضرحة، حيث يَلقَيْنَ الوقار والتقدير والأمان لتقديس الناس للمجاذيب والمجذوبات، وقد يَلزَمْنَ قبةً وضريحًا ويعشن على صدقات الزوار والأعيان وعطايا الجوار.

٤

تشكلت وتزاحمت سحب ثقيلة دكناء، فغطت ذروتي **الجبل الأخضر وجبل الغور**، ثم دوى على حين غرة قصيف الرعد ملعلعًا مدمدمًا، فاهتزت له القلوب هلعًا وصرخت له النساء فزعًا، وارتمى الصغار في أحضان الآباء والأمهات فَرَقًا، ولاذت المومسات في الطرقات بصدور المرافقين من الجنود السكارى هلعًا، وانشق السحاب بالوابل الباعق، ففَرَّ هَرَبًا بعض أهل البلدة ممن ظلوا خارج مهاجعهم لحاجة ملحة أو تجارة جارية أو أهواء غالبة إلى البيوت والدور مهرولين، يركضون باضطراب، ولاذ بخمارة «**زخارى**» بعجلة وصخب من كان يتسكع على طريق «العالية».

خمارة «**زخارى بنخانان**» أو كما يسميها الأهالي «**كانتينة اليهودي زكريا**» لا تغلق بوابتها إلا عند بزوغ الفجر، ويظل جرسها النحاسي يتأرجح ويهتز، بأيدي الوافدين عليها أو مِن عصف ريح عابرة، فيجلجل بقوة تزيد من وحشة الأرجاء، ويتراقص ضوء سراجها الزيتي الكبير المتدلي بسلسلة من سقيفة ردهة العتبة، مهتزًّا لكل هبوب ولو كان نسمة، ناشرًا ظلالًا موحِشة ورهبة موغلة، وهي معزولة عن الدور والأحياء بمئات الأمتار، منتصبة عند مدخل البلدة من جهة الشرق على عتبة منحَدَر، تؤدي إلى بوابتها الخشبية الكبيرة التليدة

من خشب الصنوبر، تسع عتبات مستطيلة الشكل تبدو بلورية، وقد شُيِّدت من خليط حصى دقيق ذي ألوان جميلة، وشظايا قنانِيَّ ملونة وإسمنت أحمر الصبغة، كانت في الأصل مركز حراسة عسكريًّا، بحاجز حديدي، وهي عبارة عن بناية صلبة من حجارة ولَبِن من طين وآجر من إسمنت، ورصت حواشيها بقرميد أخضر غامق اللون، لها نافذتان شرقيتان تطلان على الطريق بشبابيك حديدية من قضبان متراكبة، وبها قبو تخزين لبراميل الخمور وأكياس التين المجفف، يُستغل للتقطير والتخمير، لهذا كانت رائحته عفنة نتنة تعم المكان، وكانت مهجورة مهملة قلَّ أن يَتَطَوَّل بها العقيد جورج على «**زخارى**» فيمنحه إياها في شراكة خفية من الباطن، وقد اتخذ «**زخارى**» وأسرته المكونة من زوجته «**شاميرا**» وابنته «**فاريديا**» من طابقها العلوي سكنًا ومقامًا.

«**زخارى بنخانان**» أو كما يناديه بعض أهل البلدة «**زكريا**» وهو لا يجد حرجًا في ذلك، لا يتذمَّر من أحد أكثر من تذمُّره من جلافة وفظاظة بعض الجنود الفرنسيين، ورغم ذلك استقبل هذه الليلة البرداء مَن التجأ إليه من وابل المطر، ولاذ بالخمارة ببشاشةٍ ووجهٍ طلقٍ، مرحِّبًا بلا تملُّق ظاهر، وبإشارة منه، طفقت زوجته شاميرا التي يناديها أهل البلدة بـ «**سميرة**» توزع بنشاط وحيوية وعطف الأغطية والمناشف والمناديل، وتُقرِّب طاولات من المدفأة التي تُنعش لهبَها بمزيد من الحطب والحشائش اليابسة، تضع أقداح النبيذ والشاي المعبَّق بالنعناع حسب الطلب، لتدفأ القلوب وتنشف الأجساد من البلل البارد.

انشغل «**زخارى**» لحظة بإشعال فتائل القناديل الزيتية المتدلية بسلاسل من سقف الخمارة الخشبي بمشقة وزحير، مد يده بعيدًا حتى اعتصر وجهه دمًا، فاتخذ كرسيًّا ليصل إليها دون أن يمنعه ذلك من تعقب زوجته **شاميرا** بنظرات زائغة، وقد كانت بضَّة زهراء البشرة، ممتلئة الجسم قصيرة القامة، رَدَاحًا عظيمة العجيزة ترتج من سمنتها، فأسرعَتْ إليه ابنته «**فاريديا**» وكما يناديها أحيانًا أهل البلدة بفريدة ولا تتبرم من ذلك، لتثبت الكرسي بيدها حذر سقوط الأب المترنح، وإن لم يكن ثقيل البنية، ولا ضخم الجثة، بل كان ضئيلًا ضامر الوجه، ضيق المنكبين، خفيف الحركة.

وحده «**إدريس السوسي**» كانت له مكانة خاصة في عالم «**زخارى**»، كان يتخذ طاولة ذات ثلاث قوائم في ركن قليل الإضاءة في عمق الخمارة، فلا تدل على حضوره وحركاته غير ظلال باهتة وسحب سجائره المتصاعدة غير المنقطعة؛ إذ كان يدخن بشراهة، وكان سريع الغضب قليل الصبر، لكن نفسه تأبى الجور، وتكره الظلم والظالمين، يُسقى خمرًا حتى يرتوي، وهو الصديق الحميم **لزخارى** ونديمه المفضل، وبينهما علاقة متينة وعميقة لا أسرار فيها ولا تحفظ.

ينتهي «**زخارى**» من إشعال القناديل المتدلية بمشقة وتعب عكستهما عيناه اللتان جحظتا واحمرتا والغائرتان أصلًا في وجهه الضامر الناتئ عظمتي الوجنتين، فيعمد إلى الترجُّل بصعوبة وبعناء عن الكرسي الذي مالت إحدى قوائمه المهترئة، فتأرجح يمينًا ويسارًا

فاقدًا توازنه حتى أوشك أن يسقط، لولا ابنته التي أسندته، فاتكأ على كتفها وهو يلهث مرددًا:

- يا رب الأكوان! احمنا من عيون الأشرار!

تنظر إليه ابنته «**فاريديا**» باستغراب واستياء، ثم ترمقه بنظرة عتاب وعدم رضا وهي تزمجر في وجهه:

- رب الأكوان...؟! هه...! ليس الرب مسؤولًا عن الكراسي التي لم تعد تصلح لشيء!

يلوح إليها بيده بضجر وتبرُّم انكمشت لهما أسارير وجهه، وقطب جبينه، وصدرت عنه حركة طائشة بيده كمن ينشُّ الذباب عن وجهه وهو يقول متأففًا، بعد ما عاد ليسند حوض ظهره بيديه:

- آه...! يا بنيتي...! يا «**فاريديا**»...! حتى أنتِ! ظننتكِ مختلفةً عن أمك «شاميرا» «الهبيلة» الحمقاء، السليطة اللسان التي لا تكفُّ عن التذمُّر، لا...! لا... تخيبي ظني فيكِ ورجائي منكِ...! أسمعتِ...؟! لا تكوني حمقاء مثلها...! لا... لا تكوني أنت وأمك والزمان عليَّ...!

تبتسم الفتاة في وجهه مشفقة عليه، فترسم قبلةَ حنان على جبينه، تنشرح لها أسارير وجهه، ويهدأ إيقاع تنفسه وقد تهلَّل المحيا، بينما تغيَّرت ملامح وجه زوجته شاميرا بعد ما جزعت جزعًا بيِّنًا في البداية وهي تتابع تأرجحه على الكرسي خوفًا عليه من السقوط، فعبست

غضبًا حتى قَبُح وجهها، ولوت شفتيها وهي تلوح إليه بمكنستها بانفعال واضطراب صارخةً بصوت حاد تكاد تختنق من اضطراب الكلمات في حنجرتها: «ما لك ولأمها يا أحمق...؟! صدَقَت... صدقت ابنتي... ورب الأكوان...! ما كذبت، جدد هذا الأثاث بدل تبذير المال هنا وهناك...! ورب السماء...! ستقتلني كمدًا وغمًّا يومًا ما بأفعالك هذه وطيشك واستهتارك، فأنت الذي عليَّ والزمان، يا أسفي على قدري...! لن أسامح أهلي على هذا الزواج المشؤوم ما حييت... يا رب...! خذني من هذه الدنيا لأرتاح من وجهه...!».

يرمقها بنظرة قاسية ثاقبة لا تخلو من تهكُّم وسخرية، ويردُّ بغضب بلسان عبري وهو ينتفض ويهتزُّ اهتزاز الحانق الذي غلبه التوتر، وقد اعتاد دومًا ألا يخاطبها بالعبرية إلا في البيت، إلا أن الغضب عصف به عصفًا حتى عطل الحذر لديه وعطل القواعد، فتصمت المرأة لحظةً تحت جموح عاصفة غضبه، ثم تعود لترد عليه بكلمات بلسان عرقها وبنبرة حادة تعكس مدى انفعالها، أما هو فلإغاظتها ونكايةً بها يتعمَّد تجاهلها هذه المرة موزعًا النظرات بعيدًا عنها، ثم يخطو متثاقلًا نحو «**إدريس السوسي**» وهو يشمر تلابيبه ولم يتخلص وجهه بعدُ من التبرُّم، يجلس على طاولته دون استئذان متأففًا يزحر زحيرًا شديدًا، ثم يعمد مرة أخرى إلى ترتيب تلابيب جلبابه الثقيل، ويسوي طاقيته الصوفية بحركة سريعة، يمشط شعر لحيته الخفيفة المبعثر بأصابع رقيقة قصيرة، ويرفع قدحًا نحو فمه، يصبه في جوفه بجرعة واحدة وسريعة،

يمص شفتيه، ويمرر لسانه على شفته العليا ويزفر زفيرًا طويلًا بقوة، كمن يريد تبديد مذاق حاد وحارق وهو يردد متحسسًا جسده تحسُّسَ الجريح: «يا رب الأكوان! احمنا... من تقلُّب الأزمان وتنكُّر الأوطان وضعف الأبدان ولسان النسوان!» ثم ينظر جهة زوجته ويخاطبها بعباراتٍ سريعةٍ عبرية على ما يبدو أنها شتيمة من حدَّة النبر وتقلُّص عضلات وجهه، وترد عليه أيضًا بلسان قومها، ولا يفهم أحد ما يقع وما يشجر بينهما من خلاف وإن كان الكل يلتقط إشارات وعلامات تنم عن جدال حاد وخصام جاد، وعلى أن الأمر متعلق بأزمة لا شك، قد تتطور وتستفحل.

تحدج **شاميرا** زوجها بمرارةٍ بنظرات قلقة، وهي تمسح الكؤوس بمنديل بانفعال شديد، كأنها تفرغ بالدعك المرير الغضبَ العنيد المتلاطم مَوجُه في لُجَّة النفس، ينفلت الكأس فجأة من بين يديها، ويتطاير متشظِّيًا بعيدًا، وحده أحد الجنود الفرنسيين كان يتابع ما يحدث بينهما ويضحك حتى أثار انتباه الكل، كأنه يفهم اللسان العبري، وقد جرت العادة عند المغاربة اليهود أن يتحدثوا بألسن قراهم وحواضرهم وجذورهم من أمازيغية وعربية حسب تشكلاتها المحلية وحسب بلدة النشأة والأصل، وظلت قلة منهم على عبرية لسانها في البيوت والتجمعات الخاصة، وإن كانت صلواتهم وشعائرهم لا تتم إلا بالعبرية.

يدنو «**زخارى** «بوجهه من أذن «**إدريس السوسي**» ملتفتًا يمنةً

ويسرةً كأنه متوجِّس من شيءٍ ما، يقول بصوت خافت قلق:

- سمعت ما تردد في البلدة وما وقع لك مع «**الذئب**» خلال موكب «العالية»، أجننتَ يا رجل... ما لك وهذه المرأة ورجالها...؟!

- ماذا يقول الناس؟

- يقولون إنك تجاوزتَ حدَّك، ولم تعرف قدركَ وأنت في مقام بين يدي سيدتك... لا أعرف لحد الآن مصدر كل هذا الغلِّ في صدرك لها؟!

- تقول... سيدة... واه...! سيدة مَن يا «خويا»؟!

- **سيدة** البلدة... وبهذا اللقب تُعرف...!

- قلْ غيرَها يا **زخارى**...! فهذا الكلام ينطلي فقط على الأغبياء.

- بعض الناس وإن كانوا قلة تعدُّ على أصابع اليد الواحدة، وجدوا في فعلك شجاعةً ورجولةً، وشمتوا بـ «**الذئب**» أيما شماتة ومن رجاله ضحكوا وتهكموا وتندروا، بل استصغروا الرجل، وروَّجوا أنه ليس كما يبدو، وأنه جبان يختبئ في تلابيب سيدته «**العالية**»، فقد كان عندهم لا يُقهَر ولا يُهزَم، وأعلوا من شأن **قاسم** ولد **الراضي غربان**...!

- بالمناسبة من هو **الراضي غربان**...؟!

- إيه...! إنه ثري وافر الحظ وله حظوة عند **السيدة**، وهو المعروف

بكنية «**ماروكان**».

– غريب... ابنه **قاسم** مختلف...!

– طبعًا... **قاسم**... ليس من شيعة **السيدة** ولا من أذنابها خلافًا لأبيه... لكن قل لي... أفعلًا ساندكَ ولولاه لَسَحَلُوكَ وقطَّعتكَ العامة...؟!

– لم أكن أعرف نيتهم، لكن هذا الشاب فيه من الشجاعة ما يبهر وما يخيف أيضًا في الوقت عينه، وإن أنجاني من قبضتهم، فقد بدا لي نَزِقًا متهورًا، وقد أوشك فعلًا أن يطلق النار...!!

– هه...! وما الذي يمنعه، و**صوفيا** عشيقته؟!

– **صوفيا**...! من هي؟!

– ألا تعرف...؟! إنها الابنة الصغرى المدلَّلة للعقيد **جورج**، وهي التي أدخلت **قاسمًا** إلى عالم الفرنسيين من أبهة وصخب وحفلات، ألا ترى أنه يلبس على شاكلتهم ومنوالهم، ويتكلم لغتهم بطلاقة كأنه وُلِد في **باريس**؟! والحقيقة أنه لا غرابة في ذلك؛ فقد تعلم في مدارسهم، وتعلم على يد الأخوات الراهبات، وشرب منهم قِيَمهم، ودرج لسانه على ما تدرجت عليه شفاههم، حتى خِيفَ عليه من التنصير.

– وهل غيَّر ملته؟

يتوقف **زخارى** مليًّا عن الكلام، يشرد بفكره كأنه يقلب السؤال

ليرى كل جوانبه، ويبدو أنه بُغت بذلك، ولم يخطر على باله، يدلك بإبهامي وسبابتي يديه حلمتي أذنيه ويلوي شفتيه، ثم يمرر يده على لحيته ويقول مترددًا بلا حسم:

- لا...! على ما يبدو لا...! فهو لا يدخل كنيسة، وأيضًا لا يدخل مسجدًا، لكن مَن يعلم ما في القلوب والصدور؟!

- يا **زخارى**...! ليس من السهل تغيير عقيدة نشأ عليها المرء منذ فتح عينيه على الدنيا، من الصعب لأي أحد أن يفتح بوابةً ولو صغيرة لعقله وقلبه ليطلَّ بفكره على معتقدات الغير ليس معرفةً بل تساؤلًا عن الحقيقة. الرغبة في الاختلاف تمردًا على القيود أو شكًّا في الأصول غالبًا ما تطبع سلوكَ وفكرَ مَن هم في سن **قاسم**، الإلحاد في كثير من الأحيان يكون رومانسية مرتبطة بالعنفوان لا بالإيمان، مع الزمن يعود المرء إلى أصله ونبعه كسَمَك السلمون.

- عدنا للكلام الذي يرهق العقول...

- والله...! ما أرهقنا غير خنوع العقول والاكتفاء مما جاءنا من ماضٍ غابرٍ ما زال يحكمنا، ومن أمواتٍ ما زالوا يدبرون شؤون حاضرنا...!

- وما العيب إن كان في الماضي ما ينير عتمات الحاضر؟!

- يا **زخارى**...! لا عيب في ذلك، سوى أن يصير الماضي المرجعَ الوحيدَ في عالم متغير متجدِّد كل يوم، لا عيب سوى أن الماضي

احتكره رجال وحجروا عليه، وأصبحوا هم الأوصياء عليه دون غيرهم، فحنطوه بدل أن يستخرجوا منه علل الأشياء وقوانين الأحوال والدرر والجواهر.

- لكل ملة رجال وعلماء دين، يفسرون ما غلق على الناس، ويدبرون شؤون المؤمنين، فالشرائع ليست واضحة لكل الناس.

- ليس المشكل في التفسير ولا في تدبير شؤون المؤمنين، المشكل في الاجترار وعدم الاجتهاد واحتكار المعنى.

- لم أفهمك... أي معنى؟!

- دعنا من هذا... في الحقيقة أثار **قاسم** إعجابي... يبدو لي أنه شاب يُعوَّل عليه في الظروف الصعبة، فقط يحتاج إلى مرافق أو مصاحب يُقوِّم منهجه، ويضبط إيقاع تمرُّدِه، فهو صِدامي.

- يا رجل... حق له ذلك... كأنك لا تشبهه...!!

- أعرف أنني سريع الغضب، لكنني لست طائشًا...

- كيف **لقاسم** ألا يكون طائشًا والفتاة الشقراء تهيم به هيامًا شديدًا، وتتعلق به ولو بفداء نفسها موتًا، حتى أعجزت والدها عن منع اللقاءات والمواعيد؛ فاستسلم للأمر الواقع أخيرًا، بعد عدة محاولات فاشلة تهديدًا وترهيبًا وترغيبًا، بل عنفًا وزجرًا شديدَيْن أحيانًا كثيرة، فإن حبسها ومنع عنها مباهج الخارج، لم ينتظر **قاسم** مستسلمًا أن تُحرَّر من رقابة العسكر، بل يقفز على

الجدران كالمجنون لا يحسب للعواقب أدنى حساب، ويتجاوز العيون المبثوثة بخفة وحذاقة في الظلمة، ويصبح في عقر دار العقيد **جورج**، ويغدو في غرفتها كعفريت خرج من قنديل سحري وسط الدخان وهم لا يعلمون ولا يشعرون، وقد ضبطوه مرة وسجنوه، وهدَّدوا أباه «**الراضي غربان**» الذي لم يقدر على منعه ترهيبًا ولا ترغيبًا، وحين يطول حبس الشاب في ثكنة الفيلق ٧٧٧ بجبل الغور، تُهدِّد الفتاة الـمُغرَمة بالانتحار سُمًّا، أو برمي نفسها من أعلى السطوح... فاستسلموا لها وتركوهما وشأنهما مُعوِّلين على الزمن... الحب أعمى يا أخي...!

- صدقتَ... الحب يهدُّ كل الأصنام...!

- لكن أنت... احذر من «**الذئب**»...! فهو حقود ولن ينسى لك ما فعلتَه به، وتوخَّ كل الحذر من **السيدة**، فلن تنسَى صنيعك هذا وإن أبدت غير ذلك، ستتحيَّن الفرصةَ حتى تظن أنت نفسك أنها نسيَتْ وانشغلَتْ عن أمرك، وما ينسى مثلها تأثُّره، تُرخِي الحبلَ الطويل للعدو حتى يأمن جانبَها، فتنقض عليه في غفلةٍ منه. قد يفكرون في الانتقام منك بأية طريقة، ورب الأكوان...! فالقتل غدرًا وغِيلةً هو أسلوبهم ومنهجهم في التخلص من الخصوم، فكل مَن يُهدِّد مكانتها، قد يموت في حادثة غريبة مأسوية، لا يفهم سرها، ولا يحقق في ظروفها... وأحيانًا يموت الإنسان ويلصقون الوفاة بالذئاب.

يرفع «**إدريس السوسي**» صوته مقهقهًا وهو يضرب كفًّا بكفٍّ من الدهشة لا الحيرة، ويقول ساخرًا مستنكرًا:

- يا هذا...! قل غير هذا الكلام...! أما زالت الذئاب تهاجم البشر وتلتهم الأجساد وقد أحاط بنا العمران من كل جانب، وأبادها الرعاة والصيادون؟!

- نعم... حين يريدون نسج القصة، يُكثرون من حكايات الشهود الذين يُقسِمون بأغلظ الأيمان وبحياة أولادهم أنهم شهدوا عيانًا أكثر من مرة قطعان الذئاب تعبر الطريق نحو **غابة الحسك**.

- وهل عليَّ أن أحتاط من هؤلاء الجبناء؟!

- أي... ورب الأكوان! فما فعلتَه بهم جديد... غريب... شاذ وقاس، وفتنة للناس، ولن يتركوه يمرُّ مرَّ الكرام، حتى يجعلوك عبرةً لمن انبهر بجرأتك، وقمعًا لكل فكرة تُدبَّر ولو بسرية في طريقة تمرُّدك على عرفها وطقسها.

- لا أخاف الموت...! وأنا حذِر بما فيه الكفاية، منذ الأمس غدت بندقيتي لا تفارقني...

- اصمُت...! فحمل السلاح ممنوع هنا... ماذا تقول؟! اصمت... لا تكررها...! الحصول على بندقية جريمة...!

- لا تخف يا رجل...! ما هي إلا سلاح صيد مرخص.

يثير انتباه زخارى أمر ما شتت تركيزه، متابعًا جنديين يصفعان

بعضهما بعضًا بعصبية ونرفزة وحِدَّة، كأنهما طفلان في لعبة ما تلبث أن تصير أزمة وشجارًا، تتواصل الصفعات المتبادَلة، وتشتدُّ وتقسو، يتوتران فينتفضان واقفَيْن وقد عصفت بهما عاصفة غضب جامحة، فانتفخت الأوداج، وبرزت عروق الجبهة، وقَبُحت الملامح، وهَمَّ كلاهما برفيقه وهما يتحسَّسان حُرقة على الخدود لم تبرد بعدُ، بزفير وشهيق عاليَيْن سريعَيِ الإيقاع، وبضربة قوية على الطاولة ارتفع صداها في الصالة حتى التفت الجميع صوب الصوت، تضاءل حجم الجنديين وهما يتربصان بعضهما ببعض، فإذا بضابط يضرب بقبضة يده على الطاولة ضربةً أخرى أشد قوة ووقْعًا، وينهرهما مزمجرًا: «انتهى الأمر... اجلسا...! أسمعتما...؟!... أوغاد...»! فيهدآن كطفلين صغيرين توًّا، ويعودان إلى ما كانا فيه من مرح وتهتك، ويصافحان بعضهما بعضًا وهم يقهقهان كأن شيئًا لم يقع، وقد لعبت بهما الكؤوس حتى زاغت نظراتهما وترنحت أجسادهما.

يعود **زخاري** إلى صاحبه ويسند مقدمة رأسه بفرجة إبهامه وبقية أصابع يده، مقطبًا ويقول بقلق:

- أطلب من رب الأكوان ألا يجرنا الأنذال العُنُف من بين هؤلاء من المعربدين إلى ما لا تُحمد عقباه...! فبعضهم أوغاد... أنذال لا ثقة فيهم، ولا يستقر لهم مزاج ولا حال... أترى...؟! انظر إلى تعابير وجوههم العابسة بدون سبب، والحال حال انشراح وإمتاع...! انظر إلى نظراتهم الزائغة القاسية...! انظر إلى ملامح

وجوههم وهم يتفرَّسون في الوجوه كالوحوش الجائعة...! كأن شرًّا مستطيرًا ما ينضج على نار هادئة في صدروهم، أو شرًّا ما يضطرم في دواخلهم، يتصيَّدون بمكر وخبث هفوات وزلات الآخرين من غير بني جلدتهم، أنا أعرفهم جيدًا... فعربدتهم لا يمكن السيطرة عليها متى شطَّتْ وجمحَتْ، كأن سُكْرهم الطافح لا تكتمل نشوته إلا بافتعال الشجارات الدامية.

- دعك منهم...! ففيهم من الجبناء أيضًا من يهرب بنظرة من نظرات الرجال، وفيهم من البسطاء المسالمين الذين هم هنا والآن فقط ليفرغوا أحزانهم ويعطلوا حنينهم وأشواقهم لذويهم فحسب بكؤوس تُعطِّل الألم، وقد تغدر بهم فتعمق الحزن والحنين، فلا ثقة في الكأس... وفيهم من يجد في الكأس الحالمة ما يُبدد ألمه، وقد يفضح لهيبها المعري ما يكبحه عقله، فيحرر ذاته من عقال تردد أو خوف ملتبس أو خجل معجز... لا تنسَ...! لكلٍّ ألَـمُه مهما بدا أو ادعى، لكلٍّ ضعْفُه مهما تجبَّر وطغى، لكلٍّ رغبةٌ دفينة ولو حبيسة... رغبة في البوح قد تقمعها العادات والقوانين، الكأس وحدها قد تقفز بنا على جدار الممنوع لنخبر عن المستور أو المحظور، وتحرر المزيف من رقابة الذات المتعالية... ذاك هو الإنسان، لا تنخدع بالثابت فيهم، وفي مظاهرهم وأسلوب حياتهم فلا أحد منا لم تُعجَن كينونتُه بالخوف والألم والضعف.

- صرتَ حكيمًا... هذا كلام «كبير» لكن...! يا أخي...! انتظر...! سترى ما سيفعلون!

- قَوْلِي عصارة تجربتي لا غير، أعرف آلام الناس لأني عرفتُ ألمي. أعرف ضعف الآخر لأني عرفتُ ضعفي... أعرف حدود هذا العقل بمعرفة هذا التعدد والتنوع المدهش في الكون والطبيعة... وهذا التناسق الباهر في الوجود... لسنا... لسنا... سوى فوضَى مستترة، لسنا... لسنا... غير نشاز وجوديٍّ أمام هذا الوجود الدقيق المتناغم... والكم الهائل من العلاقات الفيزيائية المضبوطة بدقة باهرة والتي تُعجِز كل عقل وفكر مهما ادعيا الإحاطة بالكمال... يا **زخارى**...!

- زدنا حكمةً يا مهندسُ...! ما ظننتكَ فيلسوفًا...!!

- الفلسفة...؟! هيهات! «...! للأسف قد يلجم العقلَ عن التفكير في الوجود والقضايا الكبرى تحميلُ المعاني السلبية للأفكار الجريئة، وكلما فكر الإنسان خارج المنهج السائد أُلصِقت به تهمة «التفلسف» تسفيهًا لا تقديرًا، ووقع كثير من هذا في الأزمنة السابقة، حيث قُمع الفكر الحر تحت مظلات متعددة، كالزندقة والهرطقة وإفساد أخلاق الشباب وزعزعة عقيدة مؤمن وازدراء الأديان، وهذا لا تخلو منه مِلة لا نحلة، الفلسفة في زمننا هذا صارت شُبهة أو سُبَّة بل تُهمة، وهي نعمة

وحكمة، طبعًا كل سلطة مهما كانت مُمنَّعةً بالقوة و«**البروبغاندا**» تخاف من الفلسفة...

- «البروبغاندا»؟! لم أفهم!
- ترجمها للفرنسية وستفهم!
- البروبغاندا «propagande»...آه...! فهمت الآن... تقصد الدعاية...؟!
- أرأيت...؟! فالكلمة تعريب عن الفرنسية.
- إذا ظهر المعنى بطل العجب.
- لست أدعي الفلسفة، فهذا شرف لم يَتَأَتَّ لي، ولم أحْظَ به، إلا أن الدرس الفلسفي من تاريخ وقضايا ومقولات العقل كان جزءًا من المنهاج الدراسي، وأنا أدرس في **لندن** علوم المهندس، وهذه ميزة خاصة لمناهجهم في ربط العلوم، وتحفيز العقول، وحلحلة الموروث. أنا فقط أنقل إليك ما أرى بعيدًا بلا تحفظ ولا حيطة من الأحكام المسبقة الجاهزة، أنا أتفهم... أؤخر الأحكام إلى ما بعد اليقين، وحتى اليقين في أكثر القضايا ظنين وغير قطعي.

شيء ما مباغت جديد يجعل «**زخارى**» يغير وضعية جلوسه ويدير ظهره على حين غِرَّة، ملتفتًا وراءه، فينشغل عن نديمه متعقبًا بحذرٍ وتوجُّسٍ بنظراته خطوات أحد الجنود وهو يجر قدميه متثاقلًا مترنحًا نحو دورة المياه، مغمغمًا بعبارات غير مفهومة، ثم يعود إلى صاحبه،

فينظر إليه نظرات حائرة متقطعة، كأنه متردد في البوح بشيء ما، وما انفكَّ يمشط لحيته الخفيفة التي انحصرت في مقدمة ذقنه ويقول:

- ليست الليلة ليلة الفلسفة... الليلة للكأس فقط... لا غير!

يهز **إدريس السوسي** كَتِفَيه وهو يبتسم قائلًا:

- ألم تخرج الفلسفة من عقول الحكماء ومن الحانات والخمارات ومن شطحات وهلوسات سكارى من نوع آخر؟! يا صديقي...!

يقهقه عاليًا ويرفع كأسه ويردف:

- صدقني... يا أخي...! الفلسفة أصلها كرمة عنب.

يرسل **زخارى** إلى جوفه بجرعة واحدة ما في الكأس مما يشعل صدره من دفء نبيذ متخثِّر، قد وضعت «شاميرا» قنينة منه توًّا على الطاولة، يحملق في وجه صاحبه لحظةً، ويقول وهو يمجُّ ما شرب:

- أتظنني أبله؟! ما علاقة الفلسفة بكرمة عنب؟! ربما سكرت يا صديقي...! المهم... المهم... دعنا من هذا...! الليلة عليك أن تبيت هنا، فالطريق إلى بيتك عبارة عن ممر ضيق إلى «تل الريح» ولا تعبرها غير البغال وبمشقة، وهي موحشة ومظلمة، تغطي الثلوج جنباتها، والمطر يباغتنا كل لحظة... وقد صار لك أعداء يتحينون الفرصة لردعك... هل تسمعني؟!

لا يلتفت **إدريس السوسي** إليه هذه المرة، كأنه غير مهتم ولا يحفِلُ بما يقول، لا يردُّ عليه ولو بإيماءة أو إشارة معبرتين، وقد شغله أمرٌ ما

سيطر على تفكيره وإحساسه، حتى بدا شاردًا تائهًا، متحيرًا متوترًا، ينقر على الطاولة بسبابته نقرًا رتيبًا، يُترجم ما يخالج نفسه من قلق واضطراب مشاعر، يدخن بشراهة، فينفث سحابات متصاعدةً متتابعةً من دخان سيجارته التي تكاد لا تنقطع، يربت على كتفه **زخارى** ويقول باستغراب:

- هيه...! يا رجل...! أين غبت...؟ أين رحلتَ مرة أخرى بتفكيرك؟!

يكتفي **إدريس السوسي** بغمغمة دون أن يلتفت إليه:

- نعم...! أنا معك...

- معي...! لا يبدو ذلك يا أخي...! هيه...! أين سرح بك عقلك مرة أخرى؟!

تظل عينا **إدريس السوسي** متسمِّرتين وهو يتفرس في وجوه الجنود، يرمي بعقب سيجارته ويدعسه دعسًا شديدًا بقدمه بنرفزة، فصلت العقب عَمَّا تبقى من جثمان اللفافة التي تبددت شعيرات تبغها، ويهمهم قائلًا كأنه على صهوة سحابة حالمة:

- قلت أسمعك... أسمعك... نعم...!

ينحني **زخارى** وهو يزحر ويشد حوض ظهره، متأففًا ثم متأوِّها، ليجمع أشلاء عقب السيجارة المدعوسة وهو يردد محتجًّا ولو بلطف ولين:

- يا أخي...! المرمدة على الطاولة.

- عذرًا...! شرد ذهني... ماذا قلت؟!

- قلت إن انتقام «**الذئب**» وارد، وما فعلته في موكب **السيدة** لن يمرَّ مرَّ الكرام، الظلام... المطر... الثلوج... السيول... والرؤية صعبة... أرى أن تبيت الليلة عندي... فقط هذه الليلة... إيه! نعم...! فالأمر لا يحتاج إلى طول تفكير أو تردد، ماذا تقول...؟ إيه...! إيه...! يا رجل...! نحن هنا، ألا ترى أنني على حق؟!

- نعم... أفهم...

- تفهم...؟! تفهم ماذا يا رجل؟! لا أريد فهمك... أريد فعلك... لا أظنك تنصت إليَّ جيدًا، فأنت عنيد ولا تفعل إلا ما تريد كعادتك.

يمدد **زخاري** رجليه على كرسي باسترخاء، وهو يتأفَّف متبرمًا من تجاهل **إدريس السوسي** لحديثه، تسقط فردة من نعليه، ينحني لينتعلها، فينشغل بفرك فرج أصابع قدمه اليمنى، من حين لآخر يسوي طاقيته ويضبط طوقها حول رأسه بحركة آلية، ينحسر الجلباب عن ساقيه الضامرتين، كأن لا لحم عليهما ويغمغم مستاءً:

- لا ندري في هذه الأيام مَن الصديق ومَن العدو... اسمع...! الحذر واجب، أنا لا أريد أن أفزعك، تعرفني جيدًا... لكن الحذر واجب، نعم ورب الأكوان...! إيه...! أتسمعني؟!...

أقول لك لا داعيَ للعودة إلى بيتك هذه الليلة، هناك مكان دافئ لك في القبو.

يتمطَّى بكسل وخمول سريَا في جسده من أثر الأقداح وطبعه السهر المتعاقب، ويتثاءب محكِمًا إطباق فمه بيده، ثم يضم بقوة إدريس السوسي إلى صدره وهو يرجُّه رجًّا قائلًا بتهكُّم وقد اختلطت الكلمات بقهقهته العالية:

- وقد أقاسمك سريري، سريري فقط، لا «شاميرا»، «رد بالك»...

يتوقف قليلًا كأنه يفكر، يتجرَّع من كأسه جرعتين متتابعتين بعجلة ثم يردف هازئًا:

- وإن أردتها فخذها كلها وأرحني منها ومن صداعها الشديد ولغطها اللذَيْن لا ينتهيان... لسانها السليط لا يطاق... لا مانع لدي... أنقذني منها وارحمني...! فمثلها «يُقصِّر» العمر.

ينظر بذعر وقلق جهة «شاميرا» على المقصف، ينتفض كطائر مبلَّل الريش فزعًا وقد استوعب خطورةَ ما قال، آملًا ألا تكون زوجته سمعت هزأه، يستعيد الهدوء وهو يرمقها تصعد من القبو متثاقلةً متعبةً من السمنة، منشغلةً عنه بما بين يديها، فيتنفس الصعداء، يستوي مرة أخرى على كرسيه بعد ما استرجع أنفاسه وقد أرهقته عملية ضم صاحبه إلى صدره ضمًّا قويًّا ورجِّه تلك الرجَّةَ التي تطلَّبت منه بذل جهد كبير، فيدنو من جديد بوجهه منه هامسًا بسخرية:

- لا تخف...! لا بق ولا برغوث في أسِرَّتي وأثاثي.

يهز «**إدريس السوسي**» كتفيه ويقول متهكمًا:

- وهل يخلو بيتٌ هذه الأيام من البق والبرغوث والقمل؟!

تستفز كلماته **زخارى**، فيواجه الموقف بقهقهة عالية ضجَّ بها المكان، وصوبت الأنظار نحوه، وينتابه السعال كمن شَرِق ببللًا، فتدمع عيناه من أثر الكَحِّ الجافِّ، يرمي بجرعة من خمر في جوفه، تعقبها زفرة عميقة كأنها تلطف لهبًا مستعِرًا في حنجرته، مرددًا بصعوبة:

- واه...! واه...! لا عليك، أنا أمزح لا غير، ستنام قرير العين كرضيع صغير إن استطعتُ ثَنيكَ عن الذهاب إلى بيتك.

لا ردة فعل من **إدريس السوسي** مرة أخرى، يبدو أن الأمر المحيِّر ما زال يشغله ويملأ عقله ويستحوذ على كل منافذ تفكيره، يبدو منشغلًا بالنظر إلى طاولات الجنود وحدجهم، وقد اختلطوا وبائعات الهوى في مشاهد مخِلَّة بما يعهده من حياء وحشمة، وإن كان اعتاد على ذلك في **لندن** بلد دراسته العليا، بصره الحادُّ يرصدهم ويتتبع حركاتهم وسكناتهم بالرمقة القاسية، والرشفة الملتهبة، والنظرة الساخرة، وكان يطيل في أحيان كثيرة النظرات في وجوه الجنود دون أن يحوِّل بصره عنهم، أو يُعرِض عنهم، حتى إذا ما تقاطعت النظرات، أرغمهم على غضِّ البصر بتحدٍّ غريب مستفزًّا إياهم، متعمِّدًا إحراجهم وإرباكهم، كان كمن يطلب عراكًا أو شجارًا، أو يفتعل أزمة وصراعًا.

انتفض أحد الجنود وقد أغاظه هذا الترصُّد المستفز، وهذا التحدي بالنظرات الثاقبة، فوقف منتصبًا وهو يطقطق أصابع يديه على خلاف، ثم يوجه كلامه إليه بفرنسية ذات لكنة «**مارسيلية**» بزمجرة واضحة:

- ماذا تريد يا هذا...؟! أتريد صورتي؟!

يرد عليه أيضًا **إدريس السوسي** منتصبًا متأهبًا بنرفزة وتوتر:

- لا أجمع صور البنات...

لم يُطِق الجندي هذا الرد الهازئ مستشعرًا الإهانة، يتقدَّم مضطربًا من الغضب الجارف خطوات نحوه غير مستعجل، وقد انتفخت أوداجه، واحمرَّت عيناه حنقًا، وارتفع إيقاع أنفاسه زفيرًا وشهيقًا، متأهبًا يقفز نحوه **إدريس السوسي** أيضًا بجسارة واضحة، يغدو الرجلان وجهًا لوجه، تتلامس أرنبتا أنفيهما، فتتقاطع أنفاسهما، وكلاهما يُمعِن النظر في عيني الآخر، حتى أوشك صدراهما المنتفخان أن يلتصقا، كلٌّ ينظر إلى صاحبه متأهبًا متربصًا، فيهب **زخارى** مذعورًا إلى فض النزاع، حتى أسقط كرسيه، يُجلِس صاحبَه بجَرِّه بقوة من تلابيبه، ويفعل زملاءُ الجندي الشيءَ نفسه، ويهدئون صاحبهم، تحت نظرات الضابط الذي لم يتدخل وتغافل عن الأمر، وتلهَّى بالحديث مع فتاة في حضنه، يعود الجنود إلى أجوائهم، وإلى ما كانوا فيه من مرح وصخب.

يعمد الجندي إلى تقبيل مرافقته ومص شفتيها نكايةً وتشفِّيًا، وهو ينظر بزاوية عينه اليمنى إلى **إدريس السوسي** الذي أشعل سيجارةً وطفق يلتهمها بشراهة ويعبُّ الكؤوس تباعًا.

يُربِّت **زخارى** على كتفه ليهدئه، ويهمس له:

- ألم أقل لك إنهم أوغاد...؟! دعك منهم!... فأنت سيدهم... قل لي...! ما زلت أنتظر جوابك... هل ستبيت عندي الليلة؟ ردَّ عليَّ... رجاءً...! وانس أمر هؤلاء الأنذال...!

يهدأ **إدريس السوسي**، يستوعب أخيرًا عرض زخارى السخي وقد ألحَّ وأصرَّ حتى أضجر، فيقول له مبتسمًا وعيناه ما انفكتا تحدجان الجنود، محتسيًا جرعات من قدحه:

- الله يحفظك... **زخارى**. !...

- هؤلاء العنصريون... يظنون أنفسهم مختلفين عنا... بل متفوقين عرقًا وأصلًا...

- ليسوا كلهم عنصريين ولا متعصبين، ففيهم خليط من المسلمين والنصارى واليهودي، وأعراق مختلفة، أمازيغية، عربية، عبرية، أوروبية، زنجية، كلٌّ يدين بدين أو ملة، وفيهم مَن لا دين له غير الدولة واللواء، هما الملة والدين بالنسبة لهم، وفيهم المرتزقة، وهؤلاء أشدهم ضراوة وعداوة، لأنهم بلا قضيةٍ ولا ولاءٍ، على كل حال عليَّ أن أعود... وأنت تعلم أنني لا أرتاح إلا في فراشي، وقبوك يا أخي...! والله... لا يُطاق يا **زخارى**...وأنت أدرى به... صدقني...! عرضك طيب، تشكر عليه... لكن...

مترددًا يتوقف عن الكلام ثم يقول ضاحكًا:

- قبوك عفن، من يطيق المبيت فيه يا رجل...! أما سريرك فلا مكان

لي فيه، و«**شاميرا**» لو سمعتكَ لجعلتك تبيت الليلةَ في العراء...!

- «**شاميرا**» امرأة ورب السماء**!** طيبة وإن كانت تركبها الحماقة من حين لآخر... يا أخي...**!** ولكنها ستظل بلهاء... خذ حذرك على كل حال...**!** خذ حذرك...**!** فالطريق مظلمة وبيتك معزول، ولا ندري من أين يأتي اللصوص وقُطَّاع الطرق، ولا متى تبطش يد الغدر والغيلة في الحلكة؟

- لا عليك...**!** لا تشغل بالك...**!** فأنا أنام بعين مفتوحة دائمًا يا **زخارى**...**!** وبندقيتي على صدري.

- لا أفهم حبك للعمل في المنجم وعدم السكن هناك في المجمع السكني، واختيارك ذاك البيت المهجور على «**تل الريح**» البعيد هناك...**!!**

- لا تتعجَّل ستعرف يومًا ما؟

- أريد أن... فقط أن أعرف سر عدائك **للسيدة** ورجالها؟**!**

- ستعرف يومًا يا زخارى!

- أرى أنك غامض... آه... نعم...**!** لن أجاملك... شيء فيك غريب ومريب... لو تكشف لي جانبًا من هذا الغموض**!**

- لستَ مستعدًّا بعدُ.

- من قال لك ذلك يا أخي...؟**!** جربني يا رجل وسترى!

- هل تغامر؟ قد تتغيَّر نظرتك لعدة أشياء، وقد يتحوَّل ما ستعرفه منغِّصًا حياتك، وقد تتورَّط فقط لكونك تعرف، ولو علمتَ ما عرفتَ النوم.

- وهل أنام حتى أصاب بالأرق...؟!

- لا تتعجل يا رجل...!

- إيه...! تكلم...! اكشف عن الجانب المظلم من القمر، إلا إذا كنت لا تثق في وتحسبني من خدام «**العالية**».

- لا... لكن مرجَّح أنك من خدام **جورج**.

- تلك مصالح متبادلة لا غير، وبنودها واضحة ومحترمة، ولست هنا ورب الأكوان...! أجمع المعلومات أو أدون التقارير... لست بلا كبرياء حتى أبيع أبناء وطني بأبخس الأثمان.

- التاريخ لا يرحم، ما تراه أنت مصلحةً اليوم قد يُصنَّف يومًا في كتب التاريخ خيانةً.

- وهل أنا وَاشٍ حتى أُصنَّف خائنًا؟! لستُ أقلَّ وطنيةً منكم...

- ومن أدراك أني وطني النزعة؟!

- إن لم تكن أنتَ فمن يكون...؟! «**الذئب**» لا تمزح يا رجل!

- هل أنت مصر على معرفة جانب من الحقيقة؟

- مُصِرٌّ وملِحٌّ...

- سأفضي لك بسرٍّ الليلة...

- لا تتردد أنا مصغٍ لك بكامل اهتمامي.

- ربما حان الوقت لنتقاسم هذا الثقل الذي أنقَضَ ظهري، أظن أنه حان الوقت للكشف لك عن مزيد من الأسرار، مثلًا... هل تعرفني جيدًا؟

- في الحقيقة... تحرَّجت أن أسألك أكثر من مرة عما يشغلني في شخصيتك، فأنت لستَ من بلدة الغرافين، ولكنتك غريبة...!

- كيف؟!

- لَكْنَتك أقرب إلى أهل المشرق...!

- ذاك لأنني نشأت وترعرعت في السودان...وتنشَّقت هواء النيل فحُلَّت عقد لساني...

- لستَ مغربيًّا إذًا...؟!

- بل مغربي قُح... وأمي سودانية...

- لم أفهم والله...

- أنا من **سوس** بجنوب المغرب...

- يا أخي ألم تقل إنك نشأت في السودان...؟!

- بلى وأمي **سودانية ستعرف مَن هي فيما بعد ويركبك العجب**... ووالدي ستعرف من هو الآن... هو دفين المغارة... **سيدي الفراش**...

- ابنه...؟! ابن **سيدي الفراش**؟!...قل كلامًا غير هذا...! لم أسكر بعدُ حتى أصدق مثل هذا القول الغريب...!!

- نعم... ابن سيدي **محمد الحاكي** ولا أسخر منك...

- سيدي **الفراش** أم **سيدي الحاكي**...؟!

- **سيدي الفراش**، هكذا لقَّبوه هنا، ولِلَقبِه هذا قصة غريبة... ستعرفها فيما بعدُ.

مضطربًا، يعضُّ **زخاري** إصبعه ويقول بقلق:

- كيف؟! قل كلامًا غير هذا...! أنت ابن الولي الصالح **سيدي الفراش** دفين المغارة...؟! أنت تمزح... لا تستغبني...!

يرد عليه **إدريس السوسي** وهو يلوي شفتيه، ويهز رأسه:

- ألم أحذرك؟! أتريدني الآن أن أصمت؟

- لا... استمر...! سأسمع هذا العجب حتى النهاية.

- لا أظن ذلك.

- ما أدراك يا رجل...؟ احْكِ ودعني أسمع...!

- أتعتقد دون شكٍّ أن المغارة مدفن **لسيدي الفراش** وزوجته أمونة وابنهما الصبي...؟ ألم تفترض يومًا أن الأمر قد يكون مجرد وهم أو خرافة محبوكة بذكاء خبيث مُحكَم الخيوط ومرتب المراحل لأغراض دنيوية ومادية محضة؟

- الوهم؟ ربما ما تدعيه «**العالية**» من أنوار تتجلى في قلبها من الولي، وخبر غيب يأتيها منه رؤى أو طائف تحريف وتضليل، لكن الولي الدفين له قصة جهاد نفسي وجهاد وطني لا تُنسَى، ومات من أجل الحرية واستقلال بلده، وكلنا نعرف قصة الولي الشهيد وأمونة السودانية... إما خبرًا عمن عايشوهما أو أثرًا حتى في سجلات الفرنسيين أنفسهم...

- نعم... تلك القصة التي تُحكَى للأطفال ليلًا ليناموا، وللمقهورين ليرضوا بما هم فيه من قسوة القدر وحتمية المصير دون تفكير أو رغبة في التغيير، نعم...! تلك القصص التي تحقق السكينة دون العزيمة، وتشيع ظلال الطمأنينة في الأنفس السقيمة، حتى صارت حقيقةً لا تُناقَش ولو خفيضة، فأنت للأسف تُردّد ما يُردده غيرك من وجهاء وتجار البلدة ولهم في القصة ريعٌ ومنفعةٌ...

- والفقراء ما نفعهم منها...؟!

- الفقراء والجهلاء... الضحايا لكنهم في الوقت نفسه جزء من الأزمة... يعتقدون في شفاء ونِعَم البركة الوهمية، وهم في الحقيقة ينعمون بمتعة إرجاء للحق ولذَّة انتظار الآخرة لموارة ضعفهم...

- غريب ما تقول...! أتشكك في القصة كلها؟!

- أنت **يا زخاري** تردد ما حُبِكَ بدهاء وذكاء منذ أكثر من عقدين من الزمن... تردد... قصة عابدٍ ناسكٍ اسمه **سيدي الفراش** اعتصم بالمغارة المباركة صُحبةَ الزوجة العابدة الزاهدة السودانية الأصل، ومعهما ابنهما الصغير الذي لم يتجاوز عامَه الثالث، بعد ما طارده من السهول إلى الجبال، ومن الوهاد إلى الأوعار جنودُ الاحتلال البغاة، وكان قد كبَّدهم ورجالُه خسائر جمَّة لا تُحصى في العتاد والرجال، أنت يا **زخاري** دون تمحيص للخبر وبانقياد تام للرواة، وفيهم الكذابون والمنتفعون والأفَّاقون، وفيهم من يريدون مجدًا للبلدة يفخرون به بين القبائل، وفيهم من عَلِم ووعَى أن في الحكاية كنزًا وأموالًا ورواجًا، أنت تردد ما يرددون دون أن تعي أصل الحكاية العميقة، أنت تردد وتعتقد أن المغارة نُسفَت نسفًا بالمدافع الثقيلة، فتداعت الصخور الثقيلة تداعيًا جارفًا أزهق أرواح الثلاثة الذين اعتصموا بالمكان، فأغلق الهدم المتداعي من الحجارة منفَذَها العريض، وما بقي لها من منفذ يؤدي إلى الداخل سوى مدخل ضيق يدخل منه الزوار ليحتكموا إلى روح الدفين، فإن ضاق عليهم المنفذ وعجزوا عن الخروج لذنب مفترَض أو جُرم محتمَل حسب السؤال وحسب القضية صاروا متهمين، وفتحت لهم البوابة الأخرى في ظهر الجبل، وركبهم العار والخزي من ثبوت الادعاء...

- نعم... لا يمرُّ من الممر الضيق إلا بريء أو متهم برَّأته المغارة...

ومن ضاق به الممر لصقت به التهمة التي من أجلها جاء الناس يختصمون... وأنا لا أصدق هذا... فالأبدان كيفيات وأوزان وأشكال مختلفة... وحظ النحيل في البراءة أكثر من حظ البدين... لكن لا أبدي رأيي ولا أكشف ما أصدق وما أكذب...

- ألم يقولوا إن أسراب الفراشات البهية الأشكال والألوان ظهرت على غير ميعاد ربيعي وحلَّقت أيامًا ولياليَ دون انقطاع فوق مرقده وحول المغارة، فسُمي **بسيدي الفَرَاش**، فتناسَوا اسمه الأول، وكنيته **بسيدي الحاكي** لاشتغاله بالحياكة؟! ألم يُسمُّوا العين التي انفجرت من بين الصخور الصماء التي تعلو المغارة كسقيفة طبيعية، **عين أمونة**، وقالوا هذه دموعها الحارقة التي لا تجف حزنًا على صبيها؟!

- نعم زوجته السودانية **أمونة** التي ماتت معه... والصبي الصغير مات وهو في حضنها تحت ركام الصخور...

- أتصدق كما يصدق الكثيرون أنهم من حين لآخر تظهر لهم بين الأشجار أو على الطرقات النائية الموحشة «**أمونة السودانية**» نورًا ساطعًا بين السماء والأرض، في ثوبها البرَّاق الأخضر أحيانًا أو مجلَّلة بالبياض الساطع وضياء يكتنف السماء من البهاء أحيانًا أخرى، وترسل الإشارات والتحيات...؟!

- لا تنسَ أنني يهودي ولا شأن لي بما يعتقد الناس هنا... وأهل

بلدة الغرافين يعتقدون في أكثر من ذلك، ألم تسمع **السيدة** تنادي من أعلى عربتها: «طوبى لمن رأى أمونة السودانية وكشفت له عن نورها...! طوبى له فيما سينعم فيه من فيض كرم، ومدَدِ نِعَم؟!»، لا تنسَ أن **أمونة السودانية** كانت مباركة ومناضلة ووطنية واكتوت بموت صغيرها في حضنها.

- ماتت الأم المباركة وفي حضنها الصبي ويحضنهما الزوج الولي... هذا ما يعتقدون، فغدت الأم الثكلى عندهم الشريفة الملقبة «**أم الصبيان**» وماء عينها شفاءً للأطفال ودواءً من كل داء للصبيان.
- هذا ما يعتقده الناس هنا وهو مدار تجارتهم ورواجهم... ولا شأن لي فيما يعتقدون... وإني لأسمعهم يحكون الغرائب والعجائب فلا أعلق... يقولون إن **سيدي الفراش** يظهر من حين لآخر ممتطيًا فرسًا بيضاء أعلى قمة الجبل، ويرددون باستسلام دون أدنى ريبة ما تقوله **السيدة** حين تُصرَع: «طوبى لمن رآه! فتلك إشارة واضحة وعلامة بارقة على خير غزير، وفضل كثير...».

ينهض **إدريس السوسي** يتوجه صوب دورة المياه، يعود وأنظار الجنود تتعقَّبه بحنق، يفرغ كأس خمر في جوفه وهو واقف يكنس الخمارة بنظراته، يجره **زخارى** من حزام سرواله ويجلسه بقوة وهو يقول متبرمًا بقلق:

- يا أخي...! اجلس... لا تستفزَّ هؤلاء الأوغاد...!

- أرأيت يا **زخارى** كيف تطورت الخرافة وتناسلت الحكايات الزائفة والكرامات المزعومة، أحلامًا وأوهامًا ولو يقظة، حتى صرت ترى من يأتي من بعيد، أو من أقصى الأمصار زائرًا معتقدًا في نداء في ليل حالك، أو ملبيًا لدعوة وصلته في خاطر، أو هاتف جال في السرائر، وقد اختلطت الأدوار في كل هذا، بين معتقد حضر بإيحاء متكرر، وبين مأجور جاء يؤدي دورًا، ويحكي حكايةً مقابل أجر وينصرف؟!

ينتفض زخارى واقفًا مذعورًا وقد بدا عليه الاضطراب وجحظت عيناه، ولا يُدْرَى هل ما فيه هو من ارتباك من وجل وخوف أم من عجب وانبهار، ثم يقصد دورة المياه مهرولًا، وهو يشمر جلبابه ويحسره عن ساقيه إلى ما فوق الركبتين، ويعود بعد قليل وهو يمسح بكُمِّ جلبابه مخاطَه بعد أن غلبه عطس متوالٍ أحدث ضجَّة، يجلس ويقول مهمهمًا بصوت خفيض، يزحر كالعادة زحيرًا بدون جهد سبق، مدنيًا فمه من أذن صاحبه ملتفتًا يسرةً ويمنةً:

- يا أخي ما تقوله خطير جدًّا، قد يجلب عليك متاعب شتى، فالبلدة كلها تعيش من بركة هذا الولي «**سيدي الفراش**» الذي تقول إنه أبوك... توقف لا أريد معرفة المزيد...!

- ألم أحذرك...؟!... ألم أقل لك إنك لن «**تستطيع معي صبرًا**»؟!

- لم أطلب سوى التعرف عليك أكثر... لكن كلامك فاق كل التوقعات...!

- أتريد معرفة كل القصة، أم ستظل هكذا مضطربًا يسكنك الخوف حتى أخمص قدميك؟

يرد زخارى وهو يهز رأسه ويضرب كفًّا بكفٍّ:

- هل هناك من مزيد...؟!

- لو علمتَ كلَّ الحقيقة... كلها... لصُدِمت ولأغمي عليك...! كل الحقيقة...! ماذا لو لم يكن في المغارة لا دفين ولا سر مكين؟! ماذا لو نهضت الآن وصرخت عاليًا بين الدروب والشعاب: «لا وجود **لسيدي الفراش** في المغارة.»

يمتقع وجه **زخارى**، فيثب نحو **إدريس السوسي** يضع أصابعه على فمه قامعًا فيه سيل الكلام وهو يصطنع الضحك ملتفتًا جهةَ الجنود:

- اصمت...! يا رجل...! ستتسبب في قتلنا لا محالة هذه الليلة!

- هل أنت خائف إلى هذه الدرجة من الأمر؟!

- أنا في الحقيقة... في الحقيقة... ماذا أقول لك؟! ورب الأكوان لا أجد الكلمات...! أنا... أنا...

يتوقف **زخارى** عن الكلام، كأنه لا يجد العبارة المناسبة، أو كأن الحذر يُلجِم لسانه، وبدت عيناه تدوران في رأسه الصغير كأنه تائه

في عالم بلا خرائط، وكأن بوصلة سفينة تفكيره تعطلت والعاصفة هوجاء، فيجول في خلده ما يرهق فكره ويحرج منطقه، ويهز ثباته، وهو في قرارة نفسه في غنى عن رأي ذي عواقب فواجع، وموقف يندر ويقلُّ فيه الأشياع والأتباع، وإن تحمَّسوا في البداية خذلوا عند اشتداد التدافع، وفي غنًى عن دعوة لن تذر أخضرَ ولا يابسًا، وهو الغريب في **بلدة الغرافين**، وأهلها أشد تعلقًا بسيد وسيدة المغارة، أكثر من تعلقهم بالأبناء والآباء والأجداد، لا لعقيدة راسخة فحسب، بل لما في الأمر من رواج، وعليها قام اقتصادٌ هنا، وبسقوط الأسطورة تعود البلدة للأزمان الغابرة، وزخارى نفسه لا تستقيم تجارته إلا بحركة زوار المغارة والعين، وطلب البركة وإن كانوا في جهالة، ومهما قال **إدريس السوسي** وادعى، فما حياة **زخارى** رغم رتابتها إلا جزء من هرج ومرج الجنود وإن فسقوا ومجنوا ولهفة الزوار وإن جهلوا فمرقوا.

ينتصب واقفًا يتصبب عرقًا باردًا رشح رشحًا على جبينه، والجو بارد صقيع، يسوي تلابيب جلبابه على ديدنه، ملتفتًا رامقًا يمنةً ويسرةً، وقد انتابته الحيرة مما جال كالعاصفة الغادرة في خاطر من حديث مهدد لحكمته، اقشعرَّ له بدنه، وانتابه صداع باغت سرى في عروق رقبته، حتى تلمَّسَها من شدة الألم بيده أكثر من مرة، ودلكها دلكًا وهو يتمطى كالهررة، عسى ما علق بها من حر يتبدَّد، وأحس كأن الدم قد تجمَّد من

الخوف لا القر في عروق ساقيه حتى شُلَّتا وتنمَّلَتَا، فغدا يحركهما علَّهما يسترجعان دفء الحياة، شعر بدوار وغثيان، فتمنى في خاطره لو لم يعرف هذا الرجل الأسمر الذي كان على عتبة عقده الثالث، العريض المنكبين، الطويل القامة، الأزج الحاجبين دون قرن، والذي تسري حمرة في العروق الدقيقة على بياض عينيه الضيقتين، الرقيق الأنف، الأهدل المسترخي الشفة السفلى، الغضوب والحاد المزاج، وأوشك مع نفسه على التبرؤ منه، والتنكر لصحبته، لولا عزة نفس وكبرياء رد بهما الندم الزاحف، وقمع بلجامهما التوجُّس القاتل والحذر الجارف، وشدَّ بهما بقوة وحزم عنان الجبن والضعف المتسلل إلى الفكر والعقل. وبين التوجُّس وعزة النفس ضاع حتى شعر أن جمرة نار يسري لهيبها في عظام صدغيه، فاضطربت خطواته، وتقلصت عضلات وجهه، وغدا يغمز بعينه اليسرى غمزًا يغلبه كلما اضطربت دواخله.

لوَّح بيدٍ مرتعشة ونظرٍ زائغٍ مائع قلق، ووجه محمرٍّ معتصر الدم، جهة المقصف صائحًا بارتباك، تكاد الحروف لا تعانق شقيقتها على جوار التركيب من عِيٍّ عارض:

- شا... مي... را...! شا... مي... را...! شامي... را...! «شاميرا»...! يا ام...ر... أة...! يا امرأة...! سأغيب...سأغيب لحظة...! تعال يا إدريس السوسي...! لننزل إلى القبو...!

يضع قنينة نبيذ تحت إبطه، فيكاد يفلتها من رعشةٍ تسري، فيتبرَّم

متأففًا وهو يضعها على المنضدة، ثم يرفعها بيده اليسرى، بينما انشغلت يده اليمنى بحمل قدحين، يجر **إدريس السوسي** من تلابيبه ويدلفان نحو القبو أمام ذهول «**شاميرا**»، وتشيعهما **فاريديا** بنظرة مشرقة وابتسامة بهية.

٥

تمدَّد **إدريس السوسي** على كيس من أكياس التين المجفف، فغاص فيه وانقلب على ظهره، أوشك أن يسقط أرضًا، فتلمس في الظلام الدامس أكياسًا أخرى متراصة ممتلئة مكتنزة، ثم استلقى عليها متأففًا منزعجًا من برودة الفضاء، وقد اشمأزَّ من عفونة ونتانة الروائح، قرع عود كبريت ليشعل سيجارة، فمرق جرذ بين قدميه واختفى، تبددت الحلكة على لهب عود الكبريت لحظة، مما سمح **لزخارى** بإشعال القنديل القابع على برميل في زاوية مغبرة، وقد غزتها خيوط أعشاش العناكب، وهو يلهث كعادته من ضيق نَفَس مزمن، ثم جلس إلى جانب صاحبه على برميل من خشب السنديان وهو يتحسس ألم حوضه، فقد كانت بنيته ضعيفة، وسريع الإعياء.

تجرَّع السوسي قدحين من النبيذ وهو يحدق إلى **زخارى** الذي بدا كأنه صحا من سكره توًّا بعد ما سمع ما قاله نديمه، وأثار انتباهه صرصور طائر يقفز تحت قدمه، فدعسه دعسًا فأحس براحة غريبة، ثم أبعده بحركة من قدمه، والتفت إلى **إدريس السوسي** الذي ما انفكَّ ينهك سجائره إلى آخر رمق، ظل ينتظر مترددًا مترقبًا بحذر، وتمنى في خاطره لو يصمت **إدريس السوسي** هذه الليلة، هذه الليلة فقط، لكن صاحبه مُصرٌّ على البوح مهما كان الثمن، ويظهر أن ما يُكنه من أسرار

أتعبه وأنقض وزره صدره، فقرَّر مقاسمة هذا الثقل كله مع **زخارى** علَّه يخفف عن نفسه وطأة أوجاعه وآلامه، يقول وهو يتابع بنظرات حالمة سحابات سيجارته:

- أتريد سماع أسرار «**أمونة السودانية**»؟ هل أنت مستعد لولوج عالمها من بوابته العريضة؟ هل تريد التفاصيل حول أسطورة دفين المغارة...؟ أتعلم أن أمونة السودانية أمي... وهي حية تُرزق...؟!

ينتصب زخارى واقفًا، يفقد توازنه من الصدمة التي تكالبَتْ عليه الليلة والثمالة، يسنده إدريس السوسي، يجلس متأوِّهًا وهو يردد:

- قلتَ الولي سيدي الفراش أبوك... ثم عدت لتقول إن **أمونة السودانية** أمك وحية ترزق... هذا كثير يا أخي... اصمت رجاءً... هل أنت واعٍ بما تقول؟! هل تمزح؟! ما أحضرتك إلى هنا إلا لكي ألجم لسانك فلا يسمعك أحد...

- ألا تصدقني؟!

- لا أعرف مَن أصدق...؟! والله إني في حيرة من أمري... كيف تكون أمونة السودانية حية ترزق وهي مدفونة والولي وصبيها بالمغارة تحت الردم، والكل يشهد على ذلك حتى الفرنسيون أنفسهم...؟!

- لأن هذه هي الحقيقة والأجنبي يعرف أن أصل الحكاية باطل،

لكن الباطل يخدم مصالحهم... والحقيقة لا تنفعهم وهم يريدون أمَّة مغيَّبة.

- هذا كثير...! أعرف وأدركُ أنك منذ حللتَ بالبلدة تُكِنُّ كرهًا شديدًا **للسيدة**، كنتُ أقول: إنك تكره فيها الظلم والطغيان، وتمقت العقيد جورج والجنود الفرنسيين، لكن كنت أقول: إن الأمر له علاقة بالوطنية لا بشيء آخر.

يضرب إدريس السوسي كفًّا بكفٍّ مستاءً وساخرًا وهو يردد:

- الوطنية تبدأ بالكشف عن الحقيقة، وصحوة الأمَّة من الغيبوبة وتخلُّصها من أساطيرها التي تعوق نهضتها.

- هذا كلام يفوق طاقتي... وأنا رجل أنأى بنفسي عن المشكلات...

- ألستَ واحدًا منا...؟!

- بلى... وهل في الأمر شك...؟!

- فكيف تخاف...؟!

- أنا لا أخاف... لكنْ... تشكيكُ في مزارات **بلدة الغرافين** انتحارٌ... والناس لو سمعوا ما تقول لَسَحَلُونا في الدروب... وأنا كما تعرف...!

- ماذا...؟! لا تريد أن تضر بعلاقتك مع **جورج**...؟!

متلعثمًا يرد **زخاري** وقد غلبه الاضطراب حتى نهض وغدا يذرع

القبو جيئةً وذهابًا وهو يمرر يده بشكل غريب على رأسه:

- نعم لا أريد...!

يقاطعه **إدريس السوسي** منتفضًا واقفًا، يدنو منه وئيدًا وهو يُمعن النظر في وجهه بقسوة، مما زاد اضطراب وإحراج **زخارى** الذي تراجع إلى الوراء وسقط جالسًا على كيس تين مُحملِقًا في صديقه الذي أرسل قهقهةً عالية شَرِق لها بِريقِه، فأخذ يكحُّ ويضرب الأرض بقدمه ضربًا شديدًا، مما أثار حفيظة «شاميرا» التي أصاخت السمع على عادتها متلصِّصة تسترق السمع ولو وسط الضجيج، توجَّست شرًّا من الصخب، فدلفت نازلة مضطربة الخطو إلى القبو، وهي تغمغم بلا بيان ولا وضوح عبارة، توقفت وتسمَّرت حيث هما، كنست الأرجاء كمن يفتش عن شيء ضائع، وبنظرات قلقة حائرة خائفة، قالت مزمجرة بغضبٍ بعثر الكلمات:

- ماذا... وقع... **يا زخارى** الشؤم؟! أخفتماني حتى كدتما تشُلَّان ركبتي رعبًا!

يقفز نحوها **زخارى** بخفَّة ونَزَق وقد امتعض من مروقها المباغت، فاعتصر وجهه دمًا، وعصفت به رياح الغضب عصفًا شديدًا حتى قَبُح وجهه، وانكمشت خطوط جبهته، يكاد يفقد صوابه، وهو في أمر جلل يغنيه عن شغبها المعهود وتطفُّلها الذي ينكره عليها دومًا، فيدلق كأس خمر على الأكياس بحركة طائشة منه، فيبتلُّ سروال **إدريس السوسي**

الذي طفق يجفف ملابسه بسقط أسمال، ويردد بهدوء خلافًا لطبعه المتوتر ومزاجه الغضوب:

- لا بأس... يا أخي...! لا تَقْسُ عليها...! فما أخرجها مما كانت فيه إلا انشغال البال والقلب عليك يا رجل...!

يدفع «**زخارى**» زوجته «شاميرا» بقوة وعنف نحو سلم القبو، ثم يتقدَّمُها ويجرُّها نحو صالة الخمارة وما خفَّ لهاثه وزحيره وهو يزمجر غضبًا:

- مَن أذن لكِ بالنزول يا نذيرة الشؤم...؟! عودي إلى المشرب...! عودي فورًا...! يا حمقاء...! ولا تنزلي حتى أطلبك...!

تهرول المرأة فزِعةً نحو المقصف، وقد صعقها كلامه، ولم يحدس عقلها أن ردة فعل زوجها ستكون شديدةً كالصاعقة بهذا الشكل، وهي التي خَبِرت صبرَه وطول نَفَسه، وهدوءه في كل حال ومقام، تملَّكها العجبُ من غضبته الهائجة، فشمَّرت تلابيبها ودلفت نحو السلم منحنية تكاد تحبو، فتخطو على قطعةٍ من تلابيبها، وتزل قدمها فتنهض بسرعة، يتمزَّق مئزرها، تنزعه بغضب وتبرُّم ملحوظَيْن، وتصبُّ فيه جامَ غضبها فتمزقه أشلاء وهي تنتحب، وترمي بها بعيدًا، حتى تتطاير وتتفرَّق على أرضية صالة الخمارة، يكتفي الجنود بنظرات عابرة هازئة، ثم تنتابهم موجة قهقهات جماعية عالية وهم يلتقطون ما يبدو تندرًا عليها من فم أحد الجنود، ويعودون إلى ما كانوا فيه، أما هي

فتجلس وراء المشرب في العمق حيث الضوء ضعيف باهت يكاد لا يصل، تسند ذقنها بيدها حزينة باكية بصمت، ولا يُرَى منها غير ظلالها القاتمة، ولا يُسمع منها غير غمغمة حادة النبرة بالعبرية، بينما «**فاريديا**» تجاهد نفسها لقمع رغبتها في الضحك من كبوة أمها على السلم، لكن الرغبة قوية طافحة تغلبها، فتضحك ضحكًا شديدًا مما أغاظ الأم التي لوحت لها غاضبةً مهدِّدةً متوعِّدةً بمكنستها.

يعود **زخارى** إلى صديقه، ويقول له بأسى وهو يزحر كعادته:

- ستقتلني هذه المرأة ورب الأكوان...!
- إنك تقسو عليها...!
- مَن قال لها أن تأتي؟!
- قلبها يا رجل...! اتق فيها ربك!
- بل هوسها وفضولها، وتدخُّلها الدائم فيما لا يعنيها، وحشرُها أنفَها الغليظ في أمور لا علاقة لها بها... و... و... هوسها... يا رجل...! ورب الأكوان...! إنها لتتمنى أن تكون ثالثتنا في هذا الحديث، حدسها يعلمها أن في الأمر أسرارًا، أعرفها اللئيمة...! أعرفها جيدًا... وأعرف ما يجول في عقلها من وساوس، فلا بد أنَّ اعتزالنا عن الباقين... هنا في القبو أثار حفيظتها... ورب الأكوان أعرف مدى فضولها...!
- والآن... انس الأمر...! أتريد أن تسمع كل الأسرار...؟!

- لا أعرف... ورب السماء لا أعرف...!!

- أَعْلمُ يا **زخارى** أن لك حظًّا في التعليم، عبريًّا كان أم لسانًا عربيًّا، وكنت ممن عانوا من شك الوجود فتغيَّر حالك أكثر من مرة، حتى اخترتَ تحييد الملة وتدبير النعمة بعيدًا عن النِّحلة، وقد تقلبْتَ في دواوين الباشوات والحكام، وكنتَ كاتبًا لعدد منهم، لغتك العربية لغة فصيحة، وخطك جميل، وتتقنُ أكثرَ من لسان، وكنتَ تدبِّجُ الرسائل للحكام، وتحفظُ الأشعار والأخبار والنوادر والمقامات، كما كنتَ كاتبًا عند الكثيرين ومؤنسًا لأكثر من قائد و«باشا».

- نعم... لكني مللت خدمة مَن ليس أهلًا للخدمة، ولا تنسَ أني كنت صيرفيًّا ماهرًا، فمللت مهنة اختص بها بنو جلدتي، وما جاد لساني العربي إلا من قراءة متأنية للأدب والشعر وبحث مُضنٍ في الأساليب والبلاغة... وأنت لسانك أفصح مني ومنطقك سلس، وهذا سرُّه لم أستجلِه بعدُ وأنت المهندس خريج معهد المعادن... فكيف يكون لك حُسن البيان والتعبير؟!

- اعلم أني قرأت مخطوطات أمي **أمونة** مرارًا وتكرارًا حتى غدت كلماتها جزءًا من منطقي ولساني... بل حفظتها كما أحفظ كل حديث لها معي معنًى ولفظًا... ونشأت في بيت علم وزهد.

- تقول إن أمك هي **أمونة** وهي حية ترزق... كيف؟!

- اسمع...! ببلدة «**الدامر**» معقل الزهَّاد بالسودان وهي حاضرة عتيقة تليدة التاريخ متجذِّرة الوجود، وتقع على مسافة قريبة من جنوب بلدة «**عطبرة**» نشأت وترعرعت ورويت القليل بقدر التهيؤ من نبع الزهَّاد، وإن لم تكن مسقط رأسي، وعدوت ببراءة الطفولة صبيًّا متنقلًا بين كل خلوة وهي عندي فُرجة، وكل جذبة عندي لُعبة ومُتعة، ثم جُلتُ غير مكلَّف بطريقةٍ ولا مسلكٍ ظاهرَيْن يافعًا بين الخلوات ونيران المجاذيب التي لا تخبو، وتشرَّبتُ الشجاعة والمروءة وجود النفس ورقَّة الروح والقلب، وتنعَّمت في لطائف التصوف دون أن ألج مسالكَه أو أتدرج في مقاماته، فلم أكن مُقبلًا كلَّ الإقبال على علم الظاهر شريعةً، فما بالك بعلم الحقيقة...؟!

يقطع كلامه **زخارى**، ويسأله في محاولة منه للفهم:

- ما أحلى منطقكَ ولفظكَ وما ألذَّ أسلوبكَ...! ورب الأكوان...! لسانك يكاد يُسكرني على سُكري... قل لي... علم الشريعة أعرفه، ولنا في كتبنا العبرية ما يُفصِّله حتى في ملتنا اليهودية، فما علم الحقيقة...؟!

يردُّ عليه بعد تأمُّل وتفكير:

- لقد نشأتُ في بيت صوفي، لا تنقطع فيه المواعظ والدروس تلاوةً، ولا تنقطع فيه شروح **حِكَم ابن عطاء**.

- **ابن عطاء؟!**

- لا تهتم بالأعلام والأسماء، خذ مني الخبرَ فقط، فهو كافٍ لفهمك واطلاعك على الأسرار المهمَّة، ولا تُرهِق عقلكَ في فك الشفرات إن أغلقت عليك...! تجاوزها...! فلن تؤثر على إدراكك جوهرَ القضية حُسنَ الإدراك، فلو لك فصلتُ كل التفصيل الدقيق لطال الحديث وما انتهى وما اكتمل... المهم... اسمع...!

حملق فيه **زخارى**، وصب له كأس نبيذ وقال وهو يمرر لسانه على شفته العليا:

- زدنا من علمك يا أخي...! وإن كان المقام لا يليق بالمقال.

- يشير إليه بإشارة من يده أن يكف عن سقيه قائلًا بحسرة:

- حكايتي من نور... لا تستقيم والخمر والكؤوس تدور... توقف... لا تَسْقِنِي خمرًا احترامًا لأسرار وأنوار أمي...

- يُحملِق فيه زخارى بعجب ينتفض واقفًا بعزم وهو يضع قنينة النبيذ بعيدًا مرددًا:

- وهل يطيب لي شرب كأس في حضرة الأسرار...؟! لا والله... سأسمعك بلا شرب... انتظر...!

يتأبَّط زخارى القنينة ويحمل الكأسين بيديه، يصعد إلى الصالة

ويسلم كل شيء لـ «**شاميرا**» التي تملكها العجب حتى لطمت صدرها والفم فاغر، ثم ينزل سلم القبو متهالكًا يزحر، يُنظف الطاولة، يفرغ المرمدة من أعقاب السجائر، يشعل عود ند، يستلقي على الأكياس.

- مبتسمًا يُربِّت إدريس السوسي بحُنوٍّ على كتف صاحبه ويقول بسكينة غريبة برقت لها عيناه:

- أعرف أنك «ولد الناس» وتفهم في الأصول اسمع... ببلدة **الدامر بالسودان**، كانت تصلني أصداء جلسات الأوراد والأنوار سماعًا أو حضورًا، وفي بيت جدي من أمي **أمونة**، تعلمتُ سمعًا وسقيًا أن الجانب العملي في الدين هو العبادات والمعاملات والأمور التعبدية، ومحلُّه الأعضاء الظاهرة الجسمانية، وهذا هو علم الشريعة، وهو علم متعلِّق بالإسلام، وهناك الإيمان وهو الجانب الاعتقادي القلبي، من إيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر وهذا باب علم التوحيد، أما الحقيقة فهي الإحسان... وهو الجانب الروحي القلبي، وهو أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وما ينتج عن ذلك من أحوال وأذواق وجدانية، ومقامات عرفانية وعلوم وهبية، وهذا علم الحقيقة الصافية وعلم الصوفية الراقية، ومسلكه يحتاج إلى عارفٍ بالله ليصحبك حتى لا تضلَّ بما تظنه عطاءً وهو غوايةٌ مضلَّةٌ من أهواء، ولا تقتصر المصاحبة فقط على عالِـمٍ بالله تعالى، حظُّه فقط من العلوم الظاهر في المعتقد والعبادات.

تملكتِ الدهشةُ **زخارى** وسُقِطَ في يده، وهو يسمع من نديمه كل هذه التفاصيل، فقال مستغربًا متهيبًا:

- كنتُ أظنكَ علمانيًّا بل ملحدًا...!!

- هذا شأن الكثيرين ممن يحسبون كلَّ متطلِّع للحديث والجديد وللحرية والعدالة ناطقٍ بلسان الغرب ملحدًا أو علمانيًّا، وإن كانت العلمانية لا تعني الكفر والإلحاد...

- كيف تعلم كل هذا...؟! ألم يكن حريًّا بك أن تكون شيخًا أو صوفيًّا بركته منتشرة في الأرجاء...؟!

يرد عليه **إدريس السوسي** باستخفاف:

- يا زخارى...! الطريق في مسالك الزهاد لا يختارها الطالب بل هي التي تختاره... ليس الأمر بيدي... ما قلتُه قليل مما أعرفه، والصوفية ليس معرفة أو علومًا في العقل، وليست القرفصاء والاجترار، وليست مسلكًا بإرادة الشيوخ، ولا هي تعليم نظامي يمنح إجازة العرفان، إنما هي مراتب ومقامات ومدارج تحصل للوجدان والقلب، واستعداد وإشراق، ورياضة وقمع للجوارح والشهوات، وهي فناء للجسد وهو حي، أما أنا فلم أملك لمسالكها عدة ولا زادًا، وشقَّ عليَّ أن أرفع عيني للسماء دون أن أنشغل بنزوةٍ أو التفاتةٍ ولو عابرة، والتصوف ليس إرادة الراغب وإنما مشيئة الواجد وفضل الواهب ومنة الغني الذي

يفتقر إليه كل سالك طالب، فلا يرى غيره في مرآة القلب، فيعرض عن سواه، عابدًا لا طامعًا في جنة ولا جزاء، وإنما حبًّا لذاته، التصوف ليس تجارةً ولا مقايضةً، الله هو البداية والنهاية، محبَّته هي المبتغَى والغاية... هذا ما تبوح به أمي من أسرار في روعي، وأنا عاجز ضائع حتى في علم اليقين، وهو العتبة الأولى في دروب الحقيقة، وهو علم تُختبَر فيه الأفعال وتُقاس بالظاهر في السلوك قبل العبور إلى عين اليقين... أرأيتَ أنني لم أَخْطُ بعدُ أول عتبة؟!

يتململ **زخارى** في مجلسه، يفرك أذنيه، وهو يردد بقلق: «يا أخي... لم أفهم كل ما قلت... لكن استمر»! يُشعل **إدريس السوسي** سيجارةً يلتهمها بنهم، تملأ سحابات الدخان القبو، يحاول **زخارى** تبديدها بعيدًا عن وجهه بيده وهو يسعل... يضحك **إدريس السوسي** لمحاولته اليائسة ويسترسل:

- وحين لمستِ الوالدةُ انشغالي بغير الله وإن كنتُ من أهل الله، دون كفرٍ ولا نكرانٍ، وكثرة التفاتي لسواه من غلبة عنفوان، حررتني من عهود الطريقة، وفَهِمت وتفهَّمت بما لها من يقين إعراضي عن التصوف، وما انفكت تُردِّد أن النور لا يُعطَى لمن لا همَّة له سابقة، وأن هذا المسلك يختار أهلَه ذوي العزم والهمم، ولا يختاره سالكوه، فمن ادعى أنه اختيار وقرار، فقد كذب وما ابتلي بعتبات الأنوار، وما عرف اللهَ حضورًا ولا كشفًا يهتك فيه

الستار، ويتدفق فيه المدد من أنوار، حتى يصير اللفظ المعبر عنها ضعيفَ الحيلة، منهكًا من ثقل المعنى، عاجزًا - بلا حول ولا قوة - عن حمل صورة المعنى، منحرفًا إن عبر عن عين المغزى.

- هيه... أمونة... كلامها كالشهد...

- ها أنا غدوت من أهل كأس الغوغاء وتركت كأس البهاء والضياء خاصة الخاصة، وشربتُ من حوض علم أمي **أمونة السودانية** علمًا لا يؤهلني للطريق، فالعلم وحده غير كافٍ كزادٍ للتحليق...

- أحيانًا لا أفهم كل ما تقول يا أخي...!

- خذ مني الأحداث فقط ولا تهتم لما بدا لك لغزًا.

يضع **زخارى** يده على فمه محملقًا في وجه صديقه ويردد:

- حاضر...! هذا فمي مغلق...

- اعلم...! أنه لم يقدر لي أن أكون ممن يتربعون ويصيخون السمع ويبسطون القلب باستسلام للشيخ بين المريدين، لم أكن ممن ينصتون للمواعظ ويحفظون الأوراد والأحزاب والحِكَم، وحاولتُ... فشقَّ الأمر عليَّ كثيرًا ولم أفلح فيما وُضِع بين يدي من أسرار **للشيخ الكبير عبد القادر الجيلاني** ولم يكن الأمر من ضعفٍ في ذاكرتي ولا من تعذُّر في الفهم، لكن شقَّ عليَّ حفظ الأذكار وما زلت ألتفت حولي لمباهج الحياة، وشقَّ عليَّ ترديدها

بالآلاف بل بآلاف الآلاف حتى تصير جزءًا من لحمة اللسان ينطقها دون وعي في مقامٍ تلتبس فيه الأحوال، وتتداخل فيه اليقظة والغفوة، شقَّ عليَّ ذلك وما خلوتُ إلا سهوتُ، أو سرح ذهني في الظاهر، وفتنني الخالب، وشغلني الغاوي عما يليق بمقام المختلي المتجرِّد، والخلوةُ جهادٌ وإجهاد، لا يستلذ ويتمتع وينعم بها إلا من صقلت مرآته قلبه من العُبَّاد، لتَلَقِّي الأنوار على قدر الزاد والسهاد، ومتى غدت العبادة عادةً، تلاشَى تلاشِي الضبابِ التلذُّذُ بمُتَعها، وصار الظاهر غالبًا على نعمة الباطن، وأنا وإن لامَسْتَ أنت لِينًا في لساني، ورقةً في روحي، فذاك من أثر لسان أمي، والطفل ينشأ على لغة الأهل وإن كان علمُ الأصول في زاوية جدي لزومًا لا ترفًا، لغةً وعقيدةً، وفيه نبغتُ اضطرارًا في البدء حتى غدا اختيارًا ومتعةً للروع، وقد رأى جدي الشيخ سيدي «**سيد أحمد الأنوار الجَعَلي**» رأيًا سديدًا في شأني، وكانت تربيتُه بالنظرات قبل العبارات، وبالملامح قبل الجوارح، وبالحَدْس قبل النَّبْس، وبالهمس قبل الدرس، رأى وتنبَّأ دون ادعاءٍ على الغيب، أني لم يُكتَب لي هذا المسلك في ذاك الحين، ولا قُدِّر لي هذا المطلب الصوفي المكين، وترك فُرجة أمل لي ولأمي حتى لا يُحزنها ما اختار لي مرددًا بحُنوٍّ ولِينِ عبارةٍ: «سبحان مقلب القلوب والأبصار، لا أدري ما قَدَّر لك القاهر الجبار، قد يختارك لما فيه نحن من أمر حين يحين الأوان، فهذه الطريق

تُطْلب شوقًا واشتياقًا ولا تتَوَسَّل مريدًا قهرًا وقسرًا». رأى الجدُّ الجليل - غير متسلط ولا متجبِّر ولا متعسِّف - من أحوالي وإقبالي على النعيم وشغفي بالملذات ما لا يستقيم ويتناغم وبداية مطالب الزهاد والنساك، فالعبادة عنده أولًا استقامة، وكانت لي زلات ومغامرات من نَزَق ونزوات وشهوات، وكان رحيمًا ليِّنًا، فإن نصح فبدون غِلظة... لا قساوة، فما الحال وأنا سِبطُه...؟!!

- صِفْ لي جدك والله شوقتني لرؤيته...!

- كان كثَّ اللحية البيضاء، أكثرُ لباسه البياض، عباءةً وعمامةً، بشرتُه سوداء داكنة، بيد أن وجهَه مضيء تغمره سكينة طافحة، يبدد النظرُ فيه كلَّ همٍّ، كان طويل الهامة والقامة، ونحيفًا دون ضعف كالنخلة القوية السامقة، غيرَ منحني الظهر ولا مُنثنٍ من وهن، وإن بلغ به العمر مبلغ الهرم، وكان انشراحه إن فاض لا يتجاوز ابتسامةً رزينةً بين شفتين ما فُطِمتا يومًا عن ذكر الله، فلا يفرح كل الفرح، ولا يُقَنِّط ولا يُيَئِّس من الرحمة الربانية، وما رأيت شيخًا يخدم زوَّاره خدمةَ الخادم لسيِّده، حتى رأيتُه يخدمهم بنفسه بحبور ونشاط، حتى أُحرج ضيوفُه وزوَّاره تسابقوا إلى الخدمة استحياءً عوضًا عنه، فيتصدى لذلك ببشاشةِ المربي غير الزاجر بشدة، فيربيهم على التواضع بصوت خفيض قائلًا منفرج الأسارير بهيَّ المبسم: «يا إخوتي في الله...! ما صنع أمثالَ فرعون والطواغيت إلا أممٌ غلَتْ في التبجيل والتقديس غلوًّا،

حتى رفعت البشر إلى منزلة التأليه؛ فاغترَّ المبجَّلُ مما رأى من ثناءٍ وخنوعٍ، فازداد علوًّا عن بني جلدته وسموًّا، فقَسَا قلبه حتى احتجب، ونسي أصله البسيط من طين لزج، وسها عن مآله جيفةً في الثرى مهما استبدَّ وعلا وطغى، دعوني أخدمكم...! حتى أنغِّص على نفسي الأمارة بالسوء فرحة شهوة التعظيم فلا تألف التنعيم، دعوني أجهض في النزوة الخفية جنين التجبر والغواية والتعظيم، والله لا يقهرها ويروضها غير التحقير والتجويع والتقتير، ولو تُرِكَت النفس لهواها، لاشتهت الزعامة، وآخر شهوات الولاية الزعامة، تنزع من النفس نزعًا، كنزع الروح من الجسد»... كان رغم شدة ورعه رحيمًا رقيق الجنان، لا يقسو بلسان ولا بإشارة بنان. قرَّر رحمه الله إلحاقي بالمدارس الجديدة للتعليم العصري، مقتنعًا بضرورة مِلحَّة مستعجلة عند الغير من العجم في الطب والهندسة وغيرهما من العلوم الجديدة المفيدة للأبدان والعقول وتدبير الحياة، ومرددًا: «لكل حضارة دورة، ولن تنهض هذه الأمة إلا بالفضيلة، وثبات العقيدة، والأخذ بالمعارف الحديثة، فيما يفيد في بناء الحضارة بلا دونية ولا فناء كلي في أحضان العجم». آه...! يا جدي...! أيها الزاهد المجدِّد، قد سبقتَ عصركَ، وأمتعتَ علمًا وفهمًا وإحسانًا وأفحمت فكرًا وتدليلًا وبرهانًا.

يحملق فيه **زخاري** بذهول وعيناه حائرتان وقد رفت عيناه بسرعة،

حين توقف صديقه عن الكلام وغاب وغفا بأبصار حاضرة وبصيرة مسافرة، كمن صار جزءًا مما يحكي، أو كمن استعاد حياةً بوحًا فغاص فيها وجدانًا وروحًا، يربت بحنوٍّ على كتفه مبتسمًا منشرح الأسارير من وقع ما يقول:

- هيه...! أين سافرت...؟!

- نعم...! نعم...! يا **زخارى**... عذرًا... إن من الذكريات المتعلقة بالروح قبل العقل ما ينفطر لها الفؤاد ويتفتت الكبد.

- ورب الأكوان... أنت صوفي ابن صوفي... حتى إن لغتك ساحرة ممتعة قوية.

- لستُ في مقام أصغرِ مريدٍ في زاوية جدي ونفسي متعلقة بالدنيا والأهواء، مَن يختار كأس الصوفيين لا يميل عنها إلى أي كأس أخرى مهما بدت شهيَّة، وأنت تعرف حالي وأحوالي، وحبي للحياة والتقلب في النعم.

- وهل يخرج الكأسُ الناسَ من الملة؟

- لا... ولكنه يُبدِّد المروءة والهيبة، وهما عكاز المتصوف في دنيا الشهوة، يهش به أطياف الرغبة، ويتلمس به أمن الطريق في عين عاصفة النزوة.

- بلاغتك تبهرني... ولسانك لسان فقيه أديب لا مهندس...!!

- كيف لا يكون لساني بليغًا فصيحًا، وقد قرأتُ المتون ولم أبلغ

الحُلُم بعدُ، وكان مرجعي ومصدري في أكثر الأوقات لتدريب اللسان بشرف العبارات وسحر الألفاظ، كُتُب **الجاحظ كالبيان والتبيين والحيوان**، وكتب أخرى **كالكامل للمبرد**، نهلتُ معاني الألفاظ من معين فقهاء اللغة، بدءًا بكتاب العين للخليل ولسان العرب لابن منظور وقوفًا عند القاموس المحيط للفيروز آبادي، وأقبلتُ على أسفار الصوفية المتعددة التي أرهقتني معانيها مجازاتها وفيها من المعاني المشفرة ما يحتاج لبلاغة لسان وطُهر كيان، وأربكتني إشراقاتها **كالفتوحات المكية لابن عربي** التي كادت تشط بعقلي إلى حافَّة الجنون، رغم أني ما أُطلِعتُ إلا على مختصراتها وشروحها وهي مجلدات زاخرة بالمعاني؟!

يحكُّ **زخارى** أرنبةَ أنفه، ثم يمرر أصابعه على شاربيه، يمد صاحبَه بقدح نبيذ، ويرمي هو في جوفه بجرعاتٍ متتالية متقطعة ثم ينبس معلقًا وهو يسوي طاقية رأسه، وينزعها ثم يعيدها بحركات غريبة:

- صدقتَ لم يعد المقام يصلح للمدام.
- ما أبوح به كأس تُسكِر بلا نزيف ولا تصدُّع.

يُقهقه **زخارى** ويضرب قدمه بالأرض منتشيًا، ويتمطَّى كقط كسول، ثم يطقطق عظام قفاه وهو يلوي رأسه ويقول بحسرة:

- لم أفهم كلَّ ما قلتَ... أما عن الكتب التي ذكرتَ فمَن لا يعرف الجاحظ، وقد كانت كُتُبٌ له في مكتبات «الباشوات» إما للزينة

أو التباهي، وامتدت يداي أكثر من مرة لكتاب فأقرؤُه سرًّا، وقرأتُ عن **ابن عربي** ما يكفي المطلع **ويغلب المتنطع**، وهو معروفٌ ومشهود له، والجدال حوله كثير، وقد اختلفوا فيه قديمًا وحديثًا حتى كفَّروا أو عظَّموا، وعندنا في الثقافة العبرية شروح له وترجمات ومذكرات... وكان على دربه نُسَّاك وزُهَّاد يهود، والمبرِّد عالم لغوي جليل... لكن كيف جمعتَ بين علم الهندسة والعلوم الأخرى؟

- لا مجال للتفصيل يا **زخارى...!** دعني أكمل...!

- إيه...! أنا أنصت، وإن كان في قولك ما لا أفهمه أحيانًا، فما منعني ورب الأكوان... من طرح السؤال غير زجرك لي...!

- اعذرني فلساني ما درج على التبسيط، وما عُنِي بقولٍ إلا أرسله كالأنشودة.

- أنا معك... ولن أسألك مرة أخرى وإن لم أفهم...

- خذ يا صاحبي...! بالأسباب والأحداث، وانْأَ بنفسك عن التفاصيل، أليس في التفاصيل يسكن الشيطان كما يُقال...؟!

يهم **زخارى** بالإجابة متململًا في مكانه، مسويًا جلسته على البرميل مخففًا ألم الجلوس الطويل بتعديل الاستواء، وتغيير مركز الضغط، محدثًا ضجة استاء لها **إدريس السوسي** بلمحة استنكار، ومنعه من الحديث بإشارة من يده مرددًا:

- لا يا **زخارى**...**!** سؤالي إقراري وليس طلبًا للإجابة... **دعني** أكمل رجاءً...**!**

يرد عليه **زخارى** منزعجًا:

- يا أخي...**!** أنت مَن تسأل...**!**

يشعر **إدريس السوسي** بالإرهاق والتعب، فيتمطى متثائبًا بخمول، ويمد يده إلى وسادة مهملة من سقط المتاع، يسوي بها مجلسه على الأكياس الصلبة، فيتطاير منها الغبار الخانق، وقد تطلعت من فتق بها أشلاء من صوفها العفن القديم، يتقزز وينفض أمام وجهه بيده عن سحابة الغبار الثقيل، لكن لا بديل له، واسْتُه تعبَت وتنمَّلت، يضغط على صدغيه بأصابعه كي يبدد ألـمًا خفيفًا انتابه، ثم يمد يده وهو يزفر نفسًا عميقًا نحو الطاولة، يصب كأسًا، فتفيض من تشوُّشٍ فكريٍّ غمَرَهُ، يحملق فيه زخارى مستغربًا ويقول:

- ما سبقَ لك أن قمت بهذه المهمة، والليلة حاولت وهذه النتيجة.

- أشعر فقط بالتعب... وددت لو أتوقف، لكن عليَّ أن أُفضي إليك بما أرى مهمًّا.

- دعِ الأمر إلى ليلة أخرى...!

- لا...! لا بد... أن تعرف سر هذا الدفين المدَّعَى عليه، ربما ترى ما لا أرى، وعقلان يفكران خيرٌ من عقل واحد، وأنا في الوقت

ذاته أنوء بثقل الأسرار الحارقة، على الأقل أتحرر من جزء منها علَّني أجد راحةً في البوح.

- تفضل يا أخي...! كلي آذان صاغية إليك، رغم أنني لا أعرف عواقب كل هذا...!

يستأنف إدريس السوسي الحكي متأوِّهًا من حين لآخر:

- المهم...! في المدارس العصرية، فُتحَت أقفالُ عقلي وشُرعت أغلاقُ فكري على عالمٍ جديدٍ ثريٍّ وغنيٍّ، يَبهر العقل ويحفِّز الوجدان بالتحولات العجيبة، وصقلت مرآة روحي بعد ما طالها الصدأ والضجر، فتجدَّدت وانتعشت همتي للتحصيل والتزود من العلوم الحية الحديثة، لما فيها من متعة تحليل ولذَّة كشفٍ مثير وحرية تفكير مقدمة، وقدرة ساحرة على الافتراض والاختلاف دون خلاف ولا خصومة ولا صخب ولا لجاج، ولما فيها من ترسيخ للحق في التوقع والتحقق من الفرضيات والأطروحات بالتجربة الحاسمة والاستقراء والملاحظة، أو الاستنباط العقلي، حتى أتقنتُ أكثرَ من علمٍ من العلوم الدنيوية من شدة شغفي وتمتعي، وأُطلِعت على الفلسفة الغربية، وسحرني العقل الألماني حتى تمنيت لو ولدت ألمانيًّا، ونبغت في اللغتين الإنجليزية والفرنسية أيما نبوغ، وقد سبق أن فَصُح لساني العربي واستقام وتمَّ له المراد في مجالس ودروس البيت قبل التحصيل

العصري، وترسَّخت في زاوية جدي - رحمه الله - عقيدتي مما ينبغي من أصول الشريعة دون الغوص في الفروع، لتعدُّد القضايا فيها والأبواب والمداخل الجدلية، ولضرورة التخصص مع التفرغ لفرعٍ دون آخر، لما يتطلبه من جهد وإلمام بكل علومه، وبرعتُ أكثر في علوم الحياة والفيزياء والتقنيات، حتى أفحمتُ أساتذتي وأثَرْت إعجابهم، من الإنجليز والمصريين والسودانيين، ثم سافرتُ بعزم وهمَّة إلى **إنجلترا** لمتابعة الدراسات الجامعية. وشغفُ الاستزادة من علوم الغرب والارتواء من منابع تفوقه يملأ عليَّ عقلي وقلبي، وإن خشي الأهل عليَّ استلاب العقول، وتلاشي الجذور، وتردَّدوا في البداية، لكنهم ارتضوا ما رضيتُ مُكرَهين بإصراري لا راضين عن قراري.

- يا حظك يا أخي...! زرت لندن... قلب أوروبا...؟!

- دعني أتمم...

- حاضر...

- قبل أن أشد الرحال إلى هناك وعمري آنذاك عشرون سنة ونيف عام ١٩٣٧ دخلتُ على والدتي أمونة الجَعَلية مودعًا وطلبًا للبركة، أمونة التي غدا اسمها «**أمونة السودانية**» هنا وفي بعض المناطق الأخرى، ومِن الناس مَن نسبها إلى عالم الجن والخفاء، وحرَّف اسمها إلى «**ميمونة السودانية**» وسُمِّيت تبركًا بها العين المعروفة هنا حسب زعم «**العالية**»...

- تقصد **السيدة** «العالية»؟

- عندي **العالية** فقط... فلقب «**سيدة**» لا يُطلق إلا على الشريفة، وليست سيدة حتى أمنحها شرفًا لا تستحقه.

- وي... كما ترى... هذا فمي مغلق...

- ألفيتُ والدتي على ديدنها في زاوية من الدار مشرقة كأن النور نور وجهها، ولا أعرف هل المكان مضيء من سراج معلَّق، أم من ضياء وجهها، هادئة مطمئنة بسكينة، منغمسة في أورادها وأدعيتها، كأنها صُرفت صرفًا عن الظاهر مما حوله، فلم يعد الجسد إشارةً على وجودها، ولا نظرها محددًا لوجهتها، وهي التي جادت إجادةَ المنتظر على باب المعشوق علمَ الصمت والشوق، حتى أخذوا منها علم الصمت ولم يكن مشهورًا، بل صادفته تأمُّلًا، وكان في القِدَم مذكورًا، واقتبسوا من جهادها النفسي وإجهادها الجسدي، لكن ما وُفِّقُوا إلى أدنى ارتقاءٍ نوري من صمتها، وكانت لا تصفُ كرامةً، ولا تلمح بعبارة إلى حالٍ أو تذوُّق، عملًا بتربية جدي رحمه الله، الذي علَّم الأتباع والمريدين أن الكرامة أو المشاهدة بسقوط الحُجُب مِنَّة ومكافأة وجزاء على قدر المجاهدة للذات العارفة من الله الواهب، فإن كُشفت النعمة صارت بها الشهوة إلى منزلة التطلع لشهوة من شهوات الدنيا، وتحوَّل بذلك العابد من الله تعالى إلى سواه من

الخلق، وغَوِي غوايةَ الولايةِ أو الرياسة أو الزعامةِ، فحُرم من كرامةٍ تلاشت، ومن أنوار خفتت، وضُيِّق عليه العبور الجديد والنظر المديد الحديد.

- رفقًا بي... أفهم المعنى ولا أقف كثيرًا عند الألفاظ خوفًا أن ينقطع حبل حديثك...

- جيد... يا **زخارى**... خذ المجمل واترك المفصَّل، كما قلتُ... وقفتُ ببابها وانتظرت وقوفًا لا جلوسًا انتظار البارِّ العارف بمكانة صاحبة المقام، بأدب وصمت يليقان بمجلس الأم الورعة الزاهدة حتى تفرغ مما هي فيه، ثم أذنَتْ لي بحُسن الإشارة، فدنوت منها دنوَّ الـمُهَيَّب وإن كانت هي الأم، فجثوتُ على ركبتي صامتًا مقطب الجبين من حياءٍ وتبجيل، فلا أحد يتكلم قبل كلام «**الشيخة**»، وقبل إشارتها حين يحين مقام القول، نظرَتْ إليَّ بحنوٍّ فبرقت عيناها، وتملكَتْها روح الأم العطوف، فكأنها نزلت إليَّ من علوٍّ شاهق إلى أسفل بارق، وما شُغِلت أبدًا عن الله بسواه، فدمعت العينان دُررًا مرصَّعة على الخدين الصافيين على بشرة سوداء بصفاءٍ، تالله ما وجدت أجملَ ولا أبهى من وجهها البهيِّ، ودموعها كالنجوم المتلألئة في الوجه البشوش... ورقَّ قلب الأم العابدة، فحمدت الله، وأثنت عليه حقَّ الثناء، بعذب نبرة، ثم قبَّلَتْ جبيني، وأشارت إلى صندوقٍ بسيط بلا زخرف، يبدو كبيرًا وثقيلًا من خشب قديم، ومدَّت إليَّ

مفتاحًا عتيقًا، وقالت بصوت رقيق خفيض: «في ذاك الصندوق أسراري وأحوالي، وأحوال وأهوال أبيك، فلا تتسرَّع في كشف ما فيه من أسرار حتى تأنس في نفسك الاستعدادَ والعزمَ على السير حتى النهاية، أريدك أن تحرِّر مقامًا ألصق بأبيك من جهل مكين، وادعاء مشين، حين يحل الوعد الصادق، فأنت تعلم فيما تعلم أن أصلك من المغرب الأقصى، وأن أباك سوسي الجذور والأصول، وحُوِّل ضريح مزعوم ببلدة الغرافين إلى مدفن له، وما هو بها دفين كما ادعت امرأةٌ سحرت العقول، وفتنت القلوب، اسمها «العالية» نسجت أسطورة وَهْم وَهَمٍّ، فصارت المغارةُ الفارغةُ إلا من ريح الشقوق قِبلة للجهل والكذب باسم أبيك، وادعتِ الكاذبةُ بهتانًا وهوًى أن روحه فيها تتجلى، ومنه تتلقى الغيبَ والخبرَ والمعنى، وما يعلم الغيبَ الأحياءُ، فكيف يدركه الموتى وهم فناء؟! ووصلني من أخبار متواترةٍ أنها سمَّت عينَ ماءٍ باسمي، وزعمَتْ أنَّ للنبع بركة، وما هو غير ماء جار، تشقق من بين الحجر من كثرة ما شهد الموقع من تفجير ونسف، وادعت أننا نرقد جميعًا بالمغارة، وأني هلكت وأبوك وأنت صبي يوم القصف المشهود، فجعلَتْ ماءَ عينٍ جاريةٍ ماءَ شفاءٍ، وأوعزت ذلك إلى روحي ونوري، وما تُشدُّ الرحال لماءٍ فيه خير وبركة إلا لبئر زمزم، تأذَّت روح أبيك من شَرَكٍ مُبين، فاستغاث في رُؤًى متواترة من أذى الجاهلين

والغافلين وفتنة الدجالين، ولستُ قادرة على الاستجابة وقد أُمِرتُ وغُلبتُ، تقدَّم بي العمر تقدُّمًا يُنهك الجسدَ ويوهن العظم، وحالت المسافات دون العزم والهمَّة، ما قُدِّر لك ستفعله دون خطة ولا تدبير أو تقرير، دع التدبير للخالق القدير، فبيده المصير والتقرير، لكني وضعتك في يَمِّ الأسباب، موجُهُ عاتٍ قويٌّ شديدُ العُبابِ، إن كان هذا هو الطريق نحو الأقدار فامْضِ إلى ما قُدِّر لك نحو المغَلَّق من الأبواب بهمَّة وإصرار، لتكسر أقفالها الصدئة، فتفرج عن الأسرار، وتضيء القلوب والعقول. ستحلُّ بأرضٍ قد تبدو لك أنك لا تعرفها، ولكنها تعرفك بنسائم أبيك «سيدي محمد الحاكي السوسي»، ستهتدي إلى المراد المنشود والمطلوب، وتحصِّل في ورعك همَّة الراغب وشوق المرغوب».

توقف عن الحكي، ونظر صوب **زخارى** الذي لاذ بالصمت حتى خشي إدريس السوسي أن تغلبه غفوةٌ أو سِنة فيكون حكيه كمن يَسرد على الأطرش، فَطِنَ زخارى لصمته، فتثاءب وهو يمد رجليه ليريحهما قائلًا بكسل:

- ما لك صمتَّ...؟!

- ظننتكَ نمتَ...

- وهل ما تحكي يدع للغفوة طريقًا نحو الجفون... إيه... أكمل...! ثم ماذا بعد...؟

يقف **إدريس السوسي**، يُغيِّر مكان جلوسه، يضع خِرقة على آخر درجة من السلم الخشبي، يشهق بقوة، يشعل سيجارة، يصنع من دخانها دوائر ثم يقول متكاسلًا:

- أشاحت عني أمي بوجهها الوضَّاء، وهي تسدل سترها الأخضر المشبك، حتى خشيتُ أن أضيع في ظُلمةٍ بعد أفولها وراء الخدر، وكان محياها هو النور والنسمة والسكينة، أشارت بيدها الدقيقة، دقَّة جسدها النحيف، وطولها النحيل، ثم نطقت بعد ما سوَّت إزارها على كتفيها الصغيرتين الرقيقتين: «**ذاك الصندوق وإن ثقل عليك في كل رحلة، تحمله ولو كنتَ في محنة، فقد يحملك يومًا حين تعزُّ الصحبة والرفقة، ففيه إرث أبيك وعينُ عرفانه وإرثي وأسراري، وما تركتُ لك غير وصية وتكليف بقضية، وصيتي واضحة، لكنها جارية مجرى الأقدار لا الأهواء مع تدبر الأسباب والأنباء، في تحقق الأقدار وصد الأعداء بما فيه تقصِّي الأخبار من إحذار وإنذار، وإن كان لا يدفع الحذرُ القدرَ، فادفع القدَرَ بالقدَرِ، ولا تقعد منتظرًا ولا تتواكل متقاعسًا، ستجد في الصندوق مِن التحصين ما يعصم العقلَ من الزلل، واختصارًا لمسلك عظيم جلل، وموجزًا لمدارك النور وبلسمًا للعِلَل، هي وصية من غنى لا ينضب، وكنز لا يُحصى ولا يُحسَب، فلك الاختيار والقرار حين تعزم العزيمة، ولي الدعاء والانتظار حتى يشتد الوطيس وتكيد المدعية الغريمة**».

يقف **زخارى** يدنو منه ويقاسمه العتبة نفسها جلوسًا على السلم الخشبي، يضع يده على كتفه ويقول باستغراب وذهول:

- كيف تستحضر كل كلامها العميق الموزون؟!

- قوتي في ذاكرتي... وكلام أمي سلس عذب يحفظه قلبي بلا تكلُّف ولا جهد، يقع في قلبي موقعًا جميلًا فيُنقَش على الذاكرة، ويغدو طريًّا في لساني...

- نبوغ هذا إذًا...!!

- ربما نعمة...

- أكمل...!

- قالت الوالدة: «**اسمع يا بني...! لا تكن منكرًا لظاهرٍ في قومٍ ما لم تعرف أحوال باطنهم وتستقصِ أصلَ المقام قبل الأحكام، ولقد رأيتك متعجلًا تستنكر على قومك وطيس «الجذبة» حين تستعر نارها، فيظهر على الناس ما يبدو لك جهلًا وبدعًا، ولقد أبديتَ الرأي مستاءً ولم يَخْفَ ذلك على جدك، اعلم أنه حين تهتز في «الجذبة» الأجساد ويغشاها حال من الأحوال غامر، مما يبدو لك انحرافًا وضلالًا وتخييلًا ووهمًا، فهو غير ذلك مما يُستقصَى علمه من الظاهر، فما توجُّهُ النفوسِ والقلوبِ إلى الله إلا انجذابٌ لأرواحٍ نحو خالقِ الأرواح، وأنْكَرْتَ متعجلًا فيما أنكرتَ تعاليَ الأصواتِ واختلاط الألفاظ واختصار الأوصاف**

في النداء بـ «هو»، واللهِ لو علمتَ مِن حالهم لأشفقت على الأرواح الجريحة العاشقَة، و«هو» في خاطرهم لفظة جامعة لكل الصفات والأنوار، منزهة الله بالحرفين، فنحن نحن لا شيء وهو هو كل شيء، هكذا نطقوها تلبيةً ودعاءً وبهاءً في خفاء، ألا تهتزُّ الأجساد في مجالس الغناء والموسيقا والطرب وتتأوَّه وتئنُّ مِن وقْعِ سماع عبارة عشق أو مِن موقف شجيٍّ لفراقٍ حزين؟! ألا تهتزُّ لإيقاعٍ قويٍّ جميل مع لفظ شفاف جميل أو تعبير رقيق؟! فكيف تستكثر عليهم حضرتهم و«جذبتهم» وما توسَّلوا بغير الله وإن ذكروا صالحًا وليًّا؟! فلو سألتهم مَن الوهاب المعطي لقالوا الله، وما توجهت ويممت القلوب لقِبلة غير وجهة الخالق الرحمن، والعبارة دقيقة مختصرة أوجبها التدفق السريع للأنوار، والعبادة عبادة رقيقة ما شابها شِركٌ ولا حلول ولا اتحاد، والنعمة فيها تعظيم للذات الإلهية، واللذة فيها تجليل لعين الأنوار طه الخاتم، وتعظيم لعين عين الأنوار الخالق المتعالي، لو جاز اهتزاز الأجساد وإقرار غيبوبة الألباب لجاز على الأحقِّيَّة لأهل الله في حضرة الذكر والتنفيس، فإن رأيت في حضراتهم من اهتزاز الأجساد دورانًا كدوران الأفلاكِ، فاعلم أن الجسد الفاني جُبِل على التجاوُب والاستجابة والانجذاب والدوران كالأفلاك في الأعالي، وما نحن إلا في منزلة الفلك في الأكوان، ندور انجذابًا لتناغم الأصوات وفق تناغم الأحوال،

وكل إيقاع منتظم مرتب، هو حبور للروح قبل الجسد، وقد رأيت ذلك في الأفراس وبعض الحيوان، فما بالك بالمخلوق العاقل»!

يتململ زخارى مرة أخرى، وقد أغلق عليه الفهم، وغلبه تدفق المعاني الغزير، فيتنحنح ويقول مضطربًا كمن به العِيُّ:

- الأكوان... الإنسان... صراحةً لم أفهم التشبيه...!

- يا **زخارى** تفصيل المكثَّف من المحال، ومن العبارة ما لا تؤدي المعنى المراد إلا بالتأويل والـتأصيل للفظ في علم الحقيقة...

- زدتَ حيرتي بشرحك الذي يحتاج إلى شرح آخر!!

- تذوَّق يا **زخارى**... وبعقلك ترفق...!

- حاضر...!

- اسمع... هممت أن أعتذر لها عما بُحْتُ به لمن لم يكتم لي سرًّا، وبثَّه إما غيظًا أو استنكارًا عليَّ الطعن في مسلك أجدادي، فوضعَتْ كفها على شفتي، ثم أشاحت مرة أخرى بوجهها عني بعد ما أنعمَتْ عليَّ بابتسامة الرضا التي هي منتهى آمالي في هذا الموقف، وغابت لتُشرق في مقام آخر، وانغمسَتْ فيما كانت عليه، وانقطعَتْ عمّا حولها حسًّا ونظرًا، وعادت إلى حالها المعهود، لا أدري في أي مقام هي، وعلمي بالمقامات محدود، وما حظيت منه إلا بما سمعت خلسةً وحكايةً، فكما نزلَتْ من

علوٍّ شاهق صعدت صعودًا مشرقًا هادئًا، فلم تعد تراني، كأن ما حولها صار وهمًا أو ظِلالًا أو فناءً أطلالًا، وانشغل القلب فيها والروح بمصدر النور.

دمعت عينا **زخارى** بحرقة غريبة، وقد تأثر بالموقف القوي أشد تأثير، حتى أجهش بالبكاء كطفل صغير، وتملكَتْه رجفة غالبة كمن به حمى طاغية من رقة في وجدان، فصرخ منتحبًا وهو يجفف الدمع المنهمر بكُمَّيْ جلبابه:

- رجاءً... لا تُضِف شيئًا...! رجاءً... لم أعد أحتمل... أستحلفك بالله، بروح أمك ونور أبيك، لا تفتح لي البوابة بمصراعيها، إنَّ من البوح الشديد الثقيل ما يُرهق السامع أكثرَ من الناطق.

شدَّ إدريس السوسي رأسه بين يديه مطرقًا الجبين، وهَنَّ هنين العليل ثم أجهش في البكاء حتى أثار الشفقةَ في قلب **زخارى** الذي دنا منه يواسيه مستغربًا قائلًا بحزن:

- ما يبكيك يا صاحبي...؟!

يرفع بصره نحوه ويضمُّه منتحبًا مرددًا:

- يا زخارى...أشعر بالحسرة والألم يفتتان قلبي المنفطر... ما كان عليَّ ذِكْر أمي وأحوالها النورانية في مقام سُكْر... ما كان عليَّ أن أستحضر البهاء في حمأة الفناء...!

يُربِّت **زخارى** على كتفيه قائلًا بحنو وبصوت خفيض:

لا عليكَ...! خفِّف عن نفسك... توقفنا عن السُّكْر... وأبعدتُ القنينة وأشعلتُ بخورًا طيبًا...

تهب ريح بغتةً، فتسري كخيط دخانٍ وتعبر نحو القبو، ينطفئ القنديل، يعمُّ الظلام الدامس إلا من بصيص ضوء يسافر بوهن من الصالة، ويخيم صمت حزين لا يكسره سوى زحير زخارى وأنفاس إدريس السوسي.

٦

أطلَّت شمس شهر فبراير الحائرة بين السحب الحالمة، بأشعتها الخاطفة الخجول الـمُغرية، وخفَّت الأمطار الجامحة التي أقعدت الناس في البيوت مدةً طويلةً، وقلَّ وابلها وإن لم يخفُتْ رذاذها، واعتدل الجو قبل الربيع المنشود في مفارقات غريبة لتواتر الفصول، مما أنعش النفوس، ودبَّ فيها دفء وسرى بين الضلوع، وقد افتُقِد لأيامٍ ماطرةٍ مثلجة كئيبة طويلة، وبدت الدور والمباني والمروج والمراعي، تجفِّف ما علق بأديمها وصعيدها وحيطانها وسقوفها من رطوبةٍ بما يصلها من أشعة الشمس العطوف، وبنشاطٍ غامر تعلن الطيور بأشكالها عن بهجتها الغريزية من توهُّج ضوء الشمس حين يخترق مشاكسة حُجُب السحاب، فالتقطت بنشاط وحبور هذا الضياء شذوًا، واحتضنت الأزهار المبكرة قبل موعدها الدفءَ شدوًا، وضجَّتِ الدروب بصخب الأطفال لهوًا، واسترجعت عتبات الدور والبيوت حياتها بهرج النساء لغوًا.

ذابت الثلوج التي غطَّت الدروب والمسالك، وسالت مياه ما فتئت الأرض تمتصها امتصاصًا، وتسافر بها الروافد والمجاري إلى أن تلقى أحضان وادي «**أم الشتا**» أعراسًا من خرير وصليل وهدير، وكان الوادي رحيمًا قنوعًا، فلم يتجاوز في رحلته سريره العميق، ولم يفِضْ

مدمِّرًا كاسحًا، وإن خشي الناس منه فيضانًا يهدم البيوت والبنايات التي انتصبت على ضفتيه.

منذ أسابيع تخلَّف **إدريس السوسي** عن عادته في زيارة الخَمَّارة، أشرقت الشمس وأفَلَ هو، وقد كان في سفرٍ إلى مدينة **فاس** لأسبوع أو أكثر، لكنه حين عاد لم يُعرِّج على الخمارة كالعادة، حتى انشغل بالأمر **زخارى** وقلق عليه قلقًا شديدًا، وتوجَّس شرًّا قد يطال صاحبه وهو منعزل السكن في «**تل الريح**» النائي القصي الموحش عن البلدة.

تغلق الخمارة عند غروب يوم الجمعة ويوم السبت كله، كان **زخارى** يتعاطى مع تَدَيُّن زوجته «**شاميرا**» بإيجابية وإن كان مُكرَهًا، وجد نفسه محاصرًا ليلة الجمعة بين جدران بيته تكاد تخنقه، وليس له ما يفعل غير انتظار الطقوس وطعام التقديس لـ «**الشباط**»، تغمره كآبة غريبة عميقة، تُعمِّق إحساسه بالفراغ القاتل، وكان شأنه عند كل غروب أن يقاوم الإحساس بالحزن والغربة - اللذَيْن لا يعرف لهما سببًا واضحًا من أسباب الحياة، غير تأثير هذه المدة الزمنية الفاصلة بين الليل والنهار في نفسه أسًى واكتئابًا - بالكدح والحركة الشاقَّيْن في الخمارة، كنقل البراميل الثقيلة، والقيام بالأعمال مهما كانت شاقَّة، والسرُّ فيها أنها مُلهِية مُسلِّية، حتى تتلاشى أكباد الأصيل، ويتضح الليل اتضاحًا، لذا كان يفضل العمل طوال أيام الأسبوع، حتى لا يجد نفسَه في اللحظة الكئيبة في عطالة تُعمِّق هذا الشعور، لكن الزوجة «**شاميرا**» ترى أن السبت المقدَّس هو السبت، والطقوس لا بدَّ منها بأدقِّ تفاصيلها.

استلقى بداره على مفرشة أرضية مكسوة باللِّبْد واضعًا رجلًا على رجل، وأسند رأسه إلى وسادة عالية، وسرح بعقله بعيدًا، يقلِّب عدة قضايا ويُمحِّصها بتأمُّل، وقد تناسلت في نفسه الأسئلة الحارقة، حول مصير صاحبه **إدريس السوسي** الذي لم يظهر له أثر منذ مدة ولم يُسمَع عنه خبرٌ، كانت «**شاميرا**» في المطبخ تعد الوجبة الاحتفالية لليلة السبت، وتنبَّهت لعدم وجود الخمر الذي هو ضروري في هذه الليلة، حيث يتم تقديسه وطلب البركة على الخبز، فنزلت إلى الخمارة لتحضر قنينة نبيذ، وكانت **فاريديا** تطرز ثوبًا تحت ضوء السراج المتوهج، وترمق من حين لآخر والدها الذي بدا حزينًا، قلِقًا مهمومًا، تصدر عنه من حين لآخر أنفاس عميقة، ويتقلب في مجلسه، كأنه غير مرتاح لأي وضعية، وطافت بخاطره أفكار مؤلمة أشعلت فتيل الجزع في صدره «ماذا لو قتله الأوغاد...؟! ماذا لو كان الآن ميتًا... جثة عفنة متحللة...؟! ماذا لو ترصَّده «الذئب» وثعالبه في ذاك التل اللعين المخيف، المقطوع عن الأسماع والأبصار، ومن المستحيل أن تُسمع فيه صيحة استغاثة أو طلب نجدة...»؟!

انتفض جسده من الذعر وهو يستحضر خيالًا وتوهُّمًا جثةَ صاحبه متحللة في مشهد دموي هز روعه، وفطر قلبه، فصرخ دون إرادة منه وهو جاث على ركبتيه: «لا...! لا...! يا رب الأكوان...! أتوسل إليك... ارحمه! أتوسل إليك...! ارحمه من شر الإنسان...». اضطربت «**شاميرا**» من صراخه الحادِّ، وقد وصلها صداه وهي على

السلم، فأسقطت قنينة النبيذ، ودوى صوت مجلجل قوي اهتزت له **فاريديا** جزعًا وارتعشت فرائصها، وتطايرت الشظايا، فهرعت مهرولة وهي تقفز على الأدراج صاعدة من الخمارة، و**فاريديا** تردد بقلق وخوف: «خيرًا...! يا أبي...! ما بك...!؟» ويلطم الرجل فخذيه وهو ينتحب: «إيه...! إيه...! يا فاريديا...! فرطنا في الرجل... ربما فات الأوان، ربما الآن المسكين إدريس السوسي هو في عداد الموتى، وجثة عفنة... آه...!... آه...! فليس من عادته ألا يأتي للخمارة، لا خبر عن صاحبي... يا رب الأكوان...! يا رب...»!

ولولت الفتاة ولطمت صدرها، وكانت تكِنُّ **لإدريس السوسي** حبًّا دفينًا خفيًّا غير معلن، فصرخت منتحبة منفطرة القلب: «لا تقل هذا يا أبي...! أرجوك لا تقل هذا...! ربما... ربما... هو في سفر...! نعم حتمًا هو في سفر، أو استقر في السكن الجماعي للمنجم...».

ما هَمَّ «**شاميرا**» بؤسُ الموقف وانفطار قلب الفتاة، وانزعاج الزوج بقدر ما أثار حفيظتها ولولة الفتاة، فجرَّتها من شعرها بعنف متنمِّرة مزمجرةً، وصرخت في وجهها: «تولولين...! يا تربية أبيها...! هل هو أبوك...؟ أحد من أقاربك...؟ يقرب لك بأي قرابة يا خرقاء...»؟! يحدجها **زخارى** بنظرات قاسية غاضبة حادة، وقد رأت عينيه تقدحان بالشرر، فتُفلت الفتاةَ من يديها، ومن غيظ الرجل رماها بالمرمدة، فتناثر الرماد في الهواء، وكال لها من الشتائم والسباب ما أخافها وألجم لسانها وكبح تسلُّطها، فلاذت بالصمت فزعًا وهي تحملق فيه من الذهول.

انتصب واقفًا وقد عصفت به عاصفة الغضب، حتى لتكاد تزيغه عن جادة الصواب قولًا وفعلًا، فوضع جلبابه على كتفه الأيسر وجسده يهتز، وعضلات وجهه تتقلص، وأوداجه تنتفخ، من زفير وشهيق قويَّيْن، وقصد الأدراج نحو الخارج مغمغمًا وهو يزحر، وقد ضاقت أنفاسه غيظًا يضطرم في صدره درجة الاختناق.

في الخارج، توقف أمام الباب يضرب كفًّا بكفٍّ، ويذرع المكان بعصبية وبخُطًا متتابعة جيئةً وذهابًا، شارد الذهن، وقد شبَّك يديه وراء ظهره، ويُبِيد السيجارة تلو الأخرى بشراهة، وما أخرجه غير تجنُّبه أن يركبه ركبًا لا يشد له عنان غضبه الشديد، فيعمد إلى ما لا تُحمد عقباه، فينكص على عقبيه نادمًا. راودته فكرة جريئة وهي الذهاب إلى «**تل الريح**»، ولو أن المكان منعزل موحش مخيف، فظيع الشهرة، شنيع السمعة، للكشف عن الحقيقة مهما كانت مرة ومعرفة ما جرى، ليجد سبيلًا للراحة والسكينة، لكنه تردَّد خوفًا من ذاك المكان المخيف الرهيب، ففكر لحظة وتذكر أنه لمح «**سي حمو**» ولد «**سليمان الغاشي**» يجول في شعاب البلدة، وسمع أنه ما زال في زيارة لأهله عائدًا لمدة من مدينة **فاس**، فقرر أن يقصد بيته، ويعرض عليه مخاوفه، ويبسط بين يديه ما عَلِم من أسرار، وليكن ما يكون، فإن صدَّه قبل عذره، وإن استمع له شكر فضله، فزيارة الناس ليلًا في هذه البلدة نادرة إلى منعدمة، ولا تكون إلا لنعي أو استنفار.

طرق الباب الكبير في لجة الظلام، بقلق وريبة مما ينتظره، متوقعًا

الأسوأ، غير فاقد الرجاء، لكنه آمل في تفهُّم أهل البيت حاجته الملحة، وخصوصًا «سي حمو» الذي كان حليمًا رحيمًا، قليل الغضب، يجنح للسلم مهما احتدت الخصومة، أو استعر جدال وشجار.

بعد حين تفتح خادمة سمينة منفوشة الشعر البوابة الكبيرة لدار سليمان الغاشي، مفرجة فرجة ضيقة، تسلط ضوء السراج على وجه **زخارى** لتميز ملامحه، ثم توسع فرجة الباب وهي تقول بقلق فاركة بيد عينيها من كسل:

- من...؟ **زكريا**...! ما الذي أتى بك في هذا الوقت...؟! هل وقع شيء... لسميرة... أو لفريدة...؟!

- لا...! خيرًا... اطمئني يا السعدية...! خيرًا...

ارتفع صوت في الأرجاء غليظ النبرة جهوري بدون افتعال ولا تكلُّف، قفزت الخادمة القصيرة مذعورةً:

- مَن... يا السعدية...؟!

مضطربة ترد بارتباك وقلق:

- هذا زكريا... صاحب الخمارة، والد سميرة... يا **سيدي سليمان**...!

حين يصل **سليمان الغاشي** يسبقه ضوء سراج كبير، يصرف الخادمة توًّا وهو يتعقَّب عجيزتها، زاجرًا مُكَرِّشًا بدون سبب ظاهر، فيدق قلب **زخارى** بسرعة، وتكاد أنفاسه تنقطع وهو يرى المسكينة

تُسرع الخطا بفزع نحو الداخل، فيدنو منه سليمان الغاشي حثيثًا بوجهه الدائري الممتلئ لحمًا والذي تغزوه ثآليل متعددة، وجبهته العريضة الناتئة العظام، وجسمه السمين المكتنز في قصر، وبعينيه الضيقتين، وكان عظيم البطن، مرتخي الشفة السفلى، يعقد عروة الحزام الخيطي لسرواله المهلهل قائلًا وأصابعه لا تنفكُّ تخلل لحيته القرنفلية اللون من خضاب الحناء، المرتبة بعناية ملحوظة والممشوطة:

- إيه...! يا لطيف...! ماذا تريد في هذا الوقت؟ خيرًا يا زخارى...!

- خيرًا... يا سيدي! فقط أريد أن أرى «سي حمو»...

- «سي حمو»؟! لماذا؟ ما من شيء يجمعكما، ولا أرى أن هناك ما تشتركان فيه من هموم الدنيا ولا الآخرة...!

- أتوسَّل إليك... أريد رؤيته... أطال الله عمرك...

- حاضر...! حاضر...! أين أنت يا السعدية...؟

تهرع الخادمة إلى سيدها وقد أوشكت أن تكبو، فأفلتت السراج، ثم نهضت بمشقة على صوت **سليمان الغاشي** الغاضب:

- يا خرقاء...! ماذا فعلتِ...؟

مضطربة أربكها الخوف تردُّ بتلعثم وهي تحاول إشعال السراج بأصابع مرتعشة:

- لا... شيء... سيدي... خيرًا سيدي...

- ومن أين يأتي الخير يا وجه النحس...! اذهبي نادي على سيدك حمو... أسرعي يا خرقاء...! اذهبي وأخبري سيدك أن زخارى... أو زكريا والله... لا أعلم...

يقاطعه زخارى مبتسمًا وهو يفرك يديه:

- زكريا سيدي سليمان... زكريا... أو زخارى لا عيب... زكريا اسم أنتم اخترتموه لي، فرضيتُ به وألفتُه...

- لا يهم يا زخارى...! أنت واحد منا، ولك ما لنا وعليك ما علينا، فقط أهل البلدة يصعب عليهم نطق أسمائكم اليهودية، فيميلون إلى شبيهتها بالعربية...

- لا عيب...! فزخارى تعني زكريا يا سيدي سليمان... وقد أطلقه علي «سي حمو» بعد ما أفهمته معنى اسمي العبري...

- أوه...! نسينا... ولم نقُم معك بالواجب... ادخل لنحتسي كأس شاي، وهناك على النار «طاجن» بلحم العجل والجزر الطري واللفت الطازج ينتظرك... يا رجل...!

- شكرًا لسخائك... في مناسبة أخرى...

- نسيت اليوم ليلة السبت، وأنتم لا تأكلون إلا ذبيحتكم...

- هم... هم... يا «**سيدي سليمان**»... «**شاميرا**» وأمثالها، أما أنا فلا مشكلة عندي، فقط الموضوع مُلِحٌّ وعاجلٌ، والوقت ضيق...

بعد لحظات ينزل «**حمو**» معلنًا عن نفسه بنحنحةٍ وهو يُسوِّي بُرنسه البني، ويتحقق من وضعية طربوشه الأحمر، يُقبِّل يد والده ويُسلم على **زخارى** مبتسمًا:

- السلام عليكم... خيرًا يا زكريا...! أتريدني؟

دنا نحوه بعد ما انسحب الأب وهمس في أذنه:

- شالوم... أريدك على انفراد، عندي لك سر خطير يهم البلدة...

- قل السلام يا زكريا!

- شالوم هو السلام سيدي...

متبرِّمًا بضجر يلوح له بيده:

- خيرًا يا زكريا...! الخبر المهم عندي يوم تغلق تلك الخمارة اللعينة التي أفسدت أخلاق الناس...

محرجًا تدور عيناه في محجريهما يرد عليه مرتبكًا:

- الكل بمشيئة الرب... نعم يومًا ما... والآن أنا في حاجة إليك يا سيد الرجال...

يخطو «سي حمو» خارجًا وقد استعجله زخارى، وهو يكنس الفضاء الخارجي بعينيه، وتتأرجح بين أصابعه السبحة، ثم يصيح وهو يحدج زخارى بنظرات السخط:

- بمشيئة الرب... نعم... هذا ما تجيد قوله كي تتهرب كغيرك من المسؤولية...

- أليس كل أمر بإرادته؟!

- ﴿إِنَّ اللهَّ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾... ولولا أن لك حقًّا علينا يضمنه الدين ما كلمتك ولا سمعت منك، لكن ماذا أفعل؟ الحقوق حقوق... لو فتحت الخمارة لغير المسلمين ما سألناك ولا استنكرنا عليك الأمر... فهذا حقك... لكن أن يَلِجَهَا المسلمون علانية فتلك مفسدة كبرى للأخلاق... وهذا سبب سخطي عليك وعلى شاميرا وفاريديا... أمر لا يُقبل... دعنا من هذا الآن...! لنذهب... أغلقي الباب يا السعدية...! تعال...! توكلنا على الله...

يخطوان بعيدًا، يحض «سي حمو» زكريا على القول:

- إيه...! ما الأمر يا زكريا...؟!

- الحديث طويل... ولا بد من مكان دافئ يا «**سي حمو**»...

- لنذهب عند مغارة **سيدي الفراش،** فحارسها ضرير، ولا تخبو له نار...

فكر زخارى مليًّا، لكن «سي حمو» لم يدع له الخيار وهو يتقدم مسرع الخطا نحو المنحدر، فاقتفى أثره بصمت مدلفًا ثقيل السير قصير الخطو.

سلكا الطريق المسلكي الرملي الضيق، صعودًا نحو المغارة وكان مظلمًا مقفرًا، لكن الحركة لم تنقطع فيه، من زوار متأخرين، وجنود ساهرين رفقة بغايا، تبرم منهم سي حمو وعبَّر عن سخطه مستغفرًا

ومُحَوْقِلًا، لم تكن لهما من بوصلة ولا سراج غير النار المتوهجة التي يشعلها «**البرق**» الحارس الضرير، وخرائط الموقع في ذاكرة «**حمو**» من ماضي الطفولة، يَمَّما نحو مغارة **سيدي الفراش**، وقد كان بوُدِّ **زخارى** أن يذهبا إلى مكان آخر غير جهة المغارة، لكنه سار وراءه مكرهًا دون أن يعترض أو يُبدي أدنى وجهة نظر، والحقيقة أن الناس في هذه البلدة إن أرادوا الحديث سرًّا ليلًا لاذوا بمحيط المغارة، طلبًا للبركة في حالة استنفار أو للتشاور، وكانت منغرسةً على منحدر شاهق كثيرة الصخور والجلاميد والأحراش.

«**حمو**» في أوج عنفوانه وتفتُّحه أو كما يناديه أهل البلدة احترامًا لعلمه «سي حمو» في العشرين ونيف من عمره، طيب العشرة، وحلو المنطق، غير صخَّاب ولا شتَّام، يصدُّ جهل الجاهلين المتنطعين الصاخبين صمتًا وحكمة، وبابتسامة عن قُدرة، وبحِلم وبسمة، مع دعاءٍ وحوقلةٍ وحسبلةٍ أو استعاذةٍ من الشيطان الرجيم.

ويُعرَف ما بين أقرانه بقِصَر القامة دون عيب، وقوة البنية دون سِمنة، وكان خفيف اللحية، أجمَّها شعيرات كثيفة تفرقت على الذقن، ممتلئ اللحم دون بدانة، عريضَ الجبهة، ضيق العينين، مقرون الحاجبين، منزلق الأنف في استقامة ورقة، حليق الرأس دون قرع، يغطيه بطربوش أحمر مغربي زينةً وتميزًا، وانتماءً لفخر تليد لأهل **جامعة القرويين** التليدة، وينتعل نعلين من جلدٍ وحاشيتين حول الكعبين تثبتهما إلى الكاحلين، وبخيوط وسيور تشدهما شدًّا فيلتصقان ولا

ينفلتان عن القدمين عند الحركة السريعة، خلافًا لزخارى الذي كان مضطرًّا من لحظةٍ إلى أخرى إلى الوقوف، والالتفات وراءه مؤمنًا ظهره في هذا الليل البهيم الذي عزَّ فيه القمر وافتقد ضوء النجوم، لينفض نعليه، اللذَيْن كانا بدون خيوط ولا سيور، وليفرغ ما علق بداخلهما من الحصى والأتربة.

اشتد الإعياء بزخارى حتى تثاقلت خطاه، مما أبطأ المسير، وغدا عسيرًا عليه، فطفق «سي حمو» ينتظره من حين لآخر، ويحثه حثًّا على الصبر والعجلة، ويمد له يده عونًا ليساعده على صعود عقبة، أو تجاوز بقعة أرض مختلطة الحجارة والحشائش، وكان يعوق حركتَه ألـمُه المزمن في حوض ظهره، وضيق تنفسه الشديد كمن يصارع نوبةَ ربوٍ، وهكذا كانت عادته المسكين عند المسير الطويل، يُسمع منه الصفير والزحير.

حين اتخذا من حجارة عظيمة عبلاء أرضيَّةً للجلوس، على بُعد أمتار من المغارة، أحسَّ **زخارى** ببرودة تسري في ردفيه، وكان لم يَرْتَدِ بعدُ جلبابه، فاتخذه فرشًا على الحجر البارد، وكان يرتجف رجفاتٍ تصطك اصطكاكًا فاضحًا لها رُكبتاه، وظلَّ «سي حمو» يتفرَّس فيه، متسائلًا عن سبب قفقفة الرجل أهي من رعشة بردٍ أم من رجفة خوفٍ؟ والحقيقة أن الخوف بين ضلوع الرجل يسري تهيُّبًا ورهبةً من المكان الذي لم يسبق له أن زاره، وتوجُّسًا من الحارس الضرير المسمى «**البرق**» المنعزل عن البلدة وأجوائها، وقد حيكت حوله الأساطير والخرافات

وأُلصقت بشخصيته عدة حكايات غريبة، وكان «البرق» حارسُ المغارة كثُّ الشعر أشعثه، يعلو وجهه وخَلَقَان ثيابه الغبار والأدران، فقَلَّما يغتسل، وقيل إنه لا يصوم، ولا يُقلِّم أظافره، ولا يقص شعره، فَيُصَاب الناظر إليه بالفزع، وقد غطَّت وجهَه لحيةٌ شعواء كثَّة متسخة، ويرتدي ما يرمي به الزوار على جنبات العين من سقط المتاع أسمالًا تضيق بها بنيته القوية، ومنكباه العريضان، وقيل ادعاءً عليه إنه متزوج من جنيَّةٍ تمنع عليه الزينة والاغتسال، وهو محبوس عندها هنا لا يحق له مغادرة المكان، وقيل إن «**العالية**» جاءها مريضًا عليلًا لدارها في غابر زمن طلبًا للشفاء، فاستعصى الدواء، فأخذته إلى باب المغارة، فنسيته ونسي نفسه حتى صار ما هو عليه، وغدا حارسًا للمكان، يَطْعَم من الصدقات والعطايا، وهو أذن سيدة البلدة، يلتقط لها ما يسمع محكمًا أحسن من خبر راءٍ، يجمع الخبر باللمحة والتجسس والتحسس.

كانت له أطوار وحالات غريبة مريبة، يُكلِّم ما لا يرى، ويُخاطِب ما يراه هو نفسه فقط دون غيره، ولو علموا أن العزلة الشديدة الطويلة قاسية قد تدفع النفوس الضعيفة إلى الجنون أو الهلوسات، وتدفع المختلي إلى مخاطبة نفسه ضجرًا وأحيانًا مراوغةً لِطائفِ خوفٍ عابر في الخاطر، واستحضارًا لما يصلح للمخاطبة والحديث من خياله أو من ذكرياته، لتفهَّموا ما يبدو جنونًا من الرجل، وما يصدر عن أفعاله من غرابة وعجب، وما الأمر على حقيقته إلا ألفة من ذكرى، أو أُنس بما مضى، أو حديث النفس للنفس، لكن بصوت مسموع، وقد

يركبه حالٌ فيصرخ: «ما زلت أسمع حديث أمونة لطفلها، وتصلني ضحكات الصغير، وأدعية الشيخ الكبير».

وما كذب الرجل... لكن ترسخت في عقله ووجدانه عبر السنوات حكاية وجود الدفين وأهله وهو مصدق مؤمن، والعقل على ما اعتاد واستوعب بفعل التكرار، فينتج خيالًا من سمع وهمس، ومن رُؤًى وهمية تتجلَّى حقيقةً، استوحاها العقل مما يجول في الخاطر، من خوف سائد واعتقاد راسخ أو إيحاء مسيطر.

طفق «سي حمو» وزخارى يفركان أياديهما ثم يبسطان الأكف على مقربة من اللهب، ويسحبانها بين الفَيْنة والأخرى، وبدا «**البرق**»، في مكانه متجهمًا عبوسًا، ثابت الملامح والتعابير، كالصنم لا تبدو عليه حركة، وهو مدثِّر بدثار من وبر، وجالس على فرشة متسخة، اسودت من تراكم تراب وتعاقب غبار، تحت سقيفة طبيعية من حجارة ناتئة مشرئبَّة ونبات اللبلاب، ولا صوت غير حسيس النار، يختلط وصرير الجنادب، ونعيق الغربان، ونقيق الضفادع، ونباح الكلاب المتقطع، وحنين وزفزفة الريح.

لم يكن للمغارة مدخل غير ممرٍّ ضيق بين الحجارة المتراكبة التي تراكمت على مدخلها فأغلقت أكبر منافذها، ومن فوهة ضيقة يشع نور باهت مما يضعه الزوار من شموع، وقد انتشرت روائح عفنة نتنة، من آثار أبخرة قوية، وبقايا أشلاء للذبائح وما تراكم من دم متخثرٍ

قانٍ وجلودٍ عطنة، وتنبع مياه «**عين أمونة**» من بين الحجارة أعلاها، متدفقةً تجري مجرى الحجارة بين الصدوع والشقوق، وتصبُّ في منحدَر صوب حفرة عميقة، تغطيها أشجار التين، وقد ربطت على أغصانها مناديل كثيرة وثياب داخلية مختلفة الألوان والأشكال وتمائم وتعويذات متعددة. سمع الحارس الضرير هسيسًا وحثيث خطوات، فصاح بصوت جهوري:

- إيه... مَن...؟ مَن...؟

يرد عليه «سي حمو»:

- أنا «حمو» ولد **سليمان الغاشي**... ومعي زكريا...

- إيه...! «سي حمو» **ولد بوناكا**... ومعك... زكريا...؟ زخارى؟!؟ عجبًا...! ما جمع الفقيه والساقي...؟! زخارى... ما عهدته يزور مغارة سيدي الفراش، ولم أسمع يومًا أنه فعل ذلك!!

- لا تكثر من الكلام! جاء مرافقًا لي فالطريق موحشة، ولم نأتِ زائرين.

- لا بأس...!

رد عليه بغضب «سي حمو»:

- اسكت...! لا ننتظر مباركتك ولا إذنك.

- لم أقل عيبًا... يا سي حمو... لم أقصد... لا تتعصب يا رجل...!

- أوه...! صرتَ ناصحًا الآن...!

- صحتك يا فقيه...! لا تتوتر...!

- صرتَ طبيبًا أيضًا...!

- إيه...! ماذا قلت ليغضبك يا فقيه...؟!

- قلتُ: اصمت...! يا أخرق...!

- ما عهدناك ساخرًا ولا شتَّامًا... يا «**سي حمو**»...!

- «الله يخليك» نحن في شأن عظيم يلهينا عن كل حديث... سامحني إن بدر مني ما أساء إليك.!

- الله هو المسامح...

- عذرًا...

يلوذ «**البرق**» بالصمت، مكتفيًا راضيًا باعتذار الرجل، وكان على قلة كلامه إن نطق أسكتَ وأفحَمَ، وإن صمت أربك وألجم، وما وَدَّ الليلة غير تجاذب أطراف حديث مؤنس، صام عنه مرغمًا في هذا المكان الموحش، ومن كثرة صمته في هذا الخلاء، غدا يَنشُد الكلام ولو في خواء هباء، دون حاجة ولا طلب، ولا نداء مُلِح ولا دعوة على عجل، وعاد بعد صمت لحظات يهمهم لا يستبين منه لفظ ببعض الكلمات،

ثم انتفض فجأةً من جديد منتصبًا كالعمود صائحًا:

- مَن...؟ مَن...؟

ضجر منه «سي حمو» فلم يرد عليه، وظل يحدجه باستياء، ظنًّا منه أنه هو المنشود بالسؤال، ولو كان الضرير يبصر لصمت مما سيرى من حنق في عيني «سي حمو». لم يَتَلَقَّ «**البرق**» الجواب، فأرهف السمع إرهافًا وهو يشرئبُّ برأسه، ثم قال كمن يكلم نفسه ضاحكًا: «هيه...! هيه...! هذه خطوات حيوان ضعيف شريد وطريد، منبوذ كحالي بلا رفيق ولا صديق، حتمًا هو كلب به ضمور وضعف، يدل على ذلك وقع الخطوات، لِنُحول الجسم الهزيل، ولضعف قوة من جوع شديد، وما هكذا يكون الخطو عند السليم الصحيح من الكلاب ولو بالأخفاف، فقد تباعدت وخفَّت الخطوات وقعًا وأثرًا في السمع، لعدم انتظام حركة قائمتيه الخلفيتين، من أذى معلوم أو كسر أو جرح عميق، وهو جريح يعرج حتمًا...».

بعد لحظات خرج من بين الأحراج كلب يجرُّ قائمته اليسرى الخلفية المجروحة، ويئنُّ من الألم أنينًا يقطع القلب، دنا من «**البرق**»، فربَّت على رأسه، وصار يتلمَّس قوائمه حتى اهتدى إلى مكان الجرح، ثم نزع شوكة حتى هر الكلب وكشر عن أنيابه دون أن يعض الحارس الضرير الذي أتى بعُشبة ودقَّها بين حجرين، وخلطها بتراب لزج من مجرى العين الأرضي، ووضعها على جرح الكلب الذي اطمأن، وهو

يحدثه برقة كحديثه للبشر، فضمَّد الجرح بقطعة من قماش، والكلب مستسلم هادئ هذه المرة، حتى إذا ما انتهى من الأمر، وضع أمامه قطعةَ رغيف، وهو يردد بحسرة: «عذرًا...! يا صديقي...! ليس معي الليلة إلا الخبز... لو جئتنا غير الليلة لوجدت عندنا ما يرضيك... على كل حال مدبرها حكيم...». ربض الكلب قرب النار... وغفا.

ابتسم «سي حمو» مغتبطًا مما شهد وسمع وقال: «أسمعتَ... منطقه فيما قال...؟! هي خبرة الضرير في التعرف على الوجود تمييزًا سمعًا، وما ضمرت حاسة حتى تقَوَّتْ لأجل التوازن بفضل الله ونعمته حاسةٌ أخرى، واكتسب الأعمى علمًا جديدًا يَبهر الأسوياء، سبحان العادل حتى في البلاء والابتلاء...! أرأيت... يا **زكريا**...؟! الخير فطرة في النفس الإنسانية، فما دفع «البرق»، وهو البئيس المعدم، والضرير المملق، الذي لا يملك قوت يومه للقيام بما قام إلا رحمة في قلبه، زرعها الله في الجنان... سبحان الله...! والآن قل لي ما الأمر...؟!

تردَّد **زخارى** وتلكَّأ في الرد، وتملكته الحيرة، كأنه ندم على قدومه وإقدامه على ما فعل اليوم، وتمنى لو كان بإمكانه التراجع، ففرك يديه، وسوى طاقيته على عادته كلما توتر، وظل صامتًا، حتى انفعل لذلك «**سي حمو**» وحضَّه على الكلام ناهرًا زاجرًا:

- إيه...! يا زكريا...! هل سنمضي الليل كله هنا...؟! تكلم... يا رجل...»!

ما انفك **زخارى** يفرك يديه يرد عليه بنحنحة:

- نعم...! «آلْفقيه»...! سأحكي لك...».

- احْكِ يا رجل...!

- أتعرف رجلًا اسمه **إدريس السوسي**؟

أطرق «سي حمو» رأسه يفكر مليًّا، ثم قال:

- إدريس السوسي؟ نعم...! ذاك الرجل الذي يعمل في المنجم... والذي له حكاية مع «**العالية**» و«الذئب»... لعنهما الله معًا...

- لقد حكى لي حكاية غريبة...

- ماذا قال؟!

- لقد قال... قال... ق... ا... ل...

- ماذا قال يا زكريا...؟! لا أتحمَّل ترددك هذا...

- لن تصدق ماذا قال؟!

- قل...! انطق... يا زكريا...! لا يهمك أَأُصدق أم لا...

- قال... ق... ا... ل... إنه...

- تكلَّمْ يا رجل...! أوه...!

- قال إنه... ابن **سيدي الفراش**...

سُقط في يد «سي حمو» من الذهول والدهش الشديدين:

- تقول... سيدي الفراش رحمه الله... كلنا نعرف أنه دفين هذه المغارة وزوجته الزاهدة أمونة السودانية وابنهما رحمة الله على الجميع... هل هو ابن له من زوجة أخرى لا نعرفها؟!

لطم **زخارى** خديه وهو يقول بحسرة:

- لا...يا ليتني لم أعرف!

- تلطم كالنساء... تكلم يا أخي...!

- يا ويلي... بل يقول إنه **إدريس السوسي** ابنه الوحيد... ويقول إن المغارة ما بها من دفين وإنه هو ابنه الذي هرب مع أمه أمونة إلى السودان، وإن هذا الضريح كذبة كبرى.

- ماذا تقول...؟!

- أقول ما قال والله...! بلا زيادة ولا نقصان، وإن كلامه كالعسل، فيه سحر يخلب العقول، ولو سمعت من كلامه، لذقتَ ما ذقتُ من حلاوة، وهو صوفي...

- يا رجل...! صوفي ويشرب الخمر... وتارك الصلاة...؟!!

- هذا ما خفت منه... أن تقول هذا... والله إنه صوفي...

- ما سمعتُ مثل هذا إلا عن طائفتَيْن محسوبتَيْن على التصوف وما

هما منه على مذهبنا... تسمى إحداهما «**القلندرية**» والأخرى «**الملامية**»، وهم قوم لا يأخذون أنفسهم بشعائر الدين الإسلامي ولا بمقومات الأخلاق... ولهم في الأمر تأويلات... ومظاهر تخالف الشريعة والفطرة...

- القل... القن... القلن... القلندرية... أهذه كلمة عربية...؟! لم أستوعبها ولم تستقم في لساني!!

- لا عليك...! ما لم يستقم في الوجدان شقَّ على اللسان.

- والله لقد سمعت من **إدريس السوسي** كلامًا يُذيب الحجر، لكني...

- لكن ماذا...؟ كان من عادته أن يأتي للخمارة، لكن لم يظهر له أثر منذ خصومته مع «**الذئب**».

- هذا أمر يسرُّ القلب ويثلج الصدر... ويحمد عليه الله، فربما تاب وآب وعفا الرحمن عنه... ألم تقل إنه صوفي...؟!

- بلى...! ولكن ليس الأمر كما يبدو لك، أخشى أن يُقتل غيلة...

- يُقْتل...؟!

- نعم... فلا خبر له ولا أثر... أرجوك لنذهب إلى داره «**بتل الريح**» رجاءً...! فالرجل... لم يظهر له أثر... منذ أسابيع... وأخشى أن يُقتل...

- لِمَ...؟ مَن يقتله...؟ هل علم أحد بما قلتَ غيري؟!

- لا... أخبرتك أنت فقط ورب الأكوان...! ولكنه لم يظهر منذ أسابيع وأخاف عليه حقد وضغينة **العالية** ورجالها...

- ...! صهٍ...! قل **العالية** فقط... سنذهب إليه حالًا، كان عليك أن تحدثني في الأمر قبل أن نصعد... أسرع...! أسرع...!

7

أسرع «**سي حمو**» الخطو حتى ابتعد كثيرًا عن **زخارى**، وقد كان التل بعيدًا عن مغارة سيدي الفراش، من جهة شروق الشمس، فاضطر لانتظاره أكثر من مرة، خوفًا عليه من التيه أو الضعف، وقد رأى منه الزحير الشديد، وخشية أن يطاله شر من هوام الليل، وهو لا يجيد الإسراء في العتمة، وكان من الأصوات الموحشة بالمكان ما يهلع القلب له ويهز الكيان، وحين أشرفا على سور الدار وقد كانت خرِبةً متداعيةَ البنيان، توقَّفا لحظةً، ليسترجع **زخارى** أنفاسه، لكن ما أن اقترب «**سي حمو**» من الباب الخشبي القديم المتآكل، حتى أحس بشيء صلب ينخسه في ظهره وصوت يأتيه من ورائه:

- توقَّف...! توقف... وإلا أطلقت عليك النار... من أنت...؟!

لم يكد «سي حمو» يركب العبارة بين شفتيه، حتى لحق به **زخارى** الذي ما أن رأى إدريس السوسي شاهرًا بندقيته، حتى ارتمى في حضنه فرِحًا مغتبطًا، ثم أفلته وغدا ينطُّ قفزًا هنا وهناك، وضمَّه بقوة وهو يبكي تكاد أنفاسه تنقطع مرددًا:

- الحمد لله... أنت حي... حي... نعم... حي... هه... هه... الحمد لله... شكرًا لك يا رب الأكوان، واو...! كـأني تخلَّصت من حمل ثقيل على ظهري!!

ثم يردف مقهقهًا وهو يضرب على كتفيه:

- ورب السماء...! أنت يا إدريس السوسي... قطة بسبعة أرواح...!

يبعد إدريس السوسي بندقيته بعيدًا عن ظهر «سي حمو» وينكِّسها، ثم يحدق فيه مليًّا، ويسأل صاحبه:

- مَن هذا...؟!

- هذا الفقيه... الفقيه... نعم...! «سي حمو» ولد سي «سليمان» «**بوناكا**»... «سي حمو» الذي كلمتكَ عنه، وكنت أتمنى أن يسمع منك ما سمعت، وخلب عقلي، وأمتع روحي.

يمرِّر إدريس السوسي يده على شعره محرجًا، ويمد يده مصافحًا «سي حمو» متأسفًا له وقد بدا عليه الحياء والحرج:

- آسف... فعلًا... أنا محرج...سامحني...! أرجو أن تقبل اعتذاري وعذري، فقد ظننتك عينًا متجسِّسَة، أو أحد قُطَّاع الطريق... وربما يجرؤ «**الذئب**» وكلابه على الاقتراب من هنا...

يطيل الفقيه النظر في إدريس السوسي وهو منشرح الأسارير بعد ما ذهب عن روعه الخوف، متفرِّسًا فيه بإمعان، كأنه يبحث عن شيء ما، ويقول له:

- لا عليك...! الحذر واجب...

يدعوهما للدخول إلى الدار مرحِّبًا ولم يتخلص بعدُ من أثر الحرج،

بيته بسيط متداعي الجدران، متهالك السقف، لم يشهد منذ زمنٍ لا ترميمًا ولا صيانة، يتكوَّن من غرفتين ضيقتين، ذواتي سقفين منخفضين يكادان يلمسان الرؤوس، وسقيفة بحوشها كثيرة الرماد يعلوها سواد الأدخنة، اتخذها مطبخًا، وحيطانه من طين مخلوط بالتبن غير مبلَّط حسن تبليط، حتى اقتُلِعت منه أجزاء فنتأت قطعًا غليظة كأقراص الخبز الأسمر، سقفه من خشب وقصب، عليه طين واقٍ من تسرب المطر، وقد حَوَّش في غرفة واحدة أثاثًا قليلًا بسيطًا، لا يتعدى سريرًا ومفارش بسيطةً من ألباد صوف وشعر على حصير من شجر الدوم، وبالغرفة الأخرى التي لا تصلها الشمس، لأنها بلا نوافذ ولا كوات، وتنتشر فيها رائحة عفونة قوية نفَّاذة من كثرة الرطوبة ومن ثمالة قديمة في قعور قنينات نبيذ، مرصوصة على الجدار بترتيب عجيب، عَكَس عنايةً خاصةً، رتب أغطيةً ووضع منضدة عليها ما زالت موضوعة قنينة خمر، ووضع كرسيًّا من خشب صلب، وفي زاوية انتصبت خزانة رفوف عريضة قديمة من خشب الصنوبر، وقد لمح «سي حمو» قنينات النبيذ الفارغة، فدعا له في خاطره بالتوبة.

جلسا على المفرشة، واقتعد هو الأرض على أغطية متراكبة هي دثاره حين يضطجع في سريره، فانتشرت ظِلالهم قاتمةً موحشة على الحيطان، ككائناتٍ خرافية، من ضعف ضوء السراج المتعب الباهت، قرَّب إليهما الموقد، بعد ما زاد فيه بعضَ قطع الخشب، وصبَّ لهما كأسي شاي من إبريق كان على الموقد.

قال «سي حمو» بعد ما تنحنح:

- لقد انشغل عليك صاحبك حتى كاد يفقد صوابه، والآن الحمد لله اطمأننا معًا عليك...

- فقط اعتزلتُ وعزلتُ نفسي مدةً أراجع فيها بعض الأوراق في كتاب حياتي...

يرد عليه «سي حمو» وهو يقلِّب النظر في المكان:

- أتفهَّم... لكن فعلًا المكان هنا لا يزيد الإنسان إلا إحساسًا بالغربة، وهذا ما زاد انشغالَ صاحبك زكريا عليكَ.

- زكريا... يا له من معدن أصيل... لا يخذل أصدقاءه، ولا ينسى أصحابه، ولم يُجبَل على خيانة ولا غدر.

- صدقتَ... لكن... لا تغب كثيرًا... وخالط الناس...! فمن اعتزل اعتلَّ... والآن قل لي ما قصتك...؟! هل فعلًا أنت إدريس السوسي بن سيدي محمد الحاكي السوسي رحمه الله والزاهدة أمونة السودانية؟!

- نعم...! نعم...! والله...

يطرق الجبين متحيرًا وهو يمرر يده على قفاه، ويقول بصوت متقطع:

- إذا كان ما تقول صحيحًا... فمَن الدفين في المغارة؟!

- الفراغ...

- كيف... وهل هذا معقول... لو صح الأمر لكانت فضيحةً...؟!

- تقول لو صح الأمر...! لقد أتيتك بالحق الفالق، والخبر الصادق، فلا تكن مترددًا كمن بلسانه حبسة! مرتابًا... عاجزًا... هيابًا...

- تالله لتكونَنَّ فضيحةً وتغدو البلدة بعدها ذبيحة!

- فضيحةٌ مدوِّية وعارٌ وخزي يَصِمان كل الأفاقين والكاذبين، ومن علم الخبر واستتر عليه طمعًا وجشعًا أو خوفًا ووجلًا.

- وهل هناك في البلدة مَن يعلم هذا الأمر، وساكت عليه؟!

- نعم رجلان من البلدة رافقا والدي رحمه الله وأمي أطال الله عمرها حتى بلدة «**وادي الحلفا**» بالسودان، وقفلَا عائدَيْن بعد موته ودفنه هناك...

- وهل تعلم بذلك **العالية** اللعينة؟!

- هه...! طبعًا، ألم تَخْتَلِ أيامًا بالمغارة؟ لا شك أن الرجلين يأخذان الآن ثمن صمتهما...

- سيتطلب الأمر منًّا حسن تدبير وإحكام خطة بعد عميق تفكير، لهدم هذا البهتان المبين، والإفك اللعين.

يستطرد وقد تملَّكه الحرج والخجل فأطرق الجبين:

- للأسف أنا نفسي، أنا نفسي... سامحني الله كنت أزور المغارة وأترحَّم على الولي الشهيد من حين لآخر...

يربِّت على كتفه مواسيًا وقد رأى في عينيه حسرةً ويقول برفق:

- لا عليك يا «سي حمو»...!! فالدعاء بالرحمة للميت ليس مرهونًا بقبر ولا بقرب من ضريح، ولا بتحديد مكان صريح.

- صدقتَ...! أي والله...! صدقت...! رحم الله أباك وأطال عمر الزاهدة التي ربَّتك على خلق الدين القويم.

- اعلم أن والدي رحمه الله وأمي وأنا خرجنا من المغارة قبل أن تُنسف، وشددنا الرحال إلى **الدامر**...

- **الدامر**؟!

- نعم...! المدينة السودانية مسقط رأس أمي، حيث نشأتُ وترعرعتُ، وقد حضر رجلان من **بلدة الغرافين** موتَ والدي رحمه الله من حُمَّى لم تمهله، ودفناه في تخوم قرية بأقصى شمال السودان يقال لها «**وادي حلفا**»، وأكملنا نحن الطريق عبر النيل إلى **الدامر**.

أطال «**سي حمو**» النظر في الصندوق، ثم قال:

- قل لي ما سر هذا الصندوق؟!

- أتريد معرفة كل الحقيقة...؟

- هذه الحقيقة تُقوِّض معبد الشر والجهل، لكن ما حقيقة ما أنت فيه وأنت ابن ولي وسيدة زاهدة ناسكة؟!

- اسمع إذًا؟ إن أردتَ أن تعرف كل المسار، ولستُ بالحكي ألتمس الأعذار، لكن لكل حدث ومعلول علة يُعرف بها.

- صدقت...

- اسمع... بعد ما أكملت دراستي الثانوية توجهت إلى لندن، بعد ما حَمَّلَتْني أمي السرَّ المكين، وأسرارًا أخرى بذاك الصندوق، هناك بلندن ترددت كثيرًا في فتحه والاطلاع على الأسرار وكشف المهمة الملقاة على عاتقي اختيارًا لا رغمًا، وساورني الشك، وانتابتني الرهبة والخوف، وأنا أرى الصندوق الخشبي في ركن غرفتي بالسكن الجامعي، كان أصدقائي يسمونني صاحب الصندوق، وقد علم بعضهم من السودان أني أتيت من الدامر، وعشت بين «**المجاذيب**»، فظنوا أن بالصندوق العجب وبه من أسرار المجاذيب الغريب المبين، وكانوا قد علموا أن والدتي وجدي من أمي من بلدة «**درو**» بالسودان التي اسمها الحالي «**الشعديناب**» حيث ساد وفشا بين الناس أن للمجاذيب قدرات خارقة للعادة، ككشف الغيب، وما كان جدي وأخوالي ووالدتي إلا زهَّادًا ما ادعَوْا غيبًا يومًا، ولا كرامةً على ملأ، ولا بركةً في مقام، لكن أصل أمي أثَّر كثيرًا على علاقتي بزملائي، حتى غدوت في نظرهم موقَّرًا بمرتبةٍ روحيةٍ... ولا أعرف هل هذا التبجيل من قداسةٍ للأصل أو خوفًا من تعويذة وهمية أو أسحار عبثية؟

يمسح سي حمو رأسه بيده، يشير إلى زخارى:

- زكريا... أبعِدْ هذا الويل عنا...

بخفة يتحرك زخارى يُبعد قِنِّينة خمر كانت على المنضدة مرتبكًا، يصوب سي حمو نظره بإمعان نحو إدريس السوسي ويحضه على الكلام:

- أتمم... يا إدريس...!

- خسرتُ روحي بلندن... لم أعد كما كنتُ، منذ حللت بها واستقررت بها في غربة مؤلمة، ما لبَثَتْ أن صارت متعةً مبهجةً، شدني صخب الحياة فيها وهرجها وأرغمتني نِعَمها وتحرُّر أهلها على عيش حياة صاخبة ماجنة، حتى قطعت حبل السرة النوراني بحياتي بالدامر، ونسيتُ أمر الصندوق، فضعُف إيماني وسط عالم جد منظَّم يحترم العقل ويمجِّد العلم ويرفع من شأن العلماء والباحثين، صدِمتُ حتى استُلِبت، وركبني العجب في عالم لم يحتج ساكنوه إلى فتوى لتنظيم حياتهم ولا إلى شيخ لفضِّ نزاعاتهم، ولا إلى تميمة لتيسير أمورهم، الكل كان منضبطًا لقانون عام، لا تجده في الكتب ولا المراجع، ولكن تلمسُه في السلوك والعلائق والجوار والحديث والمواقف، تجلياته قِيَم في فضاءات العمل والدراسة وفي الشارع والطرقات، أين الدين في كل هذا؟ لا أثر له، أين القبَّة والشيخ والمريد؟ من أين أتى كل هذا التناغم في أرض لا تحتكم للسماء، ولا يسكن شغافَ روحها

تقي من الأتقياء، ولا داعية من الأدعياء ولا ترجع لتدبير الحياة إلى الشيوخ والفقهاء؟! الكنيسة مفتوحة للجميع، محايِدة باردة الوجدان والعزاء، معزولة عن القرار والتقرير في شؤون الحشود وفي المصير، ولا أحد يستعلي عليك بلقب أو ولاية أو أصل، المقياس الوحيد للتميز هناك هو العلم والعمل والقيم المشتركة غير المدونة، فلم يبقَ من إيماني غير بصيص مهدَّد بالخفوت ثم التلاشي... ذقت لذة الخمر والنبيذ، وبهما زال ترددي وتبدَّدت عُقَدي، فاكتشفتُ الأنثى الحقيقية في أجمل تجلياتها، لم أكن أعرف عنها غير ما تعلمته في مادة البيولوجيا في بلدي من وظائف وأعضاء، وما اكتشفته سطحيًّا على أجسادٍ باردة بلا عاطفة ولا حياة، أطفئ فيها جمرة شهوتي الجامحة في بلدي بعيدًا عن الأعين، في مناطق بعيدة خوفًا من العار والخزي، لكنني سُحِرت بجمال وبهاء هذا الكائن المسمى المرأة، تعرَّفت عليه بلا ستار ولا خباء، لم تكن فقط مصدرًا عموديًّا للمتعة، إنها أفق متعدد المتع والنعم، جسد يُخفي حدائق متعدِّدة ومتجدِّدة، وخرائطه الخفية لا تُفتَح إلا بأصابع مرتعشة لكن منتشية، وعقول غير مترددة، جمال المرأة ليس ظاهرًا فانيًا يُغوي، ولا ثمرة ناضجة إليها الغرائز تهوي، هي كنز لا يَفنى، هي ربيع دائم الندى، وشجرة فاكهة نادرة، ما أن تقطف واحدة منها حتى تنضج المئات على الأغصان، وكل يوم تمنحك الجديد والبديع، رعشة، بل مجرد ابتسامة، وقع

صوت أنثوي، لمسة ساحرة، دمعة حارقة، كلمة تزرع الأجنحة للأرواح التائهة على ضفاف الأنهار الخالدة للأنثى، «**مايا**» الفتاة الإنجليزية الشاعرة، و«مايا» أصلًا هي إلاهة الخصب عند الرومان، خصبت واخضرت صحاري عقلي التي كانت قرعاء جدباء، عمياء ظلماء وجرى دم جديد في عروقي، واحتضن فكري كل الأفكار تحت مظلة السؤال لا الاستهلاك، «**مايا**» التي كانت تَدْرس الأدب اليوناني، قرأتُ معها وعلى يديها الشعر الغربي برؤية أخرى، ونفس جديد، فجلوت معاني جديدة، وصارت النصوص مفتوحةً لا مغلقة، في كل قراءة جديدة معنًى جديدٌ، ومتعة يفض بكارتها بعناد قارئ فريد، ذكي متمرِّد، يكشف بفرح طفولي ظلَّ كل فكر مخفى نبيذ، ويتتبع أثر كل مجاز بدون لبس ليُفَكِّه القلبَ والعقل معًا، تعلمت أن كل فكرة هي استفزازٌ لا احترازٌ، هي اقتراح لا قطع، هي ظن لا بتٌّ حاسمٌ، وأدركتُ الفرق بين عقل يجترُّ ويخزن، وعقل يُبدع وينتقِد، لامست البَوْن بين رؤيتين: حضارة جريئة منفتحة على كل فكر ولو مضادٍّ خارج المنهج والسائد، بلا تقييد ولا اتهام، وحضارة جهة أخرى منغلقة العقل، وكل جديد عقلي فيها متهم وشبهة وظنين، أو مؤامرة على الأمة والهوية، لامستُ الفرق الشاسع بين نعمة الابتكار ونقمة الاحتذاء الأعمى لحد الانحدار، وفكرتُ مع كل كتابٍ قرأته بصوت مسموع، خلافًا لقراءاتي السابقة

التي كانت تبضيعًا وتخزينًا، وتُقرأ بلا متعة بعقل مقموع، لا يعلو خلالها على الفكر المطروح فكر ناقد، ولا يفككه نظرٌ حائرٌ، ولا يسائله في المعنى ولا في الوثوق سؤال جائز.

يتململ سي حمو في مكانه بقلق قائلًا:

- قدسية النصوص الدينية من قدسية رب العالمين، والتفسير والشرح مكفولان للراسخين في العالم... أما معرفتك الناقصة عن المرأة فراشًا ومتعةً، فمِن تقصيرك وليس من حضارتك، وفي التراث ما يفيدك بلا عُقَد ولا وَجَل.

- قدسية النص مِن قدسية العالِم أو الفقيه حيث نشأتُ في البداية وتعلمتُ الأبجديات، وهناك بالغرب قدسية النص من قدسية الأثر الذي يُحدِثه في الواقع نفعًا وتنميةً وتطورًا، وقدسية الأدب من قدسية القارئ المتحكِّم في التأويل وإعادة الإنتاج، والتشكيك والدحض، لهذا تقدَّموا... لهذا بنَوْا حضارةً لا تنفكُّ تتجدَّد، بإسقاط القدسية عن الأشخاص، أخرجوا العقل من المتاحف، ولم يعودوا يحنطون المعارف، فكل فكر مهما انتظم واكتمل يظلُّ نظريةً مؤقتةً عندهم قابلةً للدحض، تحلُّ محلَّها أخرى إلى أن يحين وقت إعلان فشلها أمام وقائع جديدة، وتعلَّمتُ أن أفكر بعيدًا عن ظل القيد والسوط، استطعتُ أن أنظر في عيني «**مايا**» اللتَيْن يتجدَّد فيهما بريق الوجود، وينتعش بالنظرات رجاء موؤود،

لأتخلص من ترددي وعُقَدي وفوضاي الداخلية، كنت أظنني منظَّم المدن الداخلية، فاكتشفتُ أنني خراب ودمار في كمون، وأنني فوضى مقنَّعة باليقين، وأنني وهم بلا حلم، وعدم بلا نغم، فغدت «مايا» ملهِمةً لي في أولى خطواتي في عالم جديد يخطو بثبات نحو فضيلة لا تُملَى عليه، بل يصنعها بإرادة أمته، وأقدار أهله، وتجارب تاريخه، مجتمع لا يخاف من الخطأ، بل يراكمه بتعظيم العلم ليؤسِّس عليه جسورَ المرور نحو حقائق جديدة، وإن ظلَّت مؤقتة ما لم تدحضها وقائع عنيدة، لا يخاف من الرأي المختلف ولو هزَّ الحكومات هزًّا.

يهز سي حمو رأسه ويقول بثقة:

- نحن أيضًا أمَّة تفكر، وعلومنا ساعدت الغرب في النهوض من سباته، وفكرُنا متجدِّد بتجدُّد الأحوال والأزمنة، والضرورات والمنافع، عدا ما كان قطعيًّا بنصٍّ لا يقبل اجتهادًا... وأنت من أسرة من أهل الله...

- للأسف... كنتُ أعود بذاكرتي إلى عالم أمي الزاهدة أمونة وأنا مفتون بما حولي، فيجول في خاطري رغمًا عني أن الصوفية ليست إلا ظاهرةً لغوية، طقس وعرس داخل اللغة وباللغة، وخارج اللغة تعجز الصوفية عن التعايش مع الأحياء في العالم السفلي، عالم الشقاء والألم والأسى والفناء والصراع، يقول

عقلي: «الصوفية ترفٌ في عالم يحتاج إلى عقل يُخرجه من التخلف والأزمات والفواجع، الصوفية فرح أناني، احتفال ذاتي، جرعة حبور ونور لا تُقتسَم، الصوفية ظاهرة لغوية لا أكثر...» ثم أكبح شعوري وقلقي باستحضار صورة أمي وإحسانها وحبها للفقراء...

يقول سي حمو مستنكرًا:

- الغرب لهم أيضًا ضوابط... وإلا فشت الفوضى...!

- لم تكن لهم من ثوابت مطلقة ولا قواعد مقدسة، كل جديد في حياتهم ومستجد يحتاج إلى مراجعة وتقويم، يراجعونه فورًا بلا جدالٍ عقيم ولا تحارُبٍ سليط، ولا تناحُرٍ حامي الوطيس في استشارات مباشرة، فتخضع الأقلية لحكم الأغلبية، ويسري القانون على الجميع.

- يا إدريس هؤلاء هم أنفسهم من صنعوا هتلر بفكرهم... هذا الطاغية لم يأتِ من فراغ...

- صدقتَ... لقد وقع ما جعلني أضع هذه الحضارة الغربية نفسها موضع تشكيك وتساؤل، حين اشتعل فتيل الحرب العالمية الثانية، ورأيت من أهوالها العظيمة ما رأيت، وتابعت من فواجعها الأليمة ما زعزع إيماني بالعقل الغربي، وكادت لندن تُدمَّر فوق رؤوسنا، وأهلك أتون هذه اللعنة الخرقاء الملايين،

ولم تستثن امرأةً ولا وليدًا في حضن أمه المرضع، ولا صبيًّا بين أحضان والديه ولا شيخًا عاجزًا ولا سقيمًا معذورًا، ولا أعزل مسالِـمًا، بل كانت عمياء، يقود دفة سفينتها بعض العلماء تحت سلطة الجهلاء من قادة ذوي مطامح خرقاء، فخربت المدن، ونسفت الجسور ومعالم الحضارة، ونهب الفن في المتاحف، وانتشر الرماد والغمام، فضاعت الحقيقة بين فريقين، ولكلٍّ مظلمةٌ، وأصل كل هذا غرور وتجبُّر وكبرياء، وعظمة وتعصب لعرق، وفهم أعوج غير قويم للقوميات، فكادت حضارة العقل والمساواة والحرية تُبادُ وتحلُّ محلَّها جاهلية مؤيدة بالعقل والفكر، وشَهِدتُ بقلقٍ واعتصار عند نهايتها ما لم أصدق من مشاهد الدمار والموت، وأثر الشر الكامن في النفوس إن تحرَّر من عقال، حتى أوشكتُ أن أعتقد أنه متأصل أصيل في الذات البشرية، مقموع فقط بالخوف والقوانين الزجرية، وأنا أتابع ما فعله العقل الغربي في شخص هتلر باليهود من حرق جماعي دون جريرة سوى أنهم قوم من عرق غير عرق الجرمان، وهالتني مشاهد غرف الغاز، والهياكل العظمية المكدَّسة كسلع في مخزن، وما تبقى من قوم اليهود المحررين غير أشباح أحياء، فأخافني هذا العقل الألماني الذي أعطى للحضارة فلاسفةً ومفكرين وأدباء وشعراء عظماء، وفي الوقت نفسه صنع جلادين ذوي مطامح حمقاء، هي الحضارة نفسها التي وهبتنا سمفونيات «باخ»

الساحرة وموسيقى «فاجنر» الرائعة، وأشعار «غوتيه» الخالدة، وفلسفة «كانط» الكونية وعقل «هيجل» الخالص، و«هوسرل» وغيرهم ممن ذللوا الطريق لحضارة العقل... تملكني الشك... وضعت... ضعت... وعقلي معلقة أسئلته الحارقة بلا أجوبة، من أين أتى كل هذا الشر؟ ما أصل كل هذه اللعنة في العقول والنفوس...؟! وعدتُ للتاريخ أمحِّص فيه بحثًا عن أثر الشر لمحاولة فهم الأصول والبدايات، فوجدت أنه ما خلا زمن من أمثال هتلر يخرجون ضد تيار الحضارة، ديانتهم الدمار والشر الشامل، وقهر الشعوب المستباحة أرضها، واطلعت على نكبات اليهود على عهد السبي الكبير البابلي... والاستعباد الروماني، إن كان هتلر يؤمن بصفاء العرق الآري، وبالإنسان الكامل القوي، وأن القوة والبقاء للأصلح والقوي هما الأصل، وأن الرحمة والشفقة خصال العبيد، أفلا نجد أصداء لذلك في فلسفة «**نيتشه**» في «موت الإله» وفي نظرية التطور لـ «**تشارلز داروين**» وبقلق «**شوبنهاور**»؟! ألم يفكر هتلر بالمنطق ذاته، في إبادة المعاقين والضعفاء والمجانين والمثليين والغجر؟ أيمكن للفكر والفلسفة أن يغدوا مرجعيةً للشرِّ المطلق ويمهدا الطريق للشر المطلق؟! لِمَ اليهود بالضبط؟! وهل أخذهم جميعًا بلا رحمةٍ بجريرة طائفة محتكرة للأموال تخلَّت عن ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى كما يَفترض البعض، أم أن هذا الشر كامن في الذات لا يحتاج

إلى أسباب موضوعية، بقدر ما يحتاج إلى السلطة ولحدٍّ أدنى من المبررات الواهية، ليعلن عن نفسه بكل مظاهره النرجسية المدمرة؟! هل هو شر نسبي فيما هو شخصي نفسي، ذو أبعاد انتقامية وجدانية سكت التاريخ عنها؟! هل صدق «شوبنهور» حين أصَّل للشر والألم؟! للأسف، لائحة السفاحين والطواغيت الحمقى في التاريخ طويلة، الذين ذبحوا ونكَّلوا وأحرقوا ودمَّروا بلا رحمة ولا شفقة، وأراقوا دماء العُزَّل والأطفال والشيوخ بلذَّة غريبة من أمثال «هتلر» الأحمق وهولاكو الأخرق وفرعون الطاغية المتألِّه، و«أبي طاهر القرمطي» السفاح زعيم القرامطة الذين ذبحوا الحجيج على عرفات وفي الحرم المكي وسرقوا الحجر الأسود، ومنعوا الحج سنوات و«**كاليغولا**» الإمبراطور الروماني الذي كان يقول عبارته الشهيرة: «لا أرتاح إلا بين الموتى» و«**ماكسمليان روبسبيرو**» الذي باسم الثورة الفرنسية ذبح الآلاف، وجرَّهم للمقصلة، وكانوا من رفاق الثورة، ونيرون الجزار حارق المدينة الخالدة روما، وأمثال «**ليوبولد الثاني**» ملك بلجيكا الذي قتل ما يقارب عشرة ملايين من الأفارقة الأبرياء، و«**جنكيز خان**» الذي عاث فسادًا وغَزَا مخرِّبًا كلَّ حضارة في طريقه وذبح الملايين، استحضرت قادة أمريكا الأوائل الذين أبادوا الهنود الحمر، والمعمرين الغربيين بإفريقيا الذين تباهوا بقطع الرؤوس وتعليقها على رؤوس البندقيات لأخذ صور

تذكارية، و«**ستالين**» نفسه الذي في صف الحلفاء المنتصرين، كم أباد من أجل السلطة حتى مِن بين رفاق الثورة...؟! ولا ينسى التاريخ مجازر الصليبيين خلال الحملة الأولى، فكم ذبحوا وأراقوا من الدماء بين أسوار القدس حتى علا الدم الركب، ودامت رائحة الجيف لشهور، بمباركةِ البابا... كانت نقاشات مثل هذه حادَّة ومتباينة أحيانًا تحضر فيها الذوات بقوة تحت ثقل اليأس والخوف، تدور بيننا نحن الطلبة وبعض المثقفين والأساتذة في محاولة لفهم الأزمة، أزمة العقل الغربي، تحت الأرض في الأنفاق والملاجئ، نداري بها زمن الخوف، ونراوغ بموضوعاتها لحظات الترقب، ونصل دومًا إلى الباب المسدود، ولندن فوق رؤوسنا تتعرض لجحيم القصف الجوي من قِبَل الطائرات العسكرية الألمانية لشهور، قصف أعمى خلَّف من القتلى أربعين ألف مدني، وخرابًا ودمارًا، وحيرةً وقلقًا، وأسئلتنا ظلت حبيسة جدران الأنفاق كأنفاس الأطفال الخائفين من أزيز الطائرات المحلقة فوقنا...

يقول سي حمو وهو يسرح بنظره في السقف:

- تكوينُك جيد... ذكرتَ أعلامًا لا أعرف أكثرَها... لكنني فهمت من حديثك أن الشر لا أصل له لا في العقيدة ولا في الملة...

- يا زخارى الشر الجامح أعمى، لا دينَ له ولا هوية ولا قومية،

لكنه قد يتغطَّى بالدين والعصبية، ليحصُل على الشرعية، ويدغدغ وجدان الجماهير والشعوب...

- وماذا أفدت من كل هذا؟!

- خلَصتُ إلى أننا في حاجة إلى منظومة عالمية، تتوقع الشر الكبير قبل حلوله، وتُجهِضه في المهد قبل أن يصير سرطانًا يُبيد ولا يَزول، فصدمني العالم الحر **أمريكا** بالقصف الذرِّي على هيروشيما وناكازاكي وما نجم عند ذلك من جحيم ومآسٍ، فتملكتني الحيرة، أينام قريرَ العين مَن صَنَع ومَن خطَّطَ ومَن أمَرَ ومَن قصف...؟! أهو العقل نفسه الذي أنتج عصر الأنوار والنهضة ورسَّخ الحرية والمساواة والدساتير الديموقراطية، والحقوق الفردية والجماعية؟ أهو العقل ذاته الذي صنع محرقة اليهود، وقصف بالقنابل الذرية الملايين وخرَّب المدن وشرَّد ويتَّم ملايين الأطفال؟! أهو العقل نفسه...؟!

- لكل عقل كبواته وشطحاته وجنونه... وهذا لا يعصمه إلا النقل... وهنا ضرورة الوحي... العقل وحدَه غير كافٍ...

- صدقتَ يا **سي حمو**... فقد فقدتُ الثقة في هذا العقل الغربي، حين علمتُ أن الديموقراطية ومطالب الجماهير هي التي حملت «**هتلر**» و«**موسوليني**» إلى السلطة، وعلمتُ ما يمكن لهذا العقل الـمُبدِع أن يفعل في حالة جنونه وتفرُّده بالسلطة، والأخطر أن

هذا العقل نفسه، هو مَن فرض فرضًا هجينًا خريطةً جديدة حمقاء لا تراعي وجدان الشعوب، وهي قنبلة موقوتة، وبذرة شر في كُمُون. فاستعدتُ إيماني حين علمتُ أن القانون وحدَه غير كافٍ للحد من الشر والجريمة، القانون قد يمنع الجريمةَ زجرًا، لكنه لا يصنع الفضيلةَ عقيدةً، فهل نحن في حاجة إلى الدين...؟! ورأيتُ مِن حال أمَّتِنا ما يُوصف تخلفًا، فتساءلتُ لِـمَ تخلَّفنا؟ ولم أجد الجواب إلا وأنا أرى الاستبداد الصغير من أمثال **العالية** يعيق الفكر ويغلب على الحرية وهي الفطرة الأولية، والجهل الكبير في النفوس الخانعة يعدُّ مكرمةً وهو مذمةٌ، وتَعَوُّد الناس على الخضوع والخمول، وانصراف العقول عن الإبداع إلى الاتباع، والرضا بقدر ما تناقلوه من تدبير الأولين، فعطَّلوا الأسبابَ بالتأجيل والإرجاء والاكتفاء، واكتفوا بآمال الآخرة. والدنيا دار عمل وعبادة، وألزموا لزومًا فكرًا من زمنٍ ماضٍ على زمنٍ في مخاضٍ، فكان ما نرى من أعراضٍ لداءٍ اسمه حُكم الأموات للأحياء...

- العيب ليس في العقيدة بل في العقول التي أَلِفَتِ الركونَ إلى القديم دون تجديد ولا تدبير لما ينفع كل أمة في زمنٍ ما... لم أسمع منكَ بعدُ قصَّة الصندوق...!!

- ظل صندوق أسرار أمي هناك، ينظر إليَّ صباحَ مساءَ، يشاغب متحديًا صبري وتردُّدي، ويستفزُّ فضولي كأنه عَلِم قِصَرَ حَبْلِ

صَبري، فأخفيته على العيون مدَّة، لأبدِّد توجُّسَ ورهبةَ زملائي، وصُدمتُ من زميلٍ يومًا ما صدمةً أرَّقتني لياليَ طويلةً، حين طلب مني في سذاجة وجهالة أن أصنع له تعويذةً أو تميمةً للسيطرة على فتاة لندنية يحبها، وحينما واجهتُه برفضٍ قاسٍ قاطعٍ واستنكارٍ حاسم، اكتفى بالقول هازئًا: «تستأثر بالأمر لنفسك، حتى إنك من الأوائل في دفعتنا» وحين شعر بغضبي يكاد يفتكُ به قَبَّل كتفي واعتذر، لا أعرف هل شعر بالخطأ أم توهَّم شرَّ انتقامٍ من سِحرٍ لا يوجد إلا في عقله؟!

ينتفض وهو يطرد عن جسده الخمول وكان قد غفا كطائرٍ مبلَّل الريش، ويقول بفضول:

- والصندوق... هل فتحته...؟!

- لا يا زخارى...! في البداية قرَّرت التحرُّر من الصندوق، كنتُ هممتُ أن أتخلَّص منه في لحظةِ تشوُّش ذهني دون الاطلاع على محتوياته وأسراره وغياهبه برميه من أعلى جسر «**ويستمنستر**» في نهر التايمز، بيد أنني تذكرتُ وعدي لأمي الزاهدة الناسكة، وخشيت سخطها ولو في غيبةٍ، وفي لحظة ثمالةٍ قصوى، بدَّدتُ ترددي وخوفي من المجهول، وفتحته وما زالت الرهبة والتهيب يتملكانني وتجثم على صدري هواجس ووساوس، وما أفاد الخمر في قمعها إلا قليلًا، وبأصابع مرتعشة بارتباكٍ، ومشاعر

مضطربةٍ، قلَّبت ما في الداخل كمن يعالج أحجار الماس، والعين مُعرِضة عن النظر في جوف الصندوق من الحذر، وإن كان حذري غير معلَّلٍ وفيه نظر، لأنه مجهول الأسباب إلا من خوف دفين بين الجوانح من غدٍ غائمٍ قاتمٍ، فأخرجت أول صحيفة من قرطاس محبرة بحبر صمغي زعفراني اللون مائل إلى صفرة خالطَتْها ظلالُ ألوان قرنفلية، وبقلم قصبيٍّ عرفته من الأثر ومن تشكُّل بداية الحرف واكتماله.

يتشوَّق سي حمو لمعرفة ما في الصحائف، فيقول مستعجلًا الحكيَ:

- إيه... وماذا وجدت...؟!

- كان في أعلى الصندوق ترتيبًا منشودًا مقصودًا مصحفُ القرآنِ الكريم، فالجامعُ المسندُ الصحيح المختصر من أُمور رسول الله صلى الله عليه وسلَّم وسُننه وأيامه للإمام البخاري، ثم كتابُ صحيح مسلم، وفي هذا الترتيب شفرة حلُّها غير مُستعصٍ على لبيب يفهم بالتلميح قبل التصريح. عزلت الوالدة الزاهدة عدَّة قراطيس في صف آخر مرتبةً ومرقمةً وبين ما وجدت كتاب «الطواسين» للحلاج الرجل الكثير الجدل والذي صُلب صلبًا شنيعًا على ما أعتقد بتهمة الزندقة وشبهة ادعاء النبوة أو الألوهية، وتفرَّقَتْ حوله الآراءُ بين متعاطف علَّلَ صَلبَه بحِقد المنافسين، ومتحامِلٍ شرع قتلَه تلك القتلة الشنيعة بخروجه الكبير عن ملة

المؤمنين، وتجرُّئِه على الله وعلى الملكوت العظيم، وحبَّرت أمي في شأنه ورقةً ألصقتها على غلافه وكتبَتْ ما لا يزال طريًّا في عقلي: «هذا رجلٌ اختلط عليه البَوْح باللفظ عن المعنى في حضرة شهود أو حضور، فأرهقَ القولَ بما لا يُطيق من معانٍ علوية وصُوَر نورانيَّة، واختلط عنده لسان الشهادة بلسان عاجز عن تقريب تجليات عالم الحقيقة، وباح بما يلزم السكوت عند مقام الشهود، فاللفظ لا يجوز في الشهادة، حين تُهتَك الحُجُب، وحَدُّه تعيين العبادة وتفصيل العقيدة لا الحقيقة، بما يليق بعلم الظاهر من معانٍ تخصُّ الجوارح، ولو سَبَروا غَوْر بحره، لأعذروه لضحالة اللغة العاجزة عن حالٍ غدا معناه كالذكرَى، ونوره كالأثر، فيأتي المجاز بما لا يجوز توحيدًا، وتأتي معانٍ بما لا تُحَوَّزُ إلى التفريد، فلا يؤخذ بمذهبه في القدوة، ولا بمعانيه الناشزة في الخلوة»، وقِسْ على أمثاله ممن خلطوا مقام الحقيقة، بمقال الغريزة».

يتململ سي حمو في مكانه ويقول بذهول ودهشة:

- كلام فيه صدق وعبرة وحكمة... ماذا وجدت أيضًا...؟!

- وجدتُ فيها وجدت كتابًا لصوفي كبير اسمه «عبد القادر الجَيْلاني» عنوانه «**الغُنْيَة لطالبي طريق الحق**» وكان مألوفًا في بيت جدي، مُتداوَلًا بين الأيدي، لأنه أصل مهم أساس من أصول المسلك عند أخوالي وأمي وكل مريد، يسترشدون به في

مجالس الوعظ والتربية، ومسالك الوجد والترقية. وبين الكتب المتعطشة لقارئ لبيبٍ عابد، تَطَلَّع كتاب «**الرسالة القشيرية**» إلى وجهي بحبور وسرور، يدعوني إلى ما نسي قلبي من سرور وافتقد من هدوء، يجاوره كتاب «**الحِكَم العطائية**» وهو عبارة عن **٢٦٤** حكمة لابن **عطاء الله** السكندري، فيه من الحكمة ما يُغني عن الترحال لطلب المعرفة، مختصرة في إيجاز كجوامع الكلم، وإن كانت تحتاج من كل طالب مهما بلغ من مقام إلى عارف مرافق، يفك الرموز، ويبسط المعاني الدقيقة، انكببتُ بهمَّة وشوق على قراءة ما دوَّنـته وحبَّرته أمي في قراطيس مرتبة، مُقبِلًا عليها كرضيع متشوِّق لثدي أمه، وابتدأت رحلتي مع أسرارها وبَوْحها.

يتوقف عن الحكي، يطيل النظر في وجه «**سي حمو**»، الذي انبهر مما يسمع، بينما زخارى غفا من تعب السير، فدثَّره السوسي بدثار وتركه على حاله، وانتهز الفرصة «**سي حمو**» ليقول:

- أَفَهِمت إشارة ترتيب ما جاء في الصندوق بتلك الطريقة...؟

القرآن الكريم أولًا ثم سنة الرسول صلى الله عليه سلم، ثم علوم التصوف، أمك أمونة توصيك بالتمسك بالشريعة فهي عصمتك من الشطط، تستدعيك لعالم الأنوار على المسلك الصحيح من الحقيقة... إنها ليست عابدةً زاهدةً فقط، بل هي وليَّة عالمة مربِّية.

ينهض إدريس السوسي نحو الخزانة غير مستعجل، يُنزِل الصندوق، ويأتي به بين يدي «سي حمو»، ويقول بصوت خفيض:

- أتريد الاطلاع على أسرار الزاهدة الشريفة...؟!

- طبعًا... جزاك الله خيرًا...

يمد السوسي يده إلى داخل الصندوق وهو متطلع إلى وجه «**سي حمو**» الذي تهلل حبًّا لما سمع، وشوقًا لما سيسمع، وانشرحت أساريره، وارتسمت ابتسامة على شفتيه، تترجم هدوء النفس، وسكينة الروح، وطمأنينة القلب فيبسط الصحائف على المنضدة، يأخذ منها حزمة، يحل عروة الخيط الذي يجمعها، يرتفع شخير زخارى مشوِّشًا عليهما ما هما فيه، فينهض «سي حمو» متعجِّلًا، ويسوي تحت قفاه وسادةً، يغير زخارى جنبه بحركة سريعة، فينتظم لديه التنفس، ويعود الفقيه إلى مجلسه بعد ما أدنى السراج ووضعه على المنضدة.

يمد إدريس السوسي «سي حمو» بالصحيفة التي تناولها بيد مرتعشة وهو يقول:

- ماذا...؟ ما الأمر يا إدريس؟!

- اقرأها أنت... في خاطرك... أما أنا فقد قرأتها عشرات المرات...

هذا ما قرأه بصمت وخشوع سي حمو والدمع رقراق على خديه.

****

«هذه أسرار العابدة الضعيفة إلى الله أمونة الجعلية الدامرية لابنها إدريس السوسي ولد سي محمد الحاكي السوسي»

الصحيفة - ألف -

الحمد لله الذي بحمده يُفتَح كل باب، وبثنائه يُستهَلُّ كل كتاب، وبذِكْره يُصَدَّر كل خطاب، وباسمه يُطرَق كل باب، وبمشيئته تجري الأسباب، وبفضله ننعم بالجواب، عن كل ما غلق علينا من مسألة، ولا يصح إلا له الخنوع والمذلة، وبذكره تفتح أبواب النعمة.

اعلم...! يا بني أن أباك رحمه الله كان قدَري وحظي في الدنيا بعد حظ في زواج سابق ترمَّلت على إثره، فتفرغت لخلوات الزهد والعبادة، حتى قدَّر الله مدبر الأقدار في سابق علمه أن أكون لأبيك لباسًا ويكون لي لباسًا، رغم فارق السن والأعراف والأصول، لكن جمعنا ما هو أقوى من حدود قبيلة، أو بصمة عشيرة، زاوية الأنوار التي تذوب فيها الهويات والأمصار، وحق علي أن أحسن الظن بالمتعالي وأقول إنه زوجي في الآخرة، صيَّره له ربي الرحمن الرحيم الحكيم المتعالي المنان، بالأسباب نحو قدري ومصيري، ورضيت دون مِنة بمجرى أقدار الخالق، غير مكترثة بكثرة الترحال ولا متبرِّمة من تبدُّل الأحوال وتغيُّر الأوضاع والتعرُّض للأهوال.

رافقت أباك رفقة الزوجة الصالحة الخانعة عبادةً لا قسرًا ولا قهرًا ولا ضعفًا، والصاحبة والتابعة والمريدة عرفانًا لا جهلًا، ولو صحت

الأدوار وتغيَّرت الأجناس، لكان هو المريد وكنتُ أنا محلَّ الصبوة، دون ادعاء للصفوة، أو شهوةٍ في النخبة، أو زعم في فضل وقدرة، أو ادعاء سبق في النسبة أو مِنَّة في القِدْمَة والخدمة، وإنك إن صبرتَ وتجلدت معي على طول الطريق، ولم تستعجل ما لم يحن بعد في حبري، وما لم يُقَدَّر بعدُ للكشف والتجلي من سري، ستعرف من مجرى الأخبار، وتستشف من ثنايا الأنباء ما يرفع لبس الأسرار، ويفسر أسباب كل قول، وأصل كل هول، وسمة كل تبدل وحول وتحول.

رافقتُ أباك «سيدي محمد الحاكي السوسي» المكنى حاليًّا «بسيدي الفراش» عند أهل المغرب ببلدة الغرافين بهتانًا وظلمًا، وبسيدي محمد الحاكي عند أكثر أهل العلم والصوفية السودانية والمغربية، قادمين غير متعجلين ولا متسرعين من أرض السودان، وما نملك من متاع الدنيا غير ناقة تحمل خيمتنا ومتاعنا القليل، فنريحها حينًا، ونحمل عنها بعض ما ثقل من متاع كلما أفهرت، فلا عظة ونصح لإنسان حَمَّل أكثر ما يطيق الحيوانَ، وإن للرحمة التي لم يعكرها هوى، تجليات على المسافر في الطريق، فلا يدوس حشرة، ولا يبعثر عشًّا، ولا يخرب قرية نمل.

كان «سي محمد الحاكي» - تغمده الله برحمته - يتزود بقليل من القوت على طريق الرحلة من أهل القرى التي يعبرها، مقابل خدمات معينة بسيطة، كحياكة الصوف التي برع فيها وخياطة الجلابيب و«البرانس» وتطبيب المرضى من الأهالي، وما له من علم في هذا الباب

إلا «شرطة» مشرط، وكية نار حين يلزم الكي، وخلطة من أعشاب مجربة، وجبر كسور العظام، وتسوية كل اعوجاج لعظم بَرُؤ على عيب بصفار البيض وعيدان القصب، وحجامة متقنة دقيقة لإخراج الدم الفاسد، وتلطيف الأمزجة، فتهدأ بها النفوس، ويقل التوتر والهم ويتبدد الخمول. وكان أكثر دوائه العسل شربة على ريق، وأكثر ما يوصي الصوم عن بعض الأطعمة، والحركة بدل الكسل وتجنب الشبع والبطنة، فالجوع عنده دواء وجُنَّة، فيطلبونه فيما يطلبون لرقي الأطفال من بكاء لا ينقطع، والنساء اللواتي يصرعن فيرقيهن بما في قلبه من قرآن لا غير، لم يكن مدعيًا الشفاء ولا العلاج، وكان يعلم أن كثرة صرع النساء من خفي داء، لا من شيطان ولا جني مارد أو عفريت متحكم في الأبدان، فما جعل الله لإبليس سلطانًا على العباد، وهو لا يفتح بابًا ولا يرفع غطاء، وأبعد ما يقدر على فعله وأعوانه وسوسة تُصَد باستعاذة، ونزع يُقمَع بما علَّمنا الله من تعوُّذ به، فلا يطيق الخبيث تعوذًا بالله، فيدبر صاغرًا ذليلًا، فما بالك من كان في مراقي الخبث والشر أقل منه مما زعموا أنه من فعل الجن والعفاريت؟

كان أبوك - قدَّس الله سره - يعلم أن الداء الخفي عرض من الأعراض لقهر النساء، كالظل من الأشياء، وتجليات لشظف العيش والشقاء، واعتراض العقل المقهور في احتيال على قسوة الحال وتسلط الرجال، وقد فصل لي في هذا الباب وقال فيما قال: «هناك نوعان من المصروعات، نساء في قهر شديد، اخترن هذا الأسلوب ليُوقَّرن

ويتفادَيْن الظلم المديد، وما بهن من داء خفي، غير الادعاء والتمثيل، ونساء معتلّات النفس والمزاج، ويَكْمُن الداء في الروح من كثرة الأهوال والأوزار، فشطَّتْ بهن النفوس دون أن يَدْرِين إلى صَرَع يُنفِّس عنهن ما كتمنه ودسسنه في ثنايا النفس، وفي صرعهن فائدة التنفيس والقول بلا رقيب، وسمعت من يقول إن من هذا الداء ما هو متأصل في عيب في الدماغ من تهوية وعلائق»، وكان علمه في هذا الباب شذرات متفرقة من كتاب القانون في الطب للشيخ الرئيس ابن سينا نفعنا الله بسره وعلمه الوفير.

يا بني...! لقد كان لنا في الأهالي في كل قرية نمر بها من السودان على ضفاف النيل من أرض النوبة وعمق مصر وعلى تخوم مجراه إلى المغرب عبر طريق السبعين، الأهل والزاد والعون، والدار والصون، والأنس والسند، وما نقص من كرمهم وبشاشتهم شيء والأحوال أحوال حرب، وما غيَّر طبع الجود والمروءة فيهم شدة وضيق في عيش، ولا جدب أرض، ولا قلة أقوات في الأسواق، حتى لحقنا محمل الحجاج المغاربة العائدين من الحجاز برًّا، فاستأنسنا بالجمع، فكنا ضمن الركب الحجازي المراكشي الفاسي المتجهة صوب المغرب الأقصى، ضمن قوافل متآزرة متلاحمة، حتى تفرَّق الركب إلى رَكبَيْن ركب مراكش وركب فاس، فسرنا مع ركب فاس حتى حللنا بها في ثاني يوم شعبان عام ١٣٣٥ من هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم، شهر أبريل عام ١٩١٧ من التقويم الميلادي، حيث أمضينا شهر رمضان ببطحاء فاس،

وكنتُ على وشك الولادة في الشهر التاسع، فأكرمني الله بولادتك في حاضرة العلم والفقهاء، فهي مسقط رأسك، وأول هواء وصل لرئتيك كان هواءها النقي الطاهر، وعند متم نِفاسي، شددنا الرحال مرة أخرى نحو القرى و«المداشر» النائية، وقد ابتلي أبوك بالمفازات دون الحواضر، والفيافي دون القرى الآهلة بالناس والسكان، فكان الأهالي يتسابقون للسلام عليه، حتى فتنوه وكادوا يخرجونه عن درب التصوف القويم، طلبًا لبركة يُنكرها هو نفسه، وتقديسًا لكرامات لم يعلنها، وما مَنَّ الله عليه بها، فهو لم يبلغ مقام الشهود بعدُ، ولا كُشِفَت له الحجب، ولا رُفِعت له الستائر لتغمره الأنوار بعشق السرائر، وما نصيبه من النسك غير رؤى طيبة ونسائم عطرة، وما تذوُّقه إلا محدود من نسائم عطرة تدخله بحبور ونور يستشعر أنه يملؤُه حسب مقامه، ولو مَنَّ الله عليه بكرامة ما جاز له التصريح ولا حتى بالتلميح، فهي فضل ذاتي صريح وفتح فردي بهي خفي، وما كُشِفت الكرامات إلا أضلت العامة وفتنت الدهماء، وتبدَّلت الولاية من عبادة إلى رياسة، فاستمكن الاستعلاء من الولي وما هو غير ابن الإنسان، والتصوف والرياسة لا يجتمعان، وقد ألحُّوا فأصروا حتى أربكوه وفتنوه، وألحت عليه كل قبيلة أن ينزل بها، وخيروه بين السيادة والولاية، وما رأى في نفسه يومًا وليًا وقد ترك حاضرة «التصوف» بالدامر بالسودان، وعلم علم اليقين بها مقامات هذا الباب الشديد ومدارجه الدقيقة، وما هو إلا تابع لشيخ سوداني جَعَلي، حظُّه أقل من النجباء، وما رخص له أن يكون من النقباء،

فقد ودَّع شيخه على عهود المسلك السديد لا تنفرط حباته إلا انفرط الإذن للتابع والنجيب النقيب والمريد، عند ضريح الشيخ الفقيه «عبد الله راجل درو» نفعنا الله بسرِّه «بقوز الشعديناب»، أعطى العهد ثم سلَّم فسَلِم ورحل وارتحل وسلك وتعلم، ولم تغلبه على نفسه صبوة ولا به تشوُّفٌ لرئاسة، غير أحيان قليلة لَبَّس عليه الرجيم اللعين، فأغواه بالأهواء وهو في غفلة من الأنواء، فزاغت نفسه، واستلذ المقام والنعيم، فترك الحياكة والخياطة، وما يَطعَمُه من عرق جبين دون حاجة للخاصة ولا العامة، فاستلذَّ أشهى الطعام في البيوت الكبيرة العامرة، وهرج النفوس الحائرة، حتى إذا ما استشعر أن مقعده غدا جمرًا حارقًا، وقُربَه من علوٍّ فانٍ مفسدة زائدة للنفوس الجائرة، تعوَّذ بالله، وهرب لله، وكان أوَّابًا يبكي حتى يغيب، وينتحب حتى يصيب، وكم اغتم حتى أناب، فيقسو على النفس اللوامة بشد العنان، ويشتد عليها بالحرمان والنقصان، فيزيد في ترويضها وترييضها وحرمانها وقمعها عن النزوات والشهوات، فنستأنف الرحلة وقد شفي من المحنة ومخالطة الوجهاء والجهلاء، فيصوم كمن يصوم الدهر، حتى يتطهَّر من شهوةٍ سبقت، ونزوة استحكمت، فيلقى بشدة القمع كل نزوة جنحت به، حتى صفا الذهن مما علق به من درن، وطهرت الروح من العفن، فاستبشر خيرًا بمدد من السكينة، فجدد النية والعزيمة.

ما نزل بمكان بعدُ إلا اعتزل الصخب والهرج، أغزِلُ الصوفَ ويحيكُ هو الخرق، فيخيطها حتى تصير جلبابًا أو برنسًا يقيان من

البرد ويستران الأجساد، وينشر ما حاك وخاط على صليب من لوح حتى تتبدد الثنايا، ويأخذ عنها ما قلَّ من الأجر، وما يلزمه في الأكل والمشرب والسفر.

وكان قد قضى بين مجاذيب مدينة «الدامر» بأرض السودان وقراها وخلواتها الكثيرة ما يناهز ثمانية أعوام، حتى غدا منهم واكتسب لكنتهم وعاداتهم وهمَّتهم واهتزاز أبدانهم، وحسبه البعض سودانيًّا للكنته وسُمرة بشرته، وجاءتني الأخبار أن في المناطق التي نزل فيها، غدا مكانُ حِلِّه ونزوله قِبلةً للناس يتوسَّلون باسمه، فتعددت ألقابه حسب الحاجات، فهو سيدي الحاكي الذي يُنصِف النسوة المقهورات، وهو سيدي الفَرَاش عند أهل بلدة الغرافين، حيث زعموا أن مغارته هي قبره، لا تخلو من أسراب الفراشات، وهو عندهم كاشف الهمِّ، واهب الذرية، موسع الرزق، نصير المظلومين، فاضح الخائنين، وما الفاضح الستار الستير إلا مَن بيده ناصية العباد، وما الكاشف للهمِّ والواهب للذرية والموسع للرزق غير الواحد الأحد، لكن في كل بلدة نما كالفطر العفن من يتاجر باسمه خِداعًا ودجلًا، وغَلَا آخرون غلوًّا غريبًا وشديدًا في قرى معزولة نائية، فصار اسمه «ميمون السوداني» ملكًا من ملوك الجن، يختصم عنده العباد ضد الجن في محاكم ملوك الجن، وهو سلطانهم الأعلى، في خلوات نائية، ونسوا حكاية الأولين، أو تناسوا لمأربٍ بعيد أو مصلحةٍ جارية، أو منافعَ قائمةٍ ولو بالبهتان، ولم يكن إلا عابدًا مجذوبًا، مرَّ من هنا وهناك، فرقَى الصغار، وطهَّر

النفوس، وطبَّب المرضى بما علم واجتهد، وخفَّف كرب النساء في زمن البأساء، وقال حِكَمًا وأمثالًا من أجل موعظة في مقام استدعى مقالًا.

والدك لم يكن إلا حافظًا للقرآن على عادة أهل القرى بسوس بالمغرب، وتلقَّى من علم الشريعة النزر القليل، فضجر من عيش الحضر وخرج سائحًا هائمًا على وجهه في المفازات وبين الفلوات في بداية أمره، فألِفَ العزلة واستأنس الوحشة حتى توحَّش شكلًا وإن تلطف روحًا ولسانًا، وظل على هذا الحال حتى حُسِب على المجانين من مجاذيب سوس، ولبث بالجبال فانقطع عن الحياة واتخذ من المغارات والكهوف خلوات، ثم قلَّ طعامه ورثَّ ملبسه، فزهد عن الدنيا حتى اعتلَّ وسقم وأوشك على الموت، ولم يكن فقيهًا يحصن خلواته بعلم الظاهر يمنع شطحاته بما توهَّم تلبُّسًا أنه علم الباطن، فمن لم يرتشف التصوف من حوض الشيوخ، ومن لا شيخ له في هذا العرفان، زلَّ وضاع، واختلطت عليه الأمور حد الجنون، فأوكله أبوه بعد بحث مُضنٍ دام شهورًا، إلى شيخ سوداني شاذلي ليُقَوِّم مسلكه ويصحح مذهبه، ويرمم صدع روحه، ويشذب عوالق التلبس من نفسه، فرحل به إلى السودان، حتى استقر به بمدينة «الدامر».

بخلوات الجَعَليين بنواحي حاضرة المجاذيب المسماة نسبة إلى الشيخ الأكبر الذي غلب الليلَ عبادةً وقيامًا حتى دمَّره، فهو الدامر لليل، والأرض التي حلَّ بها غدت تحمل اسم الدامر، فتُرك مدة بين

المجاذيب كأنه واحد منهم، وكان لا بد له من شيخ يرشده فلزم شيخًا من أحفاد الشيخ محمد المجذوب، حيث اختلى قُرب قُبته بالمدينة، وظلَّ يتعبَّد ويترقى تحت عين الفكي أو الشيخ هناك حتى صلُح تصوفه، وقوم مسلكه، وقرر الرحيل إلى بلده فأنكحه والدي إياي وكان عام ١٤٣٤ من الهجرة الموافق عام ١٩١٥ من التقويم الميلادي.

يجفِّف سي حمو دموعه، ويضع الصحيفة في الصندوق بحزن خالطته نشوة غريبة برقت في عينيه، ينتصب واقفًا، مدلفًا نحو دورة المياه، يُشيِّعه غدري إدريس السوسي بنظرةٍ وابتسامةٍ، وينتهز الفرصة، ليحضر من المطبخ رغيفين، وجبنًا وقنينة لبن، ويعود «سي حمو» إلى مجلسه، الذي لا ينتظر دعوةً ويمدُّ يده إلى الطعام ويقول وهو يمضغ حتى يكاد لا يبين:

- هات الصحيفة الأخرى...!

تسارعت اللقيمات بين شِدقي «سي حمو» وامتلأ فمه، فتغيَّر وجهه، حتى بدا لإدريس السوسي في خاطره كمُهرِّج، فابتسم للأمر، ومدَّه بالصحيفة.

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذا مختصر لرحلتنا إلى بلدة الغرافين، وهروبنا من بطش الفرنسيس»

الصحيفة – باء –

حبَّرتها للذكرى، إفادةً مما يجري من أقدار ومصاير على جري الأسباب، صحائف فيها من الأحداث والوقائع ما يكرم سيدي محمد الحاكي السوسي رحمه الله، ويحفظ أثره، ويصون اسمه، وينبه من الزلل في سيرته وترجمته، وهي المعتمَد عندي لأهل البحث والتقصي في أحوال العباد من المتصوفة، فلا يلحق بترجماتهم ما يسود سيرتهم، أو يدس عليهم في قولهم، فيتحملون وزر قوم لم يسمعوا عنهم ولم يأخذوا منهم تواترًا بلا جرح، وخبرًا بلا إقحام».

حللت وسيدي الحاكي ببلدة الغرافين بحمد الله فجرًا، والأجواء حارة من شدة قيظ وجدب أثَّرا على السحنات والأمزجة، وهزلت لهما الأبدان وخرَّبَا البنيان، كان نزولنا بهذه البلدة الكثيرة النقع، شوال عام ١٣٣٥، الثالث من أغسطس عام ١٩١٧ من الميلاد، وإدريس رضيع في شهره الرابع، نصبنا خيمتنا على مقربة من مغارة على منحدر جبل يسمى الجبل الأخضر، وأرحنا ناقتنا وأرخينا لها العقال، وإن قلَّ الكلأ بين حجارة صفواء، وأتربة غبراء، الموت جاثم على النفوس، وظاهر في السلوك، من شدةٍ وضيقٍ وشظَفٍ، خَشُنت الطباع، واسوَدَّت الوجوه، وقست نظرات العيون، وفشا الخوف بين النساء والصبايا، وكنَّ يسترقن النظر حتى إذا اقتربنا فزعن وتفرقن وتلصصن من بين شقوق الأبواب، وكوات السطوح.

شقَّ عليَّ ما أرى، بين يدي رضيع في مهد يحتاج رعاية ومأوى فنصحت بالعودة حتى ألححت، أو تغيير المنازل فما أقنعتُ، ابتسم «سيدي محمد الحاكي»، وهدَّأ من روعي، وذكرني بنعمة الورع، وفضل الدعوة على فيض النعم، فاستخار ربه في المغارة صلاةً فدعاءً ثم صمتًا، وخرج مستبشرًا، فعزم على الإقامة بين ظَهْرانَيْهِمْ، فالقوم قوم حاجة، وباب الجنة لمن تُقضَى على يديه حوائج الناس غير مزدحم، ونوى التفرغ للدعوة والإعانة في أمور الدنيا والآخرة، وما كان في هذا البلد من خصب مراعٍ، لاحتباس المطر عنهم سنوات، وقهر الاحتلال لهم أكثر ما يطيقون، وانتشار الربا والديون والرهون، وحبس الأراضي بحق وبدون حق ليُستوفَى منها عند تعذُّر الوفاء بدين، بنزعها قهرًا وبَغيًا.

ما أن طلع النهار علينا، وتبدَّد ضباب الصبح الأعشى الذي أعتم علينا ضوء الفجر، حتى ضجَّت الدروب والشِّعاب بقومٍ كاد يُبيدُهم الوباء، ورأينا ما يفطر القلوب، ويذيب الحديد، بؤسًا عمَّ البيوت والدور، حتى أوشك الناس أن يكفروا من شدة فقر وإملاق، مقابرهم لا تفتر من نحيب وولولة، وأكثر الموتى صبيان من جوع ومرض، ونساء حبلى من عسير مخاض وضعف بدن، وما في هذه البلدة الغبراء الصفراء الصماء، قثَّاء ولا بُرٌّ ولا قمح ولا شعير، فنسوا الصلاة والدعاء من شدة البأساء وتوالي أحوال الرمضاء، ونسوا الله فأنساهم أنفسهم.

حين ينظرون ويحملقون حولهم بفضول وخوف، تكاد العيون تقفز من محاجرها في رؤوس تبدو غليظةً وضخمةً، لنحافة الأجساد، وعِظَم الكروش، وقلة اللحم على العظام، وبروز الأضلاع، وتفشي الأوبئة والأوجاع، فأوحشوا من نقصِ زادٍ، وخرابِ ملاذٍ، وضنٍّ ممن استطاع وغلبه الجشع من العباد، يوزعون نظراتٍ زائغةً من التعب البيِّن، والوهن الـمُعيق بلا جهد، والضمور عن مَسغبةٍ مبيدة، أكثر ملابسهم أسمال رثَّة، ورُقَع كِلَّة، يكاد أطفالهم يغلب عليهم العري، وأكثرهم حفاة جوعى، في أبدان مرضى، وافتقدت الجِلال من بَعْر وروث، وبها كانوا يوقدون المواقد للطبيخ والطهو والاستدفاء، لنفوق البهائم، وهلاك القطعان، وشح الحطب كما شح الكلأ لشح المطر، ولم يدفعهم ذلك رغم شظف الحياة وشدة الأحوال، لاحتطاب ما جفَّ ويبس من أغصان شجر بغابة «الحسك» خوفًا ورهبةً، قلة منهم فقط، يعيشون في رغد مستور عن الأعين والأصداء، وفي يسر يكتمونه خوفًا من صخب الغوغاء، وفي نِعَم لا يُظهرونها تجنُّبًا لضغائن الدهاء حين تعمى البصائر، فتهيج على المخازن والأقوات من عسل وسمن وزيت في الخوابي والجرار، وشعير وبر وسكر في الأكياس، يكدسون ويكنزون الأموال من تجارة مع المحتل، ولا يُزكُّون ولا يتصدقون ولا ينفقون في سبيل الله، وما رأيت أشحَّ منهم، ولا أكثر ضنًّا بأهلهم وبذوي القربى، وما رأيت أكثر منهم ادعاءً للفقر والحاجة والعَدمِ، وهم يتقلبون ويرتعون بحذر وسرية في الـمُتَع والنِّعَم.

حين علموا بنا، وعرفوا مَن نحن استقصاءً وخبرًا من العيون والجواسيس، جاءنا التجار والأغنياء والوجهاء في أرَثِّ الثياب وأغبر الكساء، وما دل على وجاهتهم وغناهم إلا ظهور النعمة على الأبدان والوجوه، وإن أنكروها وجحدوا السخاء، فطلبوا البركة على عادتهم، فأصرَّ وأفهمهم سيدي محمد الحاكي أن البركة في الإنفاق، وأن الخير في الإشفاق، والحسرة والغم في قطع الأرزاق عمَّن هم في عُسر من إملاق، وأن مَن عَسَّر على عباده وقبضَ يده وكدَّس الأموال، مهدَّد بزوال النعمة وتقلُّبها إلى نقمة، سخطًا من الله ولو بعد أحوال، فما قبلوا منه ما قال في البداية طمعًا وجشعًا وقسوةً قست لها القلوب حتى صارت كالحجارة، ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ صدق رب العالمين.

جاءه البسطاء والفقراء والمعدمون والمرضى والبؤساء، فداوى وواسى، ووصَّى بالاغتسال والطهارة وقايةً من الأمراض، وبالصلاة والعبادة، درعًا للاستقامة، لعل الله يُفرِّج الكروب، ويُطهِّر القلوب، ويغفر الذنوب، فيُحيي بالماء الأرضَ الموات، وما يُحيي الله مَن هم موتى أصلًا، وإن كانوا بين الناس أحياء يمشون، وأوصى بذكر الله حتى تطمئن القلوب، ويترمَّم جسر الروح التوَّاق للسماء والذي قوَّضته مآسي الحروب، وتوالي الكروب، وجشع الجيوب، وأوصى أن يحسنوا بالله الظن، ولا يقنطوا من روحه.

واجتمع عليه الناس من الفقراء والبسطاء على صلاة، فصلوا وراءه في الخلاء، فيهم الباكي والمنتحِب، والداعي ربه المنقلب، فصادف حلولنا ذاك العام رحمة من الله أن جاء الغيث بشارة سارة في غرة «أيلول»، وقد كانت قبل حارة، فانشرحت الصدور، وسرى الأمل في القلوب سريان مجرى المياه في المروج، فاعتقدوا أن الأمر من بركة وكرامة سيدي محمد الحاكي، وما له من كرامة إلا دعاء وتضرُّع مع من دعا وخشع بصفاء، جهرًا أو في خفاء، لكن ما العمل وقلوب الناس متعلقة بها يجمعها ويلأم جراحها من غيب الأمور والسماء.

صدق الوجهاء، فلانت القلوب، وخشي التجار والميسورون من دعوة لا تترك في البيوت، مالًا مكنوزًا من سُحت ورهون وديون، فأخرجوا الزكوات والصدقات، وأنفقوا مما أعطاهم الله، فصلحت البلدة، وجرى الخير بين أيدي الناس، فحصدوا وغنموا صيفًا ما يغنيهم عن مد اليد وحررت الرهون، وخصبت المراعي مما كثر في المواشي، فحلبوا وأرابوا وبسطوا، واكتسوا بعد عري وحفاء، وحفوا واعتنوا بعضهم ببعض، ففشت السكينة في القلوب، وقلَّت الجنائز والمآتم إلا جنازة شيخ عمِّر أو عجوز هرمت على كبر لا من مرض أو جوع، إلا ردى أو هلاكًا لأجل في كتاب سبق.

ودام حالنا على ما نحن فيه، بعد ما بنوا مسجدًا للصلاة على بُعد أميال من الدار، صار دار شوراهم، وقضاء فض شجاراتهم

ونزاعاتهم، وتفرَّق وقت سيدي محمد الحاكي بين الحياكة والإمامة، دون زعامة، فهي آخر شهوة في الولاية، وتفرغ لدروس الوعظ، والأخذ بيد من أراد الترقي في مسالك السرور بالعرفان والنور والقرآن الكريم، واختلى من حين لآخر في خلوات بالمغارة، ترويضًا للنفس، وتطهيرًا للقلب، وجمح عنان الشهوات حين تطلب الرياسة، بالفتوى والقيادة في البداية، فتغوي الأمارة بالسوء، فيكبر الطموح إلى الإمارة، ولا يصلح معها غير الجوع والحرمان، ولا يختلي في خلوة إلا إن ضمن قوة أيامها من كَدِّه، فلا خلوة لمن صار على الناس عالة، ولا زهد لمن أطعمه الناس وهو في عبادة. وأخْذُ العابدِ الناسِك المنقطِع عما حوله ما يقتات منه من أقوات الناس عطاءً وصدقاتٍ أو هدايا يُفسِد الخلوة، ويُغوِي بالحظوة، ويُبدِّد الأنوار والأسرار، فلا ستار يُرفع، ولا رؤية تَعرِض، والعابد عالة لا يعمل.

فرض المحتلُّ الغاصب مُكوسًا جديدةً وضرائبَ ظالمةً، وإتاواتٍ جائرةً، أثقلت الكاهلَ على الفقير والغني، فأنقض حملُها الظهرَ والحملَ، فأرخت بظلالها القاتمة الكئيبة على النفوس السقيمة، التي تملَّكها الغضب والضغينة، وصادفت احتباس الغيث من جديد عام ١٣٣٩ من الهجرة موافق ١٩٢٠ من الميلاد، وكانت سنةً رمضاء حرَّاء، كثيرة الأنواء، بلا نفع شتاء، ولا مطر ولا غيم لاقح، حمَّاء صيفًا بلا أنسام ولا حشائش تكفي السارح، وكان المحتلُّ حازمًا بشدة واستعلاء على دخول البلدة عنوةً، والعبور إلى جبل الغور، لاستغلال

منجم الفضة بالقوة، وقد استَنزفَتْ خزائنَ فرنسا الحربُ، وأنهكتها مصاريفها الكثيرة، ورأى الأحرار من أهل بلدة الغرافين في ذلك استعبادًا واسترقاقًا، جورًا وظلمًا وبغيًا، وكان الجبل جزءًا من حياتهم في الترحال والظعن حين تشح المراعي القريبة، ومصدرَ عزَّة لهم، وضاقوا ذرعًا وهم في شظف العيش وضيق، من تكاليف مادية يتحملونها بنفوس غير راضية، ورفضوا هذا الجور والعبور المشؤوم نحو البلدة، فانتفضوا واستنفروا قبائلَ أخرى من التخوم والجوار وحشدوا العتاد والرجال، وألزموا سيدي محمد الحاكي أن يدعو للجهاد ورد المعتدين، وبايعوه على الموت والحياة بيعةً لم يطلبها، وهو رافض للخوض في صراع الدنيا، مهما بلغ بالناس من مُلمَّات وبلايا، وكان مبدؤه النأيَ عن السلطان وأمور الحكم والعمران، فما عذروه ولا أعذروه حتى صخبوا عليه وكادوا أن يُخَوِّنوه، فانقاد للأمر، وانصاع مُكرهًا مرغمًا، فدعا للجهاد، وحشد الهمم والعزائم، لرد الظالمين مدحورين صاغرين، دون تمثيل ولا حرق ولا تنكيل، فالأسير عنده كريم، ومن جَنح للسَّلْم عزيز، والأعزل ليس بغريم، والشيخ الضعيف جليل، والمرأة في حرمة من الدماء والغصب، والذراري أبرياء في حِمى الأتقياء، لا يمسهم ظلم ولا جور، فأجمعوا على وصيته، وكان السلاح بندقيات عتيقة، وخناجرَ وسيوفًا بائدة، وكان العدو قويًّا بالمدافع والعيون، وبالأسلحة الحديثة والطيران، فكَرَّ في كواكب الرجال على صهوات الخيول، فسقطوا شهداء بقذائف عمياء، واستمر الكر والفر، والإقبال والإدبار أيامًا

وليالِيَ، والبلدة محاصَرة، وعلى المنحدرات تفرَّق الرجال، يتسللون ليلًا إلى مواقع العدو، يلُفُّهم الظلام غطاءً وترشد أقدامهم معرفتهم للأرض والشجر والصخر، فيضرمون نارًا في مخيَّم أو يذبحون حارسًا على باب معسكر، حتى إذا ما ملَّ العدو من تسليم البلدة، قرر القصف من أعالٍ بالطائرات التي لا تُفرِّق بين مُحارِب ومُسالم، وبين طفل ومجاهد، وبين امرأة ومُقعَد كسيح، وبالمدافع الثقيلة دكُّوا البيوتَ والدور دكًّا على رؤوس ساكنيها، حتى سقط الشهداء بالمئات من النساء والرجال، وهلك الأطفال، واشتعلت البلدة نارًا يسري كالهشيم بين الدروب وعلى الشعاب، وهُدِم المسجد بعد ما لاذ ببيت الله تعالى مَن فرَّ من الضعفاء والعجزة والأطفال والنساء، فسال الدم يجري كالأنهار، وعند غروب الشمس تقدمت قوات المحتل الغاشمة، تُفرغ الرصاص الساخن على مَن ما زال فيه رمق من حياة، أو نفس في احتضار، لا تمهل جريحًا ولا طريحًا، وتردي كل من كان على الطريق. واختلى سيدي محمد الحاكي غير فارٍّ من قدَرٍ، ولا مُدبر من عَدُو، يغلبه الإجهاش بحرارة، متضرعًا عابدًا في المغارة من هول ما رأى وثقل ما سمع مما روى الشهود من سوء الأحوال والأهوال، ومن جريان الدم البريء في الدروب، حتى علا لغمه الشديد الإرنان والعقير، يقضُّ الندمُ كبدَه قضًّا غير رحيم، حتى حمَّل نفسَه كل العواقب، فضاقت به الدنيا بما رحبت، ففزع إلى خالقه، جاثيًا على ركبتيه طالبًا المغفرة والعناية، والعون والهداية، وظن أن ربه تخلَّى عنه، أو ابتلاه بما لا يقدر

عليه، فألح في الدعاء للإعفاء من الابتلاء، وظل حاله كذلك بلا طعام ولا شراب، حتى صام عن الكلام، وغاب عنا بعقله وروحه، لا ندري كيف نعيده لعالم الحس والجوارح.

تسلل ليلًا رجلان لم ينضمَّا إلى المجاهدين وهما من الوجهاء، وكانت لهما مصالح مع الاحتلال، وتستَّرا بالعتمة والليلة ظلماء، فحدثا سيدي محمد الحاكي عن نية حاسمة مبيتة لقوات الاستعمار بقصف المغارة، وهو صامت لا يجيب، غائبٌ عمن حوله، معطلٌ كل الجوارح إلا البصيرة، لا يزكي ولا يعيب، يحضر ويغيب، وحين يحضر ينيب، وحين يغيب لا يميد، فألَّحا عليه وهو حيث هو، لا سمعَ ولا بصرَ له، غير ما يشهد ويسمع فلا نراه ولا نسمعه، كأنه مسُّ جنون، أو لوثة عقل، وأنا أدرى بمقامه في رحلة الروح، فزعًا إلى رب الأنوار والفتوح، حين تنقطع عن الدنيا، وتحلق في عالم الشروق والبوح.

وخرجنا بقرارٍ وتصميمٍ مني، فعبرنا طريقًا على جانب غابة الحسك، وإن أصرَّ الرجلان في البدء ألا نمر منها رهبةً من مجهول متخيَّل، فاطمأنَّ الرجلان وفينا العابد المقرَّب إلى الله، على أن يسيرا معي حتى صارا معنا في الركب المسافر نحو السودان، وقفلا عائدَيْن، بعد ما مات سيدي محمد الحاكي السوسي رحمه الله، مات مبتسمًا يمدُّ يده لشيء لا نراه بانشراح وسكينة أفرحه فأبرقت عيناه نورًا وأمَلًا، وحين استعدَّتِ الروح فيه للرحيل، وجب البوح، ففاضت مع الروح والجروح شذرات

من أنوار الفتوح والحبور وهو على جسر العبور نحو الحضور الممتلئ لا الفناء، وهمس: «لا تلحدوا قبري، ولا تُعلِّموه بشاهد، ولا تَنْعَيْني للقبائل على الطريق يا أمونة...! حتى لا يغدو عندهم قبري قِبلةً، ثم ضريحًا باسمه تُقام المنكراتُ، فيُتَوَسَّل بي بغير حق إلى الله، أو يطلبوا عطاءً ولا أملك لنفسي إلا أن أوصيكم بالدعاء لي والصدقات، لا تجعلوا لقبري علامةً، ولا في خبري نَبوءةً ولا بشارةً، ولا لحياتي مَكرُمة أو طريقةً، فيغدو لحدي جحيمي قبل حشري، ومطافًا وقِبلَة للجُهَّال، ألا إني أُشهدكم ألَّا طوافَ غير طواف الكعبة، ولا ذبيحة إلا ما أُهلَّ بها لله، فعَتِّمي على مكان دفني، حتى لا تصير حجارتي مذبحًا لذبائح يُهَلُّ بها لغير الله، فما أجهل الناس عند اليأس والبأساء، وما أسهل غوايتهم عند النوائب والفواجع، وما أسهل استمالة اليائس الفاقد للأمل بشَرَكٍ خفِيٍّ من الدجل، وصدق رب العالمين حين قال: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾.

وعلمتُ من أنباء الركوب والقوافل والوفود، أن المغارة قُصِفت بعد رحيلنا بزمن قليلٍ، وصدق الرجلان في التنبيه، وظنَّ الناس أن الحجارة الغليظة طمرت سيدي محمد الحاكي وزوجتَه وابنه اعتقادًا لا كذبًا، فلا أحد علم برحيلنا غير الرجلين، فتحولت إلى مزارٍ وقِبلةٍ لكل يائس أو مظلوم، وقد ادعت امرأة فيهم أنها تملك سر الولي، رؤيةً وخبرًا في خاطرٍ أو إلهامًا في خلوة، فاستبدَّتْ حتى أخنعَتْ، وطغَتْ

حتى روَّضَتْ، وروَّعَتْ حتى تمكَّنَتْ، وصار كل الأمر إليها في بلدةٍ فحُشَتْ أخلاقُها، وتهتَّكت من أهواء زوارها، وصار ثراء المرأة المسماة «العالية» من وهم مكينٍ، وتجارتها من سرابٍ دفينٍ، وحُكمُها من تحالفٍ قويٍّ بين المال والجهل، وما زالت فيما هي فيه، حتى استغاث بي الشهيد رحمه الله، وألحَّ في أكثر من رؤيا على تحرير المغارة من الشرك باسمه، والناس من العبودية بسمعته، وعجبتُ لإلحاحه وهو يعلم أني عاجزة غير قادرة على المهمة، حتى استفتيتُ قلبي، واستخرتُ ربي، وقررتُ كشف الأسرار، فبسطتُ الأمرَ لابني وقد صار قويًّا في عنفوان شبابه، علَّه يُحسن خاتمةَ أبيه، ويُبدد عن بلدة أهل الغرافين غمامة الجهل والاستغلال، ويهدم معبد الشرك والاستعباد».

والحمد لله أنني أبلغتُ وبلَّغت المراد للعباد من النساء والرجال، وما تقاعستُ ولا تغافلتُ، حتى تنكسر القيود والأغلال، وليعلموا أن الشهيد مات وهو يوصي: «لا تتخذوا قبرًا قِبلةً للدعاء، ولا ضريحًا للطواف، ولا حجارةً على دفين للقربان، ولا ذبيحةً إلا لله وباسم الله، ولا تُصدقوا حلولًا ولا اتحادًا، ومن قال بهما ما أشرك لكن غلبه الحال على المقام، فوصف الغائب بالشاهد، وشتان بين المقامين، ولكل مقام رؤية بصيرة، لا تحوط به لغة ظاهرة، ولا بيان من ألفاظ عاجزة، ولا إشارة حائرة، ولا تعابير قاصرة، وكل وصف لحضورٍ تفنى فيه الذات ولشهود بلا جارحة شططٌ يُزهِق روح العبارة وتكلُّف يوظف اللفظ فيما لم يُخلق له في الإفهام والفهم من عالم الظاهر لا الباطن، والتصوف

نعمة ذاتية في الذات من أجل الحق، وعين الحق هي استخفافٌ بنعم زائلة في الحياة الدنيا، نكران حتى الفناء لغواية في شهوة أو طعام وشراب، ومتعة مفرطة لما لذ وساغ وطاب، لكنه في البدء جهاد بالعمل وبأسباب الحياة، ثم درجة من الإحسان تُغني المتشوِّق عن البيان، ومن أراه ربه نعمة في خلوة، فلا يغتر بها، بل لا يلتفت إليها، لتتدفق عليه أسمى منها تباعًا، والبوح يقطع المدد، والصمت عن الكرامات حجة للولي، والبوح بها حجة عليه».

وقَّعت الصحيفة وشهِدَتْ على صحَّتِها الفقيرة إلى الله أمونة السودانية الدامرية الجَعَلية، بالدامر في أرض السودان ليلة الخامس من رمضان عام ١٣٥٤ من الهجرة الموافق ٣٠ تشرين الثاني ١٩٣٥ من الميلاد.

تسلل ضوء الفجر إلى باحة الدار، حاول «سي حمو» أن يوقظ «زخارى» بلين ولطف، مربتًا على كتفه بحنوٍّ، حتى رأى أنه لا يستجيب، فرَجَّه رجَّةً خفيفةً صحا لها مذعورًا، وكان ثقيل النعاس، مضطربَ الصحو، فانتصب واقفًا يتمطَّى متثائبًا، وخطوا معًا نحو الخارج بصمتٍ رهيب، وإدريس السوسي يُشيِّعهما بنظراتٍ متعبةٍ من السهر، ثم توقف سي حمو وعاد إليه مرددًا وهو في عجلة من أمره:

- أرجوك...! لا تُشِع الخبر الآن... ولا تُقدِم على شيء، حتى أعود في الصيف ونتدبَّر خطة محكمة لإسقاط الوهم وإنقاذ العباد

من الدجل... عدني عهدَ الله... «الله يخليك» حتى يطمئن قلبي عليك...

- أعدك... يا فقيه...!

- شبِّكْ أصابعكَ وأصابعي وأَقْسِمَنَّ بالله على الوفاء بالعهد...

- أعدك بالله يا «سي حمو»... سأنتظر... على أحرَّ من الجمر... الحرب ضد العالية جهاد أصغر فقط، أما الأكبر فهو إخراج المحتل من البلد...

- نعم... ولكل قضية تدبير.

يلوح له **زخارى** من بعيد وهو ما زال يتمطَّى من كسل ويتثاءب، ويشده عطاس قوي من لقاح يحمله الريح، يفرك عينيه بقوة، ثم يغيب بين الحشائش لحظةً، فيعلو صوت تبوُّله كالجرجرة، وحين انتهى دلف وراء «سي حمو» متثاقلَ الخطو، يلهث على ديدنه، ولا صوتَ يشقُّ صمتَ هذا الفجر غير نباح الكلاب، ونعيق الغربان، وجشأة الريح، وصياح الديكة.

٨

طال انتظار **إدريس السوسي** المرير «**لسي حمو**»، وقد عاهده ألا يتخذ أي تدبيرٍ حتى يعود في الـمَصِيف، وكل يوم يمرُّ عليه في بلدة الغرافين - وهو كاتم للسر، كاظم لثورةٍ لا تهدأ عاصفتُها الهوجاء في دواخله، مؤجلًا إفشاء الحقيقة والجهر بها - يزيده اكتئابًا وعصبيةً، وعزلةً وحزنًا، ويغدو عليلًا بلا مرض، وغليلًا بلا عطش، وهو يرى بعجزٍ كلَّ هذه الفوضى في العقول والجهالة في الصدور، واسم أبيه هو الحجة عند المفترية «**العالية**» لترويج كل بدعة، وبرهانها لاستلاب العقول في كل دعوى، وصك تجارتها لتكديس الأموال والأقوات في كل خرجة، والتقلب في النعمة بلا حياء ولا حشمة، باسم الدفين المفترَى عليه ظلمًا.

لا يبدد هذا الغمَّ الجاثمَ على صدره غير مراوغة الزمن البطيء والانتظار اللحوح بخمارة زخارى حيث يجد السبيل إلى سلام نفسي مؤقت، وإلى هدنة عابرة مع هواجسه المقلقة، كأنه هنا بين جدرانها القاتمة بين هؤلاء السكارى والمومسات يعبر منطقةً معزولةَ السلاحِ مع لواعجه وأسراره، أو في لحظة إعلان لإيقاف إطلاق النار على الروح والعقل.

ينظر **زخارى** جهة المقصف نظرةً ذات معنى في وجه زوجته

«**شاميرا**»، تغيب لحظةً وتعود، وتضع صحن طعام من خُضَر على طاولة إدريس السوسي الذي يشكرها بابتسامة وحركة من رأسه، ويقول بقلق:

- يا **زخاري**...! مر شهر... لم أعد أطيق الصبر والسر صار حبل مشنقة لي كل ليل!

- اصبر يا صاحبي حتى يعود الرجل...! فهو خير سندٍ لك في معركتك القادمة.

يمد زخاري يده إلى الصحن ويستطرد:

- إيه...! يا رجل...! سحرتَ «سي حمو»، حتى عجبتُ لأمره، فقد كان المسكين في طريق عودتنا تلك الليلة، يكلم نفسَه كالمجنون، حتى أشفقتُ عليه، وكان يردد: «مفتاح القضية، الرجلان اللذان رافقا الشهيد حتى مثواه، وعادا... وهما الشاهدان الأساسيان، يا ترى مَن هما...؟ من هما...»؟!

يفرك إدريس السوسي حلمة أذنه، ثم ينزع قبعته الأيرلندية الطراز، ويخلل شعره بأصابعه، ويقول وهو ينفث سحابات دخان تتشكل دوائر فيتعقبها منتشيًا ببصره:

- سمع مني من أسرار الزاهدة أمي أمونة السودانية أمرًا ثقيلًا يا زكريا...! نعم... أمرًا ثقيلًا... وهو بين نارين على ما أظن، نار الصمت عن الفضيحة، ويضمن بذلك أقوات العباد واستقرار

البلاد من تجارة قائمة على دجل وجارية من شعوذة وجهل، مع تحمُّل وزر وإثم الناس لو اختار هذا التدبير، أو الكشف عن الحقيقة، ويكون قد بلَّغ وتبرَّأ من إثم قومه، فإن تبعوه، خربت البلاد بالحقيقة، وانقطعت عنها موارد العيش، وجفت منابع التجارة، لكنها ستغتني بالحرية، وتخرج للنور، وتنفض عن نفسها غبار العار والخنوع، وتلِجُ دورةَ حياة جديدة، تؤمن فيها الحاجيات بالعمل لا بالدجل.

- هل فكرت في تدبير ما...؟!

- هل تظن أن الجهر بالأمر كافٍ بين قوم قلب تجارتهم النابض كذبة تغذي شرايينها، وتأسست عليها أنساق اقتصادية؟! أتظن أنه لن تكون هناك مقاومة ضد الحقيقة، من أجل مصلحةٍ تتَّحد فيها الأهواء عند الوجهاء والغوغاء، ولو علموا أنهم على باطل؟! الأمر يا زكريا يحتاج إلى تدبير وأنا على عهد «سي حمو» منتظر حتى يعود، ونرى رأيًا مشتركًا، فهو نفسه محمَّل برسالة محاربة الشرك والضلالة والجهالة.

ينهض زخارى مدلفًا وهو يشمِّر عن ساقيه الرقيقتَيْن، ويجر قدميه كمن به عرج خفيف، متجنبًا أن يتعثَّر بتلابيب جلبابه، يتجه نحو المقصف، لحقت به ابنته «فاريديا» يهمس في أذنها وهي منشغلة بالنظر إلى إدريس السوسي بفرحٍ، ثم ينزع جلبابه وقد أعاق حركته، ويرتدي

سترة زرقاء طويلة، يعود إلى صاحبه وهو يتأفف:

- الجلابيب تنفع في الصر والبرد الشديدين، قد اعتدل الجو ربيعًا، فما صارت لي حاجة إليها.

ثم يستطرد ضاحكًا:

- وهي تعوق العمل بخفَّة، والحركة بعجلة، وعندما يلحُّ البول والغائط على الإنسان يلزمنا ما يلزم حتى نكاد نبلل أنفسنا.

ثم تغلبه قهقهة، فيضرب بقبضته على الطاولة، تكاد أنفاسه تنقطع وسعاله يشتد، كمن غدا في صدره حرج، فتتداعى لأمره نفسية إدريس السوسي، كمن أصيب بعدوى الضحك، ويقول بسخرية:

- وعند الغائط والتبول... تصير المهمة شاقة، ربما تتبول في ثيابك قبل نزع جلبابك... وربما علق بثوبك الغائط دون أن تدري.

- اصمت... يا لئيم...! لا ننزع الجلابيب لذلك، فقط نشمرها يا جاحد...

يرمي إدريس السوسي بنظرة خاطفة نحو المقصف، لا يجد «فاريديا»، يبحث عنها وهو يكنس ببصره الفضاء، يلمحها تنزل القبو وتصعد بمشقة وهي تحمل براميل متوسطة الحجم لكنها بها خمر «ماء الحياة»، يلحق بها مسرعًا، تبتسم له على الأدراج وقد تجاسدا حتى التصق صدره بصدرها وتقاربت الأنفاس وتزاحمت نبضات القلبين الخافقين وهي تحشره بجسدها مُضيِّقةً عليه ممرَّ العبور، يحشر نفسه أكثر

على الحائط فاسحًا لها الطريق حتى تنزل، ثم ينهمك في حمل البراميل إلى الأعلى، وهي جالسة على كيس التين الجاف، تُسرِّح شعرها بيدها بغنج ودلال، وتشير عليه بما يجب أن يفعل، وكان قوي البنية، لا يهده ثقل ولا وزر أي حمولة.

لعْلَعَ الرعدُ قويًّا مدويًا فجأةً، وأبرقت البروق، ونَفَجَت الريح نفوجًا قويًّا، على حين غِرة، وتغيَّرت الأجواء الربيعية دون سابق إشارة أو إنذار، من صفاء سماء إلى تلبُّد بغيم ثقيل، وعاصفة رعدٍ ذات قصفٍ، فصرخت «فاريديا» فزعةً، وانطفأ قنديل القبو، فعمَّ الظلام، وقفزت الجرذان بين قدميها، فسرى في قلب الفتاة خوف، فارتمت في حضنه بهلع وجزع، فضمها حتى هدأت، ثم أبعدها بلطف، وطفق يعالج القنديل ليلهب زيته، يصعد بعد ذلك الأدراج الخشبية وهي تُشيِّعه بنظرات يختلط فيها التذمر والإعجاب، وقد هفت إلى قبلة منه على شفتيها.

يغادر زخارى المقصف، وهو يمسح يدَه بمنديل متدَلٍّ على كتفه، ويتوجَّه بالحديث متهكمًا على زوجته التي كانت منشغلة بترتيب الأقداح ومسح الصحون، بابتسامة ساخرة وعينه تغمز:

- أرأيت يا **بنت عاميت**...؟! يا «**شاميرا**»...! همَّة الرجال! في لحظات فَعَلَ إدريس السوسي ما تفعله «**فاريديا**» طيلة اليوم!

تنظر «شاميرا» إليه نظرات قاسية، ثم تتجهم عابسة حتى تتجعد

خطوط جبهتها، تخفض حاجبًا وترفع آخر، وتتلوى بغيظ وقد شدت بيديها على وركيها وتصيح مزمجرة:

- وأنت يا ابن «بنخانان»... أتُعوِّل أيها البغل على النساء؟!

ينظر حوله كمن صُعق وهو يحملق بسخرية، يقلب نظره في صالة الخمارة، يصفق بكلتا يديه، ثم يصيح وهو ينطُّ نَطَّ المهرج بصوت ساخر باستهزاء:

- وأين هن النساء يا بنت عاميت...؟! لا أرى غير الجالسات على الطاولات... والجميلة «فاريديا»!

يضج المكان بالضحك، فيلتفت الجنود الفرنسيون وبعض الزنوج المجندين، صوب المقصف وعيونهم تدور بحثًا عن سبب هذا الضحك العالي، فينخرطون هم أنفسهم في الضحك، بعد ما رفع ضابط لـ «شاميرا» قدح نخب وضحك ضحكًا عاليًا.

تتوتر «**شاميرا**» ويتملكها الغضب، فترمي في وجه زخارى منديلًا ثم ترشقه بصحن، فيهرب منها كالقط الخائف، متحصِّنًا بالطاولات، يدور حولها فيشق عليها الإمساك به، حتى شحب وجهها من الجهد وهي تتوعَّده وهو يلتمس العفو والسماح بحركات توسُّل بأصابع على شفتيه، فيشفع له عندها إدريس السوسي مهدِّئًا إياها بكلمات طيبة:

- يا «شاميرا»...! إنه يمزح... سليني أنا...! فأشق يوم عليه هو يوم ترحلين للعبادة مرة في الشهر إلى فاس في «كنيس» الفاسيين، يُصاب بالأرق ليلًا ويبكي لغيابكِ... والله...!

يحدجه زخارى مستنكرًا:

- اصمت يا رجل...! ستصدقك وتغتر...!

يغمز له إدريس السوسي مختلسًا نظرات متتابعة ويهمس له:

- دعها تفرح يا ماكر...!

فيفتعل الزوج حبورًا وابتسامة رضا وهو يغمز ويلمز:

- طبعًا...! طبعًا...! فهي حياتي... ونور عيني...

ينشرح وجه «شاميرا»، تبرق عيناها، تسوي منديل شعرها، تبتسم نشوةً من الإطراء والغزل، وتعود إلى المقصف، وقد تهلل محياها، بينما تدنو من إدريس السوسي «فاريديا» وتهمس في أذنه وهي تتدلل:

- إدريس السوسي أم إدريس فقط... بمَ أناديك...؟

يرفع بصره، يتفرَّس في الوجه الجميل، وتقع عيناه على اللحظ البهي الكحيل، والصدر الصارخ بالأنوثة من ثديين منتصبين تكاد حلمتاهما تخرقان الكساء، يتعقب خطواتها بتهتُّكٍ وجسمها البضُّ يهتز، وكانت معتدلةَ الطولِ، ممتلئة الجسم دون اكتناز ولا سُمنة، ضامرة البطن رغم ذلك، ضيقة الخصر، هدباء رمشاء، بيضاء البشرة مع ميل إلى الصفرة، رقيقة صغيرة الأنف، ممتلئة الشفة السفلى، واسعة العينين، ويزفر زفيرًا طويلًا ويقول بصوت خفيض:

- فاريديا... لها الخيار ولنا الرضا... ناديني بما يروق لكِ، ويسرُّ قلبَكِ، ويَسْهُل نطقه على لسانك، متناغمًا مع وجدانك...

- لم أكن أعلم أنك ذئب... وحلو اللسان... يا ماكر...!

يرفع بصره إليها، فلم تكن أساريره تنفرج إلا لها، ويتعقبها بنظراته وهي ما زالت تخطو متهالكة، تقف لحظة، ثم ترمقه بنظرة زائغة وتقول:

- يا ثعلب...! يا ليتني أعرف ما في صدرك...!

فجأة يلج كالظلِّ المترنح، مداح العالية «الرقاص الملهوف» وقد كان شديد القِصَر، غنجوفًا، يرتعش كعادته بلا قرر غير مبلل الثياب، فالعربة التي يستقلها مغطاة دافئة، فلم يُثِر انتباه أحد غير «فاريديا» التي تأفَّفت، وإدريس السوسي الذي انتابه الغضب والحنق عند رؤيته، وردد في خاطره: «جاء الكلب يستطلع الأخبار، ويزوِّد سيدته بها... ولم تمنعه هذه العاصفة الموسمية من الخروج»، وكان يكرهه كرهًا شديدًا ويبغضه لوظيفته الوسخة في دار **العالية** الكبيرة وراء الأسوار العالية، فهو مدَّاحها وناشر كراماتها المزعومة في الأقاليم والقرى والحضر، فحدجه بنظرات قاسية، رفع الغنجوف يده ملوحًا بتحية، فلم يردَّ على تحيته، تجاهلًا منه واستصغارًا لشأنه، بل ظلَّ واجمًا في وجه «الحكواتي» المختص في ترويج أسطورة العالية، وصناعة صورة ملائكية عن شيطان في أثواب بشرية.

حمحمت الخيول، فاشرأبَّ «الرقاص الملهوف» برأسه من النافذة المطلة على الطريق، وأمر الحوذي أن يركن العربة أمام بوابة الخمارة، وينتظره تحت العاصفة الشديدة وإن لم تبرد الأجواء بردًا لا يطاق، ومن حين لآخر كانت السماء توزع وابل مطر بجنون.

دنا «الرقاص الملهوف» من المدفأة، ليدفئ جسده وعيناه تكنسان الفضاء، وهو يفرك يديه، ثم جلس على المقصف، ونزع القفازين، ووضع طربوشه الأحمر ومحفظته الثقيلة جانبًا، وبدأ يلتفت في كل اتجاه لمعرفة الوجوه ورصد الحركات والشخوص.

تلكأت «**فاريديا**» في خدمته كرهًا لخلقته، وتذمُّرًا من وظيفته، وانشغلت عنه عمدًا بترتيب القوارير والأقداح على رفوف جدارية، فظلَّ يصفق باستغراب وحنق طلبًا للخدمة، وقد دخل الخمارة وهو يعتقد أنه سيدٌ سيَقِف له الرجال، فوجد الجنود الفرنسيين، فاستصغر نفسه، ووجد إدريس السوسي وقد رأى منه ما رأى من شدة مع الذئب، فضَؤُل شأنه، ولاقى من «فاريديا» ما جعله يشعر بدناءته وخِسَّته.

يطرق الخشبة بمفتاح بيده، وهي متجاهلة له كأنه غير موجود، حتى نفد صبر «الرقاص الملهوف» وقال بتذمر:

- يا زخارى...! يا «عرة» اليهود...! ألن يشرب الليلة... كاتب «العالية»؟!

نظرت «فاريديا» نظرات تساؤل واستنكار وقد جحظت عيناها غضبًا إلى أبيها ورمقت «الرقاص الملهوف» بنظرة قاسية، حتى خشي الأب أن تشدَّه من ياقة قميصه وتخنقه، فتلهَّت عنه بمسح الأقداح بتذمُّر وتأفُّف، تملك الغضب إدريس السوسي، فهمَّ واقفًا وفي خاطره نية سحق رقبته، فشدَّه زخارى من قميصه، وأجلسه، فتضاءل حجم

«الرقاص الملهوف» وتكوَّر من خوفٍ وهو يرى شرارة غضب مستطير في عيني إدريس السوسي الذي رد عليه بحنق:

- هذا اليهودي سيدك وأطهر من سيدتك يا كلب...

لاذ «الرقاص الملهوف» بزاوية بعيدة على المشرب، بعيدًا عن النظرات التي صعقته، أشار زخارى إلى ابنته بيده أن تسقيه مهوِّنًا من الأمر، تجنُّبًا لما قد يُقدِم عليه صاحبه ذودًا عنه، فتسقيه بجفاء ونفور قدح خمر، بسوء خدمة وبفظاظة، حتى كاد القدح يندلق من ذلك، فرمى به في جوفه، علَّه يُبدِّد اضطرابه وإحساسه بالاستصغار، ويقول لها وهو يعد «الفرنكات» في صرة من جلد، ويحركها:

- يا غزال...! منكِ النظرة، ومنَّا الرنة... «منكِ الرضا ومنا العطا».

فترد عليه الفتاة بجفاء وخشونة وهي تستصغره بنظرة ساخرة، ترفع حاجبًا وتُنزِل آخر:

- يوم ترى القمر بالنهار... والشمس والنجوم بالليل... وحلمتَيْ أذنيك تعالَ إليَّ...! لن تجد مني غير العصا يا وجه البوم...!

- تمنَّعِي ما شئتِ...! المال وفير... بإشارة منكِ أفرشه لك فراشًا... وأنثره على الطريق.

- اشترِ به مرآة لترى وجهك القبيح يا وجه الشؤم!

- اعطفي... نعطف... ولأبيك ولك عند «**العالية**» تصير الحظوة والمقام الرفيع.

- عطفي لا يستحقه الطبال في موكب الدجالة...

- أجننتِ...؟! أتشُكِّين في بَرَكة «**العالية**»؟!

- يا وجه القرد...! لا يهمني.. لا «**العالية**» ولا الجن الأزرق.

- يومًا ما سأجرك إلى الدار الكبيرة جاريةً، تجثين على ركبتيك، وتطلبين الرحمة مني قبل أن تطلبيها من «العالية».

- يومها... سأقتل نفسي قبل أن تمتد يدك العفنة إلى جسدي.

- آه...! لو يخلي «الكولونيل» بيننا وبينكم لجعلتك كلبةً من كلاب البلدة.

يتملك «فاريديا» غضب شديد، تتقلَّص عضلات وجهها، ثم تصفعه صفعة قوية، فيسقط من على مقعده، وينهض وهو يتلمس أثر الصفعة على خده ويردد وقد جحظت عيناه:

- يا عاهرة...! ستدفعين الثمن غاليًا.

ينتفض إدريس السوسي واقفًا مزمجرًا جامعًا قبضته عازمًا على لكمه، وفي عينيه الحمراوين تطايرت شرارات الغضب، خطا خطوته الأولى نحو المقصف، فجره جرًّا وبقوة زخارى من حزامه وقال وهو يهدئ من روعه بإشارة من يده:

- تمالك غضبك رجاء...! دعه...! فهي كفيلة بردع أمثاله.

يتهالك على كرسيه بغضب ويقول بحنق وبصوت مجلجل:

- يومًا ما سأقتلك يا طبال العالية هذا.

ينتفض «الرقاص الملهوف» خوفًا، ويتحاشى النظر جهة إدريس السوسي، يكنس الخمارة بعينيه وهو يحملق في الوجوه، محرَجًا من الصفعة ولم ينفكَّ يتلمس حرقتها، مذعورًا يركبه العار، وقد عكست عيناه عمق إحساسه بالخزي والهوان، يبدو أنه تفاجأ بإدريس السوسي يرشقه بنظرات حارقة غاضبة مرة أخرى، فيرتسم على وجهه القلق والاضطراب، مهرولًا يخطو نحو الباب بارتباك، يكبو رغم أنه لا يرتدي جلبابًا بل سترة طويلة ويلبس سروالًا قصيرًا منحسرًا عند الساقين فضفاضًا عند الحجر، وينتعل حذاءً عسكريًّا من سقط متاع الثكنة، فترتفع قهقهات الجنود الفرنسيين.

تدور عيناه في محجريهما حيرة، يهتز كطائر بري حبس توًّا في قفص، فيسقط طربوشه الذي تدحرج حتى استقر تحت طاولة بين سيقان أربعة جنود، فيحبو نحوه، ويمد يده بمشقَّةٍ متحاشيًا إزعاج الجنود ليلتقطه وهو يحييهم مفتعِلًا ابتسامةً لم تُخْفِ جُبنَه، يضع أحد الجنود وكان قد أسرف في الشرب، فطفح سكره، جزمتَه على رقبته، وهو يضحك ويُقبِّل مومسًا في شفتيها التي اغتبطت من المشهد الذي غدا فُرجةً ممتعة فأشعرها بالحبور وزاد من نشوة الخمور، فاهتزت المرأة سكرًا واهتزازًا كأنها مصروعة، وظهر جليًّا أنها تكن للمراقب حقدًا دفينًا وضغينةً خفية، أو أنها تتأثر لفاريديا على طريقتها، فطلبت المزيد والمزيد من خليلها وهي تغمره قُبلًا، وترفع له الأنخاب كمن فتح

فتحًا مبينًا، فيستجيب الجندي بحماسة ومجون، ويفرغ عليه قدح نبيذ كصب الماء في القوارير وهو يضرب برجله الأخرى الأرض، فتضج الخمارة بالضحك والقهقهات والصياح والهتاف، وهو لا يملك لنفسه غير التظاهُر بالرضا والضحك حين يضحك الجميع، وتوزيع التحايا والابتسامات المفتعلة، وعيناه حائرتان تترجمان تِيهًا ووجلًا، وتختلسان النظر لمحات متقطعة من حين لآخر في الخناجر الحادة المصقولة البراقة، والمسدسات في الأغماد، والبندقيات على الأكتاف.

ينهض دون أن يدير ظهره بمسكنة ومذلة، ثم يهرع بخطوات عَجلَى خارج الخمارة، ولا يُسمَع منه إلا نهره للحوذي الذي حث الفرس، وصوت السوط يلوح قرب أذني البهيمة، التي انطلقت راكضة.

بعد لحظات، يمرق «الذئب» الغِطْرس رئيس عسس «العالية» إلى صالة الخمارة، وهو يوقع وقعًا شديدًا ثقيلًا حذاءَه الغليظ على الأرضية بضجَّة متعمِّدًا هزَّ معنويات الآخرين، وقد كان متعجرفًا، متكبرًا حتى ساء طبعه، وقلَّ رفاقُه، وانفضَّ من حوله ندماؤه، ونأى عن مجلسه الناس، فغدا وحيدًا منزويًا، بلا صديق ولا رفيق غير ظله وكأسه، فينهض زخارى مهرولًا دون مسكنة ولا مذلة، مرحبًا ببشاشة، فيدفعه زجرًا بعيدًا بقوة، حتى كاد إدريس السوسي ينهض ليردع غرور هذا الصعلوك، لولا أن «شاميرا» أشارت إليه باستعطاف وتوسُّل بإيماءةٍ أن يهدأ ويتمالك أعصابه، وأصابعها تربت على شفتيها بقلق يوشك أن يقفز من نظراتها الخائفة.

يسوط «الذئب» بسوطه في الهواء، ضربتين نزقتين طائشتين ملعلعتين، ثم يجلس على طاولة قرب المدفأة وهو واجِمٌ فيمدُّ رجليه على الطاولة وهو يدخن سيجارة، بتكبُّر جارفٍ واستكبار متنطِّع، تعكسهما النظرات والحركات، بإشارة من أبيها تسرع «فاريديا» دون تهتك، فتسقيه نبيذًا، فيشمه كأنه خبير ثم يتذوَّقه، فيرمي به في جوفه، ويطلب قدحًا آخر، وحين تسقيه هذه المرة يشدها بقوة من ذراعها وهي تهمُّ بالانصراف، حتى أَنَّت وتأوَّهت من ألم، انفطر قلب إدريس السوسي الذي كاد يباغته بتهشيم كرسي على رأسه، فيشده شدًّا زخارى ويكبح غضبه، تُفلِت «فاريديا» من قبضته، بغضب وكبرياء، وترمقه بنظرة استعلاء واستصغار، وتقول ساخرة وهي تلوي شفتيها:

- ماذا تريد...؟ أشك أن لك شيئًا بين فخذيك يستحق كل هذا العناء...

يكبح إدريس السوسي ضحكته بأصابع يده، بينما يقهقه زخارى الذي لم يقدر على لجم الرغبة، وهو يقول:

- ورب الأكوان...! تجري في دمك جريًا دماء «**سجلماسة**»...

ينتفض «الذئب» بغضب كأنها رمته بسهم لسانها في مقتل، ويخطو نحوها، فتتراجع القهقرى بقلق دون فزع، حتى حشرها في زاوية ضيقة على الحائط، فتضيق أنفاسها، وهو يمرر عصا سوطه على صدرها، يستقيم إدريس السوسي واقفًا منتفضًا بغضب، يخطو نحوه

خطوة، فجأة يرتفع صوت جندي بلهجة مغربية واضحة وهو يلوح بمسدسه:

- إيه... اتركها...!

يلتفت نحوه بغطرسة اللكيع، يتحقق من وجه صاحب الصوت، يتيقن أنه أحد الجنود، وعلى كتفه برقت نجمة فضية، فتتغير سحنات وجهه من غطرسة إلى قلق واضطراب، يبتسم مرتبكًا ويقول:

- من أجلك... فقط... أتركها...

تغادر «شاميرا» المقصف مهرولة، وتجر «فاريديا» بتذمر إلى الداخل وهي تغمغم: «أبوك... يريد إشعال النار... اهدئي يا حمقاء»...!

يعود «الذئب» إلى مكانه، وهو يحيي الجندي منحنيًا معبِّرًا له عن الاحترام، رافعًا قبَّعته، بينما زخارى يرمق ابنته باعتداد واعتزاز وهو يقول وقد بَرَّز صدره رافعًا لها الأنخاب:

- نَـمِرة أنت يا بنت «زخارى...».

يقف «الذئب» بغطرسةٍ من جديد وقد علا وجهَه الغضبُ، فيذرع الخمارة وهو يشبك يديه وراء ظهره، مُطرِق الجبين، ثم يوزع نظره، يتفرَّس في الوجوه، متحاشيًا وجوه الجنود، يوقع رقصاتٍ بسوطه في الهواء هنا وهناك، ثم يدنو بتثاقُل من زخارى، يلوي شفتيه حنقًا، ويسمِّر نظراته في عينيه لحظةً، ثم يقول بنبرة وعيد وتهديد مزمجرًا:

- مَن تجرَّأ وصبَّ الخمر على سي «الرقاص الملهوف»؟!

بدا الاضطراب على **زخارى**، وظلت عيناه تدوران في رأسه، ليس خوفًا بل من شدة حرج الموقف، فهو لا يجد جوابًا لا يورطه، ولا يجرؤ على الكلام، ولم يفطن أكثر الجنود لما يطلبه الذئب، لأنهم لا يفهمون لغته، ولكنهم وزعوا عليه نظراتٍ حادَّة وقاسية، كأنهم لم يرحبوا بصَوْلته وعربدتِه، بيدَ أن «فاريديا» بجسارة قالت وهي تشير إلى طاولةٍ اجتمع حولها أربعة جنود أحدهم زنجي:

- أحد هؤلاء... صاحب النجمتين الفضيتين على الكتفين... هو الفاعل.

يلتفت الذئب جهة الطاولة، تبرق النجمتان على كتفي الضابط الذي أشارت إليه «فاريديا»، بريقًا خافتًا تحت ضوء القناديل الباهتة الشاحبة، ينتفض الضابط منتصبًا بخفة وعلى أهبة، وفي عينيه حذر وتوجُّس للشر، وقد فهم من الحركات والإشارات أنه هو المقصود، يتحسَّس مسدسه في جرابه، يوزع نظرةً مشفَّرةً على بقية الجنود، فينتفضون منتصبين، كأنهم صحوا توًّا من الثمالة، مُحدِثين جلَبَةً وصخبًا من تأهُّب وتربُّص، والعيون قد جحظت، وعضلات الوجوه قد تقلصت، وقَبُحت النظرات حتى أسقطوا كراسيهم، ثم خيَّم الصمت المخيف والترقب الرهيب على الأجواء...

التحق بداخل الخمارة بضوضاء وجلبة ووقْعٍ قوي للأحذية الثقيلة رجال الذئب متأهبين مستنفَرين، فأشار إليهم رئيسهم أن يهدؤوا،

فتراجعوا وما استرخوا، واستكانوا وما وثقوا، ثم تقدم الذئب متهالكًا، مترنحًا وما به ثمالة ولا أثر سكر، ودنا من الضابط وحيَّاه تحيةَ الصاغرِ الذليل، منحنيًا، وابتسم في وجهه مستعيرًا تعابير الاعتذار، ومربتًا على صدره، مؤثِرًا حسمَ الموقف بابتسامة صفراء باهتة، ليبدد بها سوء تفاهم خطيرًا كان مرشحًا أن يتطور إلى الأسوأ، ويشعل النار في البلدة هذه الليلة.

ثم يأمر رجاله – بطقطقة أصابعه في الهواء – أن ينسحبوا، فيخرجون وهم مستغربون من جُبن رئيسهم، وما جَبُن الذئب الليلة ولكنه كان داهيةً، فقد توقَّع الخسائر والمكاسب، وحسب بدقةٍ العواقبَ والنتائج.

أطرق الجبين، وأشعل سيجارةً يداوي بها ما يجيش في صدره من غلٍّ وغضب، وطفق يذرع الفضاء لحظةً، ثم يقول بغطرسة:

– زخارى... «دورة» كأس على حسابي... وقل للضابط... «الذئب» يرحب بك... أنت ومن معك ضيوف «العالية»...

بإشارة من **زخارى** وبطقطقة أصابعه توزع الأقداح «فاريديا» على الجنود، ويوضح لهم بفرنسيته المتقنة، ما قاله الذئب، يهدؤون ويهزون رؤوسهم فرحًا، ثم يرفعون له الأنخاب، بينما أشار إدريس السوسي إلى «**فاريديا**» ألا تسقيه قدح الجبن. نهض الجندي المغربي وخطا باحترام نحو إدريس السوسي، ثم نزع قبعته، وقال له:

– أمغار... الرقيب أمغار... تشرفت بمعرفتك...

كأن الموقف فاجأه، ينتصب إدريس السوسي واقفًا، ويرد الاحترام بالاحترام والتقدير فينزع هو أيضًا قبعته ويمد يده لمصافحته بحرارة وهو يقول منفرج الأسارير:

- كل الشرف لي... السوسي أو إدريس السوسي مهندس بمنجم الفضة...

يتصافحان مرات ومرات، ثم يقول الرقيب **أمغار** وهو ينظر إلى **زخارى** مشيرًا بسبابته إلى إدريس السوسي:

- هذا حر من الأحرار...

يرد عليه إدريس السوسي بأدب:

- وأنت سي أمغار شهم من أرض الأحرار...

يبتسم «**أمغار**» في وجهه، ويحييه تحية عسكرية، ويعود إلى زملائه.

يعود الجنود إلى شأنهم ولغطهم، قبل أن يرمي الذئب بنفسه خارج الخمارة مغتاظًا يلهث كالكلب، وقد رأى بعجب ما وقع بين إدريس السوسي والرقيب أمغار، يشرئبُّ «الرقاص الملهوف» بعنقه من بوابة الخمارة، وهو يسترق السمع والنظر بلؤم وخسة، يجره الذئب إلى الداخل بقوة وقسوة ومهانة من ياقة سترته، ثم يركله على ردفيه، ويمطره قدح خمر، وهو يقهقه، فينخرط الجميع في الضحك، فيشعر بلذة طافحة، وتبرق عيناه فرحًا، كأنه صار منهم، أو واحدًا من بينهم، يهرع خارجًا، يلقي نظرة قاسية أخيرة على إدريس السوسي ويقول

الذئب بخبث:

- لا أحد يرفض قدحًا أهديه... الحساب ليس الليلة... لم أنسَ فعلتك الأخرى...

واقفًا منتصبًا، يبعد الكرسي وراءه، يرد إدريس السوسي بكبرياء:

- الحر لا يتبادل الأنخاب إلا مع الأحرار... لا مع السفلة... وإن أردتَ أن نصفي الحساب... الليلة... أو في أي وقت فأنا جاهز...

- لا تظن أن «مسيو» «**برنار**» مدير المنجم سيحميك إلى الأبد... فقد ضجر منك هو أيضًا... وأنفاسك نعدها ليلًا ونهارًا... ولا نعرف إن كنت فعليًّا مغربيًّا!

يتعقبه **زخارى** مهرولًا ويشلُّ حركتَه بجرِّه من ملابسه وهو يصيح:

- الله يخليك... الحساب...! لم تدفع الحساب بعد... لا يمكن أن نؤدي نيابة عنك كرمك... الكريم ب «جيبه» وليس بجيب **زخارى**، وزخارى متبوع بالحساب عند «مسيو» جورج... ومن أراد أن يجود فمن ماله لا من مال الناس.

- زخارى أم زكريا...؟

- أنت بالضبط نادني زخارى... زكريا فقط للأحباب...

- والله صار لك لسان يا يهودي...! الذئب لا يدفع... لا يعطي... يأخذ فقط...

- لا بأس... لا بأس... لم تقل عيبًا... سيُحَرِّر هذا اليهودي الذي صار له لسان، أقصد أنا... هذا في السجل كي لا أظهر لصًّا في عين **جورج**.

يمتعض الذئب بغضب، يرفع يده ليوجه صفعةً لزخارى، يكبحها هذا الأخير بيد قوية ويقول وهو غاضب:

- ليست كل الخدود قابلة للصفع... خذ حذرك...! المرة القادمة أكسر ذراعك.

- أنت...؟!

- نعم أنا يا عبد المال...

يدنو منهما **إدريس السوسي**، وقد تأهب للأسوأ، يلتفت الذئب إلى «الرقاص الملهوف» ويقول زاجرًا:

- تكفَّل بالحساب يا بومة الشؤم...!

ثم ينصرف وهو يزمجر، ورجاله مستغربون من ردة فعل **زخارى** الذي شل حركة يده، بقبضة قوية، وهو الذي يبدو مسالـمًا، وضعيف البنية، ضيق الأنفاس وينأى عن كل عراك.

٩

«زخارى بنخانان» واحد من المغاربة الذين فقدوا بوصلة الحياة، بتغير الأحوال والأهواء في عهد الحماية الفرنسية، كان مثل جيرانه وقومه وأهله، أينما حل وارتحل مغربيَّ الروحِ والقلب، والترح والفرح، والشجى والهوى، مغربيًّا حتى النخاع، يضحك لنُكَتهم حتى يستلقي على قفاه، وتدمع عيناه، ويطرب لأغانيهم حتى يدندن بلا عنان ولا قمع للمشاعر، ويحزن لأحزانهم حتى ينتحب نحيبًا شديدًا بلا خداع ولا رياء، ولا تزييف للمشاعر، ويضحكون لنُكَته ومستملحاته، تطربه موسيقى «**زهرة الفاسية**» اليهودية التي تُطرِب كل المغاربة في كل الأنحاء، و«**خربوشة**» «**العبدية الغياتية**» مكسرة شوكة الاستبداد والاسترقاق بأغانيها، و«**حاييم بو طبول**» الرومانسي اليهودي المغربي الذي شغلت أغانيه العذارى والعشاق، وكما تطربه أغاني «**أم كلثوم وأسمهان والسيد درويش**»، ويطربه المغني الأمازيغي «**أحمد أمنتاك**» وكل المغنين «**الرياس الأمازيغ**» الذين تغنوا بالحرية والكرامة والعشق والكبرياء، ويحفظ مواويلهم الجبلية والسوسية والأطلسية والريفية.

لم يكن ماكرًا ولا داهيةً، ولا جشعًا ولا طماعًا، كما في الصورة النمطية عن اليهودي، بل كان كهلًا بسيطًا يوسع على نفسه وأهله في

الطعام والشراب، ويشارك أهل بلدة الغرافين منذ حلَّ بينهم، مآسيهم وأفراحَهم، وكان أشدَّ كُرهًا «**للملاح**» وهي حارات اليهود بشمال إفريقيا، حيث يعزل اليهود أنفسهم عن باقي الأعراق، وكان يحزُّ في قلبه كثيرًا أن تكون لهم حارات خاصة تعزلهم عن صخب الحياة، لكن كان هذا اختيارهم ولم يُرغَموا عليه.

يحب الحياة، فيقبل عليها باستمتاع دون شُحٍّ على نفسه، ولا تقتير على أهله، حتى صار يخلو بنفسه بعيدًا عن زوجته **شاميرا** يوم السبت ليأكل من طعام البلدة مع الأصدقاء، ويوصي مُلِحًّا بعدم ذكر ذلك لزوجته المتشددة في العادات والطقوس احترامًا لها لا خوفًا، يأكل لحمًا لم يحلله «الحاخام» ويخرق «السبت» عدة مرات، منشغلًا في سرية بتقطير التين في قبو الخمارة، ومقارعة الأقداح مع إدريس السوسي.

ويتوق بألم واشتياق جنان ابنته الوحيدة «فاريديا» إلى الحرية والانعتاق من قيود وصاية والدتها الخانقة لأنفاسها، تحب الحرية دون خلاعة، وتعشق تنفُّس نسائمها بعيدًا عن تشدُّد أمها. تشدد الأم **شاميرا** لم يكن يمنعها من حضور الأعراس والأفراح، والتعزية في المآسي والأحزان، غير أن لباسها كان جد محتشم فضفاض، تغطي شعرها دومًا بمنديل كمناديل أهل بلدة الغرافين، وعقلها دومًا متعلق بيوم الآخرة والحساب، عكس زخارى المتهالك على متع الحياة دون فسوق والمقبل على الدنيا دون مجون.

كانت «فاريديا» تساعد أباها «زخارى «في تدبير شؤون الخمارة دون تهتك منها ولا مجون، قاسيةً مع من تجاوز حده، فظَّة حين ترد رعونة سِكِّير أو تطاول ثَمِلٍ، أما «**شاميرا**» الزوجة، فكانت سليطة اللسان، كثيرة التذمر والشكوى، تعيب بشدة وحدة ولجاج على زوجها حياته التي تنعتها بالعبث، وتعاتبه لجوجًا على تبذير أمواله في المتع والطعام فوق الحاجة، فهو يعيش يومه كأنه الأخير، فما ملك عقارًا ولا اغتنى من مهنة، ولا ادخر وقد تقلَّد عدة مناصب في الدواوين، وهو المحاسِب الخبير، ويُتقن أكثر من لغة، فقط امتلك مؤخرًا عربة مغطاة، تجرها فرس قوية، لضرورة التنقل وحمل السلع والصناديق والبراميل، وما لا يعرفه الكل غير إدريس السوسي أنه كان مقيمًا بملاح بالمدينة القديمة في الدار البيضاء، قبل أن يضطرَّ للهرب نحو الأطلس بعد احتلال فرنسا للمغرب، وبث شعارات معادية لليهود من لدن الإيطاليين بالمدينة.

عاش كالغجري، ينزح من بلدة إلى بلدة هجرةَ فضولٍ ومتعةٍ، متنقِّلًا من مهنة إلى أخرى، حتى استقرَّ به المقام هنا، حيث يفضل العيش بين الناس، لا معزولًا في «الملاح»، وكان يمقت العزلة أشد المقت، ويمقت سكن القصور القديمة ذوات الأسوار الطينية العالية، التي تعزل اليهود عن باقي الناس، وعن صخب الخارج نهارًا وهرجه ليلًا. كره طفولته كما عاشها بفاس بين أسوار كالسجن في مدينة طفولته

وإن عرفت بالمدينة التي لا يظلم فيها يهودي، لكنه كان يشعر بالغربة في الداخل حين يعمد الشيوخ والحاخامات إلى ترسيخ الخوف في القلوب من خطر قائم فقط في الأوهام ومستقر في عقول مضطهدة لنفسها، كَرِه العيش بعيدًا عن الحياة العادية المختلطة بالروائح والشعائر المختلفة، والتي تنبض بالتنوع الذي يحبه، وحين تلعب برأسه أقداح ماء الحياة من النبيذ الذي يقطره من التين المجفف، ويحلو له الحديث عن الماضي بعزاء، وخصوصًا مع نديمه المفضل إدريس السوسي، يستحضر تاريخَه وتاريخ أجداده، ويحكي عن جراح وشجون غربة حارات «الملاح»، ووحشة الأسوار العازلة، فيقول وهو يمشط لحيته العشوائية بأصابع يده: «عاش أجدادي الأولون «بقصر المأمون» بالجنوب بسجلماسة، والقصر كما تعلم ليس معناه البلاط الملكي، بل هو تجمع سكني يضم دُورًا من الطين، وحوانيت ودكاكين وورشات حدادة وسباكة وحمامات، وأنشطة تجارية في ساحات معلومة، وأزقة وممرات ضيقة، وأسوارًا عالية، ذات بوابات كبيرة حسب الطرق المؤدية إليها، عليها حراسة دائمة مشددة خوفًا من قُطَّاع الطرق والإغارات المباغتة، وقد يكون في زوايا السور، أبراج عالية للرصد والحراسة، يتناوب عليها ليلًا شبان «القصر».

ونزحوا مع من نزحوا من «**القصر القديم**» إلى مركز تجاري جديد اسمه «**قصر السوق**»، ولم يسكنه غير اليهود، والمسلمون أو كما يقول

اليهود «العرب» بغرابة نأَوْا بأنفسهم ولم ينتقلوا للسكن في هذا المركز الذي صارَ حاضرةً تعجُّ بالأنشطة التجارية.

قال ذات ليلة والحزن يعصر فؤاده لصاحبه إدريس السوسي: «حزَّ في قلب الوالد الأمرُ، بعد أن استدرجه الفرنسيون وعائلاتٍ يهوديةً أخرى إلى هذا المركز، بالرُّخَص التجارية والمخازن، وظل يردد إلى آخر أيامه أن خروجهم من «قصر المأمون» كان خطأً لا يُغتفَر، فالمسلمون لم يختلطوا بهم في المركز الجديد، فأصبح مدينةً صغيرةً لليهود الذين أحسوا لأول مرة بشيء ما غير طبيعي في علاقتهم بالمحيط. لم يُطِق والدي «**بنخانان نوعام**» العزلة في «قصر السوق» فنزحَ إلى **فاس** قبل أن أولد في بداية هذا القرن، وكان يشتغل في الصياغة والنقش على الحلي بالملاح، أحب أيامي كان يوم الذهاب للصلاة مع أبي رحمه الله في بيعة «**بن دندان**»، كنت أفرح للعطايا والمأكولات، وأحظى بأشكال متنوعة وأصناف مختلفة من الحلويات والأرغفة والهدايا والشوكولاتة، فأتقاسمها مع صديقي أحمد «ولد الجباس» وهو مسلم من أترابي، وأذكر أن أحمد هذا كان يُدخِلني بيت أسرته، يوم السبت فآكل من طعامهم اللحم وما لذ وطاب، وأمه فاطمة الزهراء تسترني ولا تقول شيئًا لأمي «**زيفا شاليف**»، وكان أبي يخافها ويهابها ويتحاشى غضبها، كانت مثل **شاميرا** تتعقَّب خطاه وقد كان سِكِّيرًا يهوى النساء، فيقول حين تضبطه في ماخور

ما: «كيف اهتديت إلى مكاني يا **زيفا**»...؟! أبوك «**شاليف**» سَمَّاكِ بالذئبة... فصَدَقَ». و«زيفا» بالعبرية هي أنثى الذئب... كنت أطعم ما أشاء في منزل **فاطمة الزهراء** ثم أمسح فمي وأعود... إيه...! أمي «**زيفا**» وأبي «**بنخانان**» وجدي «**نوعام**» وجدتي «**شمويلا**»... كلهم يرقدون رحمهم الله بالمقبرة الإسرائيلية بفاس، والأسلاف في مقابر عدة في «تافيلالت.»

زوجة «**زخارى**» «شاميرا عاميت» كانت أشد ما تستاء من معاقرته الخمر مع الزبائن وكشفه لحياته ومساره وأسراره، وتترصَّد خطواته ليلة الجمعة ويوم السبت خوفًا من أن يؤدي عملًا في يوم راحةٍ فرضه الرب، فيخرق السبت على عادته بعملٍ أو طعام، ورغم ذلك كان يجيد الإفلات من رقابتها، أو يتحايل فينزل إلى القبو، لتقطير ماء الحياة، ومعه إدريس السوسي، فإن ظهرت «شاميرا» بخَطوٍ نميمٍ متسلِّلَةً، تراجع للوراء وجلس على كيس التين وهو يحتسي الخمر ويقول: «نحمد الرب... إدريس السوسي يقطر لنا يوم السبت... لم ألمس شيئًا».

كانت «شاميرا» يهودية متدينة، تصغره بأربع سنوات وهي في عقدها الخامس، تغطي شعرها بمنديل، وتلبس ملابس فضفاضة، متشبثة بالطقوس والتقاليد العبرية، لكنها خارج بيتها تلبس لباس بلدة الغرافين، وتحضر أعراسهم بملابس محلية، تُصِر على إغلاق

الخمارة، من غروب شمس يوم الجمعة إلى غروب شمس يوم السبت، وتمتنع عن أي عمل، حتى ضاقت بتقاليدها ابنتها «**فاريديا**» التي تلبس مثل لباس أهل بلدة الغرافين، لكنها داخل الحانة لا تضع لا ملاءة ولا منديلًا على شعرها، بل فقط ترتدي ثوبًا فضفاضًا وجوربَين من قطن يقيان قدميها من البرد أو آخرين مخمليين طويلين شفافين يستران ساقيها، تنتعل حذاءً عصريًّا مُسطَّح النعل، وحين تنوي السفر إلى فاس ترتدي السروال، والسترة، وتضع نظارتي زينة.

وكم رغبت في خرق طقوس وتعاليم السبت بدعم من أبيها «زخارى»، وفتح الخمارة من غروب الجمعة إلى غروب يوم السبت، لكن «شاميرا» المتدينة، كانت حاسمة في الأمر، لا تقبل الجدال في الدين ولا في الطقوس، وشديدة السطوة والعصبية في كل ما يتعلق بالملَّة، وكان هذا ضمن شروطها في عقد الزواج المسمى «**كتوباه**» بالعبرية، كما اشترطت على زخارى الحق في زيارة سنوية للولي **عمران بن ديوان** بضواحي مدينة **وزان**.

وتهفو البنت المتحررة «فاريديا» إلى اللحوم الحمراء، وليس في البلدة حاخام ليحلل الذبيحة، فتجد كلَّ أبواب البلدة مفتوحةً لها، تطعم أين شاءت، وتسمر في أي دار وقد صارت من أهل البلدة، ولا أحد يعيب على أسرتها مهنتها غير «**سي حمو**» الذي من علمه الأصيل وتكوينه التليد كان كلما صادفها في البيت يعطي للسلام حقه، ويضمر

عدم رضاه عن الزيارة، دون أن يجرح مشاعرها أو يؤذي كبرياءها، فموقفه ليس من دينها، بل لاشتغال أبيها في تجارة أم الخبائث كما يسميها، وكانت الفتاة اليهودية، صديقة لراضية الزوجة الثانية لأبيه، إذ هي من أترابها وأخذت حظًّا من التعليم عند «الأخوات» الراهبات المسيحيات اللائي انتشرن في الجبال يوزعن الأدوية بالمجان، ويفتحن مدارس تابعة لكنائس معزولة، حيث تمنح العناية الطبية والاجتماعية والتربوية.

تكاد زوجة «زخارى» شاميرا أن تقيِّد بالأغلال ابنتَها «فاريديا»، يوم السبت حتى لا تطوف البيوت، وقد عجزت عن ذلك كما فشلت مع زوجها، ودأبت الزوجة المتدينة عند غروب شمس كل يوم جمعة، على الصعود إلى الطابق العلوي فوق الخمارة، فتشعل الشموع مؤمنة بيقين أنها نور البيت وبركة الرب، وتُردِّد بتضرُّع وخشوع: «يا رب...! يا رب الأكوان، يا ملك الكون، يا من قدستنا بوصاياك، وأوصيتنا أن نضيء يوم السبت...! يا رب الأكوان بارك بيتنا وتجارتنا، واجعلهما مثمرَيْن وكثِّر نتاجهما...»، بينما «فاريديا» تتوق وتنزع نفسها المتمرِّدة الآبقة في عقلها في صمت من كل قيد وتقليد، إلى الحياة في الخارج؛ فتسترق النظر من النافذة إلى الشارع منشغلةً بالحياة والصخب وأطياف وظلال العابرين، والأم لا تفرط في يوم الراحة المقدس السبت بأي ثمن، خلافًا لزوجها الذي كان كلما سافر أو ابتعد عنها

مسافةً يأمن فيها من عيونها وحسها؛ اختلط بالناس وغدت عنده كل أيام الله واحدة، وكل الأطعمة شهية.

وجبات «الكاشير» العشاء المقدس لليلة السبت، عبارة عن الطعام الحلال في ملتهم، وقد خلا من اللحوم الحمراء، باستياء من «زخارى» مكتوم، لكن تعكسه نظراته وزفيره، وحنق «فاريديا» المفضوح ببعض الكلمات الطائشة، تستهلُّ الزوجة المتدينة الوجبةَ بصلاةِ تقديسٍ خاصة بالخمر فهو مباح، والتبرك بالخبز الذي يمثل العمل الشاق، ثم تأذن لهما بعد الصلاة في أكل السمك المقلي الحلال ذي الزعانف والقشور، وغير هذا النوع ممنوع في هذا البيت حسب طقوس الزوجة، و«الزعلوك» الشهي المعد من الباذنجان المطبوخ بزيت الزيتون والفلفل والحامض، ووجبات متنوعة أخرى من الخضر المتنوعة، وتسمح باحتساء اللبن وأكل الجبن وهما حلالان، بينما «زخارى» متذمِّر من عشاء يخلو من لحم الغنم ولحم الماعز اللذَيْن يحبهما ويشتهيهما مع كأس خمر، فيقبل عليهما في كل سفر على الطرقات وفي الأسواق غير سائل عن حلال ولا عن حرام.

وكان يحب التعارف والتزاور وتمتين الروابط والعلائق الإنسانية وتدوين العناوين والآثار في سجل خاص، فيجالس الزبناء ممن يرتاح إليهم، فتضطر زوجته شاميرا أحيانًا إلى مغادرة المقصف لسحبه من حزامه أو ياقته وهو غير ضجر ولا متأفف بل يتركها بسخرية ومحاكاة

بحركات مهرجة لوضع «المغلوب على أمره» المتضرِّع للسماء بكفيه، فتجره كطفل صغير إلى الداخل، مرددة بغضب هي تمسح يدها بطرف مريالة نصفية بيضاء تشدها من حزامها وتطلقها على باقي جسدها: «لقد أزعجتهم... يا زخارى...!، فيرد عليها متهالكًا مترنحًا زائغ البصر وقد غلبته الثمالة: «قولي زكريا... يا سميرة...»! فترد عليه على ديدنها وهي تمسح وجهه بمنديل مبلل، وتجعله رغمًا عنه يعب فنجان قهوة عبًّا سريعًا، وقد مزجته بعصير الليمون، عله يصحو بعد ما أسرف في الشرب: «»سيان»... لا فرق... دعهم يحتسوا أقداحهم بأمان».

وحين كان يُعيِّرها بأمها نكايةً بها ساخرًا بهُزء تصيح غاضبة في وجهه: «هل تريدهم أن يعرفوا الحقيقة يا زخارى...! فالحقيقة التي أعرفها عن أمي سارة رحمها الرب هي أن أمك «زيفا» التي لا يتحدث عنها كثيرًا من أسرة معدمة، عاشت راعية ماعز بأحواز مراكش ناحية ريف «**إيمينتانوت**»، ومَن لا يعرف سلالة «**حافير بن إيفين**»؟!

إيه... نعم... تظنني لا أعرف... وكان أجدادك لا يعرفون من عملٍ غير حفر الآبار و«مطمورات» تحت الأرضية لتخزين الحبوب، و«المطفيات» لتجميع وتخزين المياه، فهاجروا هربًا من النحس وتبعهم النحس يا وجه النحس... فتزوج أبوك العربيد «**زيفا بنت حافير**»

التي قهرته باللغط و«النقر» حتى مات غمًّا وهمًّا... يا زخارى التفاحة الفاسدة لا تسقط بعيدًا عن الشجرة».

كان لا يرد عليها، فقط يعود إلى مقعده، ويرتب قوارير النبيذ الأحمر الذي كان نفيسًا ويطلبه الأعيان والوجهاء والجنود والضباط القادمون من الثكنة ليُروِّحوا عن أنفسهم، ويتفقَّد صناديق الجعة التي يخزنها لجورج، حين يرسل في طلبها.

وقصة فتحه خمارةً ببلدة الغرافين غريبة حقًّا، فقد سأله يومًا إدريس السوسي عن الأمر فقال له: «بعد ما تقلَّبتُ في عدة مناصب كاتبًا ومترجمًا ومحاسبًا في دواوين الباشوات والقواد، عدت لحرفة والدي وهي صنعة الصياغة والنقش على الحلي التي بارت بمدينة فاس، فكسدت وضقتُ ذرعًا بمنافسة الصاغة الفرنسيين والصناعة الجديدة بلا أصابع مهرة، والتقيت يومًا العقيد جورج وقد كنتُ محاسبًا في مكتب صيرفة بفاس، فطرح عليَّ الفكرة، ووعدني بالمال الوفير، رغم عزلة البلدة، وذلك لحاجة الجنود والعسكر في ثكنة الفيلق المتنقل الفرنسي رقم ٧٧٧ «**بجبل الغور**»».

وأردف يومذاك وهو يرد على سؤال للسوسي حول مباركة العالية لفتح الخمارة قائلًا كمن يُسِرُّ خبرًا: «قال لها جورج: «هذا عمل لا دخلَ لكِ فيه، الخمارة تحت مظلة حماية ورعاية فرنسا، وروادها لن يكونوا من أهل بلدة الغرافين، وحتى إن أرادوا الدخول والاستمتاع فلا

مانع عندنا»، وحتى أكون صادقًا، ترسل العالية من حين لآخر ولو نادرًا في طلب النبيذ وماء الحياة، والويسكي، كلما كان عندها ضيوف من الأجانب، فأُرسِل للعجوز الداهيةِ الأجودَ والصافي اتقاءً لشرِّها، فهي الحاكمة هنا، وبإشارة بإصبعها قد تزرع الحقد والضغينة ضدي، ويمكن أن تهيج الناس فيصخبون عليَّ، ويحرقون الخمارة؛ لهذا أعطي إتاوة شهرية لها، وتعهَّدت للذئب ألا أذكر ذلك للعقيد جورج».

١٠

فُتحت البلدة على مصراعيها للجنود وسيَّاح المتعة من كل حَدَب وصوب، واختلط النابل بالحابل، فلم يعد ممكنًا التمييز بين زائر يطلب بركةً، وزائر ينشد متعة، والغريب أنهما لم يتناقضا في أعين الناس، ولم تتصادم المصالح والمنافع، فعَجَّت وضاقت المسالك بالسكارَى والعَرَابِدة، وما ضاقت منهم نفوس الناس، مما يضخون في شرايين البلدة من أموال بسخاء، تُنعِش بالدماء تجارتَها ومختلف أنشطتها.

يترنَّح المترنحون سُكْرًا ونشوةً، وفي الساحة نفسها يترنح المجذوبون صَرَعًا وحضرةً، على إيقاع المزامير والطبول والدفوف وضرب الصنوج، نوع منهم يحتسون الخمر والنبيذ بين الدروب وعلى ناصيات الطرق، ويتحلقون حول حِلَق المغنين الشعبيين والراقصات الشعبيات، والقرادين ومروضي الأفاعي والعشابين ممن يعِدُون الرجال بفحولة من عشبة نادرة، وخلطات أخرى تداوي كل الأمراض، وحين يريدون معرفة الطالع، يقصدون «العرافات» القابعات تحت المظلات بعباءاتهن السوداوات، وبِنُقُبِهِن المخملية التي لا تُظهِر من وجوههن غير العيون الكحيلة، ويعلمْنهم بقراءة الأوراق مما تشتهي الأنفس من الأهواء، وبما تكابد كل نفس من أحزان، وبما يليق لكل واحد ويصلح لكل طالب، في قولٍ قلَّما لا يجد فيه زائرٌ نفسَه، ويائسٌ رجاءَه، وآخرون يُذهِلون العقول بأفعال غريبة، وحركات

عجيبة، يشربون الماء الساخن الحامي مباشرةً من الأباريق على المجامر الملتهبة الجمر، ويضربون الأجساد بالسكاكين والسواطير، ويمشون على أكوام نبات الصبار، وغرس القضبان الحادة في الخدود وبين جلد الصدور، ومضغ شظايا الزجاج دون أثر لجرح أو دم سائل.

لكلٍّ عالَمُه وهمُّه وفرحُه، لكلٍّ شطحاته ونزَقُه، وأحيانًا يختلط العالَمان المتباينان دون أن يتماسَّا أو يصطدمَا، فتكون الفرجة الممتعة من خارق أفعال وغرائب أشكال، مع المتعة سُكْرًا وجنسًا رخيصًا على أجساد نساء يشتغلن في الدعارة، بعد المرور على المغارة زيارةً لطلب البركة، والاغتسال من ماء عين أمونة المبارك، والتخلص أحيانًا من ملابس داخلية، طردًا للنحس أو اللعنة وأثر الخطيئة اللصيقة.

وبين الدروب كالأشباح تعبر وتمرق بائعات الهوى المتهتكات في مجون بقهقهاتٍ عالية، اللواتي جئنَ وفْقَ مواعيد مُبرَمة، وهنَّ ملتحفات ملاءات بيضاء، ولا يظهر منهن غير العيون، وقد وضعن نقابًا شفافًا يغطي نصف الوجه، ولا ينخرطن في حياة الليل بصخبها ووسخها إلا بعد زيارة المغارة طلبًا للستر، وعند الصبح يغادرن بعد الاغتسال من آثام الليل من ماء عين أمونة السودانية، فيتجدد في قلوبهن الرجاء بالله الغفور، والأمل في التوبة النصوح، ويتصالحن مع السماء، فيجدن سبيلًا إلى السكينة وقد أرضين النفس بما يريح العقل من وخز الضمير ورهبة المصير.

لم يعطل إدريس السوسي عادته، وهو يحصي الأيام على الجمر، وصبرُه في مهب الريح، ويرى هذا الفساد الذي استفحل واستشرى،

حتى غدا العارُ عند الناس خرافةً، والشهامةُ ادعاءً ودعايةً، وما زال ينتظر عودة «سي حمو» الفقيه من فاس، حتى أوشك أن ينكث بعهده معه ويخرج على الناس صادحًا بالأسرار الخفية، علَّه يضع حدًّا للفضائح الفظيعة، وقد يقتلونه سحلًا، أو يحرقونه حيًّا، لكنه يكبح دومًا غضبه بحذر وحكمة، ويرمي بنفسه في الخمارة طلبًا للنسيان، ويشرب حتى يثمل، فتهدأ وساوسه، وتخفت عواصف اضطرابه.

الوقت زوالًا، من هذا اليوم الدافئ من شهر ماي، بكَّر إدريس السوسي على غير عادته، وعزل نفسه على المشرب في زاوية مظلمة من خمارة زخارى، يحتسي أقداح النبيذ، وعلى الطاولات الأخرى القاتمة الألوان من طلاء اختلط بالأوساخ، توزع جنود وزبناء جدد مدنيون من صنف آخر، تجار فرنسيون وآخرون إسبان وبرتغاليون وإيطاليون ويونانيون عابرون، وبينهم اندست النساء تزيد جلساتهم بهجةً وتفجر فيهم نَزَقًا من نزوات جافلة.

يجيب ويستجيب «زخارى» رغم كثرة الزبائن وتنوعهم وتشعب الرغبات لكل الطلبات في حيوية ونشاط، وقد ألزم منذ مدة ابنته فاريديا بأن تظل وراء المشرب إلا لحاجة قصوى، أحيانًا تمده بيد العون بتذمُّر كعادتها شاميرا التي غدت لها قدرة على معرفة طلبات الزبناء قبل أن يصفقوا بأياديهم، وإحضارها وهُمْ بفعلها معتزون وممتنون، وقد صار للخمارة أخيرًا بعد طول انتظار «الفونوغراف» ذو البوق الكبير، فيشغله بنشوة وزهو وهو يُلمِّع إطارَه الخشبيَّ الصقيل بطرف

كُمِّه، وهو يتراقص برأسه من حين لآخر، فيصدح المكان بالأغاني الشعبية والشرقية، الأمر الذي لم يُرضِ كلَّ الزبناء وكل الأذواق، فبعض الرواد والسكارى من الجنود الفرنسيين عمدوا إلى طلب نوع غنائي معين بإلحاح وطَرْق قوي على الطاولات، فيتجاهلهم زخارى علَّهم ييأسون حتى إذا ما أصروا يضع أسطوانة فرنسية، فلا تلقى الإعجاب، وينهض ضابط فرنسي بابتسامة، يحييه ويسلمه بأدب أسطوانةً لأغنية، ملتمسًا منه تشغيلها، وهي لمغنية ينعتها الفرنسيون بـ «**لاموم**» أي الطفلة، واسمها «**إديث بياف**» وكانت مدلَّلَتهم الجديدة في هذا العام «١٩٤٦» فيعلو الغناء الجميل لأغنيتها «الحياة بلون الورد» الرائعة، ويردد معها بعض الجنود الفرنسيين مقاطعها الحزينة وهم يرفعون الأنخاب عاليةً، ويجعلون كؤوس الجعة الثقيلة تتجاسد نخبًا ونشوةً، فترسل رنينًا يُسكِر الآذان:

عينان ترغمان عيني على الإسبال...
ضحكة تضيع على فمه...
هذا ملمح بلا «رتوش»...
للرجل الذي يملكني...
حين يأخذني بين ذارعيه...
ويهمس لي بصوت خافت...
أرى الحياة بلون الورد...

وكان جنود المستعمرات الذين كانوا يتشبَّهون ذوقًا وسلوكًا

بالجنود الفرنسيين، يصرون على سماع أغانِيَّ فرنسية هم أيضًا، إرضاءً لشعور غريب بين جوانحهم، حتى إنهم كانوا يُحاكون الضباط في الأنخاب والصخب وطقوس الشرب، كأنهم بفعلهم ذاك يذوبون وسط الجماعة الفرنسية ويصيرون جزءًا منها، أو يُرسلون رسائل مشفَّرة تُحدِّد الولاء، حتى نمت ضغينة بصمتٍ بين إدريس السوسي وبين بعضهم بصمتٍ لكنها مستعِرَة، تتحيَّن الفرصة لتُنفِّس عن نفسها بأقسَى أشكال العنف البشري، كانوا يتبادلون النظرات القاسية، وكلٌّ يتحيَّن الفرصةَ للانتقام.

خرجت «فاريديا» لتنظيف طاولة جلس حولها جنود فرنسيون، وكانت معهم بائعة هوى تتلوى من ثمالة، وحين انحنت الفتاة ضربها أحدهم على ردفيها وهو يقهقه، فزمجرت وتطاير الغضب من عينيها وهي تلعن وتشتم، وعبَّرت عن استيائها بالعودة إلى المقصف، فتبعها الجندي الفرنسي وهو يتهالك على الكراسي حتى أسقط بعضها شاتمًا بغضب، وصفعها مرددًا بلسان ثقيل ونظر زائغ: «أنسيت يا عاهرة، أننا أنجيناكم من الإبادة على يد هتلر، لولانا لرمى بكم جميعًا إلى الجحيم...»!!

فإذا بجندي زميل له يجلس على طاولة أخرى، يمرق كالعاصفة بغضب جارف نحوه كالسهم الطائش، مزمجرًا بهرير مرير، ويصرعه بضربة قوية برأسه على أنفه، فيسقط أرضًا وقد امتلأ وجهه دمًا، فاستلقى عليه وهو محتقن، وقد جرفه الغيظ فأعمى بصيرته، وأطلق العنان لوحش عُنفِه الضاري ولسخطه الطائش، فيلكمه لكمات متتابعة،

بقوةٍ وضراوةٍ حتى أدماه، ثم يلجم وحش غضبه فجأة وهو يلهث لهثًا شديدًا، ويبتعد عن غريمه خطوتين وهو ينظر إليه نظرات قاسية، يحملق في الوجوه التي بدت مستغربة ومذهولة، يحاول أن ينهض الجندي المسحول بتهالُك وتعب، يتكئ على طاولة، فتميل به وتنكسر إحدى قوائمها، فيسقط أرضًا من جديد، يتقدم نحوه جندي زنجي، يمد له يده، ليساعده على الوقوف وهو يردد: «تمسك بيدي يا **پول**»... لكن «**پول**» رمقه بنظرة استصغار، ورفض بحركةٍ بيده ناهرةٍ أن يساعده على النهوض، فأسند نفسه إلى كرسي، ووقف بمشقة وهو يزحر من تعب وغيظ، يمسح بكُمِّ سترته الدم عن وجهه وفمه وأنفه، ويتقدَّم متهالكًا من المقصف يجرُّ قدمَيْه، وطلب قدحًا، سقته «شاميرا» باضطراب حتى اندلق الخمر، احتساه بحنق في جرعة واحدة، ففاضت روح القدح الأول، ليطلب آخر، وهو يردد: «لماذا... يا دافيد...؟! لِمَ تدافع عن هذه اليهودية...؟!» نظر دافيد إليه نظرةً قاسية، وقد تعالى إيقاع تنفسه من غيظ، وغضب جامح شدَّ عنانه بصعوبة، وما زال في صدره غلٌّ كافٍ لقتله ثم دنا منه، وسمَّر نظراته في عينيه لحظةً وقال: «انظر إلى لون عيني...! هو أزرق...؟! انظر...! انظر...! تمعن...! تفحَّص...!» ثم ينزع قبعته بحنق، ويقترب برأسه منه مُرغِيًا مُزبِدًا، ويقول مزمجرًا: «وهذا شعري... يا «**پول**»...! انظر...! أشقر ناعم... أرأيت...؟ كم أُشبِهُك...! ربما أنا أوروبي أكثر منك، فلون شعرك أنت أسود... لكننا أنا وأنت فرنسيان... وأنا فرنسي يهودي، وفرنسا الجديدة تأسَّست على «عمى الأديان والأعراق، فهي لا ترى في الإنسان ذلك... وأنت تأتي

من حيث لا أدري... نسخة من هتلر صغير فجأة... تمنيت لو كان بإمكاني سحق رقبتك أيها العنصري الوضيع...»

شعر الجندي بالخجل، أطرق الجبين، وتسارع رمشه، ثم تاهت نظراته بين الوجوه، فحاصرته العيون المعاتِبة بصمت، ودبت الهمهمات بين الجنود، وانشغل البعض بالنجوى وهم يشيعونه منسحبًا بتهالك وتثاقل، ما أن يرمي بنفسه منكسرًا مطرق الجبين في الخارج، حتى يعود الصخب إلى الخمارة، يخطو دافيد، الطويل القامة نحو «فاريديا» ينزع قبعته ويقول مُطرِق الجبين باحترام: «نعتذر لكِ آنستي باسم الجيش الفرنسي... نعتذر... نحن محررون ولسنا جلادين...».

تبتسم الفتاة في وجه دافيد، وتنحني انحناءة قصيرة اعترافًا له بجميله وشهامته، نظر باضطراب إلى إدريس السوسي الذي كان يود لو انخرط في ضرب **پول**، فلوح بيده، يحيي **پول** الجميع وهو يردد: «أنا آسف... أنا آسف...»، وينسحب مطرق الجبين، وهو ينفض قبعته العسكرية.

ما أن خرج دافيد، حتى تكالب بعض الجنود من الرتب الصغرى على «فاريديا» فقال ساخرًا أحدهم: «خاصمت رفاق السلاح يا عاهرة...»! فلم يتمالك إدريس السوسي أعصابه، فانطلق كالسهم نحوه، ولكمه لكمة قوية، فتكالب عليه رفاقه في شجار عنيف، فارتفع الصياح والجلبة، وهم يركلونه، فوصل صوت العراك إلى خارج الخمارة، صراخ فاريديا وولولتها، وانضم زخارى إلى الشجار، يكسر الكراسي على أظهر المتكالبين، حتى أصابته لكمة فسقط مغشيًّا عليه، فصاحت زوجته

«شاميرا» وما زال إدريس السوسي يرد الضربات مزمجرًا ويركل البطون وهو مستلقٍ على الأرض، يحمي وجهه بكلتا يديه، وما توقفت «فاريديا» عن الصراخ، ورشقهم بالكراسي، وأمها تبعدها عن حلبة الشجار الحامي الوطيس، فهرع بعض الزوار، ممن تركوا الحلقات ومشاهدة مراسيم الخوارق، فوجدوا «إدريس السوسي» يصارع أربعة جنود أشداء، ووجدت العصبية متنفسًا لها، والأحقاد المتراكمة مُقلِّبًا لرواسبها في الصدور، فهجموا عليهم في كَرٍّ وفَرٍّ، فاشتد العراك والشجار، وانتشر الخبر في البلدة، فتقاطر شباب بلدة «أهل الغرافين» فشهروا خناجرهم، وشهر الجنود المسدسات، وشق قاسمٌ الصفوف وولج الخمارة وهو يُهدِّد ببندقيته، فأطلق الرقيب أمغار طلقةً في الهواء، أصابت الكل بالذهول، وحالت دون تطور الشجار إلى الأسوأ، وقد كان محايدًا... تائهًا... حائرًا بين الحشود، لا يدري مَن خصمه؟! ومَن قومه؟! وأين يصطف؟! فهدأت النفوس بكلمة من الرقيب، ثم غادر الجنود الخمارة متهالكين، يسند السليم منهم الجريح، بأمر من ضابطهم، وهم يتوعَّدون ويُهدِّدون.

رشَّت «شاميرا» رذاذ ماء على وجه زخارى فاستفاق من أثر اللكمة لكنه استاء بقوة وهو يرى حالة صاحبه، ويفحص جسده، حتى توتر توترًا شديدًا فزمجر وهو يرمي بقنينة بعيدًا، فتطايرت شظاياها في الهواء وهي ترتطم بالحائط، وخيَّمت على تعابير وجهه ملامح الغضب تقطيبًا وعبوسًا وتجعدًا للجبهة، بينما زوجته «شاميرا» قلِقَة، تشير عليه مُلوِّحة بكفها، بأن يدع إدريس السوسي يرحل إلى حال سبيله:

- كفى يا لئيمة...! سأقطع أصابعكِ... لننزل إلى القبو... هيا...! كل يذهب إلى بيته... لن نسقي أحدًا الآن.

تساعد «فاريديا» إدريس السوسي على الوقوف، متهالكًا، يمسح دم رُعافِ أنفه، ويتحسَّس الآلام في جسده، يتكئ على كتف قاسم الذي انضمَّ إليهم، وينظر إليه بنظرة متعبة وزائغة ويقول له مبتسمًا: «يظهر أنك ملاكي الحارس، ولا تظهر إلا عندما تشتد الشدائد...»، فيربت على كتفه، وينزلون إلى القبو، يتمدد على سرير من قش، تأتي فاريديا بصحن ماء دافئ تُضمِّد جراحه، وتشد ضلعه بضمادات ثم تسقيه نبيذًا قويًّا، فيغفو، وهي على طرف السرير، تنظر إليه في ألم وحزن شديدَيْن، و«شاميرا» تلوي شفتيها، وتنهرها أمام ذهول قاسم:

- عليه أن يخرج قبل أن يأتي الآخرون.

لم يتمالك زخارى نفسه، فصرخ في وجهها بحنق، حتى انتفخت أوداجه، واعتصر الدم في وجهه:

- اصمتي يا بنت عاميت...! اغربي عن وجهي وإلا هشمتُ رأسكِ.

متفاجئة... من ردة فعله، التي تبدو أنها لم تكن تتوقعها، وهو في قمة الغضب يلوح بقنينة خمر فارغة في وجهها، تسرع الخطو مغادِرةً القبو نحو قاعة الخمارة، فتنهمك في إعادة ترتيب الكراسي، والتخلص من الشظايا، وهي تغمغم بكلام غير بَيِّن بالعبرية، فتشعل القناديل التي أُطفئت فتبدو تحت ضوئها الخمارةُ فارغةً، موحِشةً، صامتة، يشق صمتَها النقيقُ والنعيقُ والنباحُ، تتشكَّل ظلال قاتمة راقصة، متمايلة في

هزيز مفزع، ويزيد الأجواءَ رهبةً أطيطُ الأغصان تحت سطوة الريح القوية، فتتسمَّر «شاميرا» في مكانها رعبًا وفزعًا، وتتكوَّم في زاوية ثم ترمي المكنسة، وتنزل مهرولةً إلى القبو.

جلست صامتة، وهي تتابع حركات فاريديا التي طفقت تدفئ جسد إدريس السوسي بيديها وجسدها، وقد انتابته رعشة قوية، تنظر حواليها، فترمق زوجها يدخن سيجارة في ركن مظلم، وقد اغتمَّ غمًّا شديدًا، عكسته النظرات والزفير، فتقول مغمغمة وهي تسرق نظراتٍ في وجه فتاتها، تكاد لا تُفصِح عن المقصود:

- اطلعي لتنامي...! بسببك اليوم، تعارك الرجال، وكادوا يتقاتلون، يا للعجب...! فرنسي يهودي ومغربي مسلم في صفك، أي حظ هذا لك يا ابنة زخارى...؟! صار لك - ورب الأكوان - شأن في بلدة «الغرافين»، ربما تنافسين يومًا «العالية»...!!

يلتفت إليها زخارى والغضب يعصف بلواعجه إعصارًا، قَبُحت له ملامح وجهه وجحظت له عيناه وتجعَّدت جبهته، ثم ينطُّ نحوها بفظاظة وهرير لم تعهدهما فيه ويقول:

- ورب الأكوان...! إن نطقتِ كلمةً أخرى، قطعتُ لسانكِ السليط.

يسود الصمت، لا تكسره غير أنَّات عميقة تصدر من صدر إدريس السوسي، ودبدبة وصهيل الخيول الجامحة، وقعقعة الرعد من حين لآخر، ونقيب الريح وهي تعبر الشقوق والخروق.

11

ما أصل هذه البلدة...؟! وما أصل أسطورتها العجيبة الغالبة على العقول والنفوس في استلاب واستعباد؟! وكيف صارت فيها «**العالية**» سيدةً بلا منازع، لا يردعها رادع، ولا يصدُّها مانع، ولا يردُّها عما هي فيه وازع؟!

فهي تزعم أن في رُوْعها يُلقِي سيدي محمد الحاكي السوسي وكما سمته بسيدي الفَرَاش الخبرَ والنبأَ والأثر من غيبٍ وراء الستر، ويلهمها العزم والقرار والرجاء والشفاء، والنور والبهاء، وأن أمونة السودانية تفتح لها الفتوحات النورانية في علم الشفاء وفك الأسحار. فكيف صدَّقها الناس من كل صوب وحدب في سذاجة أو حاجة، وهم يعلمون أن هذا الغيب الذي تدعيه مستحيل، وأن هذا الادعاء محال وعليل؟!! هل هم ساكتون لمنفعة أو من رهبة، أو هم في غي مُعطِّلو الفهم والإدراك في جهالة يعمهون في ظلمة شر البدعة؟!! هل فعلًا يصدقون أن الأموات إن بلغوا منزلةَ قُربٍ من الله شاركوه ما لا يشترك، وقاسموه ما لا يقتسم في شؤون الربوبية والألوهية، من غيب وقضاء وقدر، فألبسوا إيمانهم عن جهل ظلمًا، وقد نزعوا عن ربهم صفتي التوحيد والتفريد، أم وجدوا في الأسطورة ما يُنعش الحياة في بلدة قهرتها الطبيعة والمحتل من ظلم مريد ومن آثار الجدب المتكرر الشديد؟!!

كان عام ١٩٢٢ هو البداية لكل شيء، فبعد سنتين من حادثة قصف البلدة وخرابها بطائرات المحتل، ساد الدمار والخوف، وفشا من جديد المرض والفقر، فخرجت العالية للوجود، غير المرأة التي كانت، وتحوَّلت من امرأة عادية إلى سيدة بكرامات خارقة، وساعدتها الظروف، ورغبة المحتل في إشغال وإلهاء الناس عن نهب المناجم، وعن المجازر الدموية التي ارتُكِبت، يوم القصف الأليم الذي أحرق الأخضر واليابس.

الآن بعد أربع وعشرين سنة، بلغت «العالية» من العمر عِتيًّا رزيًّا، وما زالت سيدةً وزعيمةً بلا منازع ولا نِدٍّ مُقارِعٍ لها في بلدة «الغرافين» القصيَّة، التي غدت رهنًا محبوسًا في يدها صريًّا. يتقدم العمر بهذه الشمطاء، فتزداد عسفًا وجفاءً، وقد كانت غيداء، نعم... والكل يشهد بذلك جهرًا وسرًّا في خفاء، وكان صليل خلخالها كافيًا لتفجير الأهواء، واضطراب المشاعر في صدور الرجال، حتى لان قلبها ورضي بعد عشق داهَمَ تاجرًا من أترابها، فتزوجته وعاشت معه رضية، في نعيم ودَعَة عيش وبحبوحةِ حياةٍ.

نأى زوجُها بنفسه عن ثورة البلدة السابقة، وانحاز للمحتل، ولم يكن ضد العبور إلى الجبل، فخرج غارمًا غانمًا واغتنى وإن كان قبلُ تاجرًا في يُسر حال وكثرة مال، لكن دوام الحال من المحال، فوقع ما لم يكن في الحسبان، وما لم يخطر على بال، وما لم تكن تنتظره العالية نفسها ولا تتوقعه ولو في الخيال، بهلاك الزوج في مأساة غريبة، وحادثة

مريبة، يتفتت لذكرها الحجر إشفاقًا، فانقلب حالها من سحر قوام وفتنة جمال، إلى سحر العقول واسترقاق ناعم الأغلال، فابتدعت العجب العجاب، حتى سيطرت على العقول والقلوب بالدجل والخرافة، فإن زاغ عقل عن حكمها أطلقت سياط الذئب مؤدِّبًا المتمردين، مُغِلًّا المعارضين بالأغلال.

ظلت سيدةً جبَّارة تشد عنان بلدة الغرافين بعد ما بدَّلَ ومسَخَ حياتَها هلاكُ بعلها الذي عشقته في جنون، فتحوَّلت من فاتنة زمن مضى في هباء، إلى امرأة قوية ظالمة رعناء، وما ازدادت إلا فريًا عصيًّا، الكل يأتمر بأمرها المطاع ويخنع لسلطانها في انصياع، وَجَلًا وترغيبًا، وسبيلها إلى ذلك أسطورتها الراسخة المدلَّسَة، تستمدها من تَجَلٍّ مزعومٍ في قلبها لأسرار الدفين الولي سيدي محمد الحاكي السوسي، الذي غدا اسمه في البلدة «سيدي الفَرَاش»، وإلهامٍ مُفترًى لأخبار الشفاء والرجاء من نور أمونة السودانية الذي يغمرها عند الطلب ولكلِّ حاجة، أسطورة توَّجتها وبوَّأتها سيدةَ الرخاء والشفاء تعتيمًا وتلبيسًا، مستعينةً بيد البطش والقمع الرعناء الخرقاء، لخادمها المطيع وأمين سرها «الذئب» المتباعد الركبتين «الأفجى»، تبطش بها بطشًا لا يلين متعطشًا دومًا إلى الدم والتعذيب، بلا رحمة ولا شفقة، بشدة وقسوة تؤدِّب كل المشككين والمتطاولين، وتفتك فتكًا بكل الخصوم والمعارضين، عبرة تَئِدُ بها كلَّ إرادة في تمرُّد خافية في صدور الآخرين، وجَلْدًا وعذابًا لا يكلَّان، يصلان إن دعت الضرورة بعد التداول في

الأمر في السرِّ والمشورة على الشر إلى السحل تعزيرًا أو التنكيل ترهيبًا، أو القتل تسميمًا.

رَجُلها القوي الشديد البأس الثاني لردع الخصوم والمشككين، هو قائد منطقة أرض الجبلين «الجبل الأخضر و**جبل الغور**»، المسمى «الشراجي»، الحاكم باسم السلطان في منطقة شاسعة الأرجاء والأطراف، تمتد من وراء «جبل الأخضر» مرورًا بجبل «الغور» إلى «وادي أم الشتا».

وقد دأبت في اجتهاد وسخاء على شراء وُدِّه ودعمه وتزكيته بالمال الوفير والهدايا والخبر الثمين وتذويب عزائم التغيير، وتحويل القهر والاحتلال إلى قدَرٍ وقضاءٍ، ومواجهتِه إلى اعتراض على مشيئة السماء، وانتزعت مباركتَه الدائمة بالليالي الحمراوات والعطايا والنساء، فيصون ويرعى مصالحها رعايةَ العرَّاب لقومه من وراء حجاب في خفاء، ولكل منهما منافع ومآرب شتى عند الآخر.

فإن عظم أمرٌ وشَكَل عليها وحارت في الحل وجدت الدعم القوي والسند الضري في الحاكم العسكري العقيد «جورج» الفرنسي، الذي حلَّ بالبلدة عامَ القصف ملازِمًا وترقَّى عقيدًا، ووجد في أسطورتها ودجلها مسالك سالكةً لترويض العقول وتجنُّب نار الثورات، واستعباد الناس والبلاد والإرادات بالخمول والإتاوات، وترسيخ الخنوع للقَدَر، وأن هذا الاحتلال قدَرٌ وقضاء، ولا اعتراض على إرادة الله.

وقلَّما تجد مشككًا أو مرتابًا بين الناس في بلدة الغرافين، التي صارت نارًا على علم في الأقاليم، قِبلةَ الأعيان وكبار القوم والوجهاء، تشفع وتتوسط لهم لنيل المناصب والإعفاءات من التجنيد والضرائب، وللحصول على مظلة حماية وحصانة فرنسا يتطاول التجار الكبار ويتجاسرون بها على رجال الدولة بالموانئ والأسواق ونقط الشحن والنقل والتوزيع والبيع، وصارت مغارة «سيدي الفراش» وعين «أمونة السودانية»، مزارَيْن موسميَّيْن ويوميَّيْن لكل ذي حاجة في يأس ومظلمة من بأس، ولكل من مَنَّى النفسَ اليائسةَ بالذرية فلم ينفعه لا حكيم ولا طبيب، ولكل عانس طال بها الأمد البعيد ولم يطرق بابها لا قريب ولا حريد، ولكل تاجر أفلسه كسادٌ وخانه الحظ العاثر فبارت تجارته، فاشتكى وهمًا متمكنًا في العقل من أثر عين أو من عمل حاسد، ولكل زوجة تكابد غَيرةً جامحةً بَليَّة جائحةً في كنف زوج ضَجِر فراشَها فمال بالأهواء إلى غيرها. وقيل إنها تربط الرجال الأزوار ربطًا شديدًا، فلا يستلذ إلا في الفراش المختار، وتجعل العنان في يد المرأة فيغدو عند قدميها لين الجناح واللسان، وتسحر النساء الممتنعات الشديدات، فيأتين وبخنوع وخضوع بلا نداء ولا توسل، وتفتن الرجال فتنة هيام الأهواء المتمردة، وتحولهم في يد النساء طيعين منقادين كالكلاب المروَّضة، وقيل إن ماء عين أمونة السودانية يحرق الأرواح الشريرة حرق النار المستعرة للحطب اليابس، ويُبطِل السحر الراسخ جديدَه وقديمَه من الأساس.

لم يجرؤ أحد على منافستها أو زعزعة أسطورتها، بل إن أهل البلدة أنفسهم زادوا وأضافوا على مر السنين في سحرها وآثارها وغرابتها وعجبها، وألهبوها بالخيال الطافح، والافتراء المادح، والابتداع الجامح، فنسجوا بحماسةٍ حولها ولها معجزات خارقة عجيبة غريبة، لم تُؤْتَ إلا للرسل والأنبياء، ومنهم من يعلم علم اليقين أن انهيار سلطتها وأسطورتها وتبدُّدَ أسطورتها وشأنها وسمعتها سيؤديان بلا شك ولا ريبة إلى الخراب المبين والكساد الغرين.

بسقوط العالية ستعود البلدة إلى زمنها السحيق، أيام الرتابة والفاقة والعَوَز والضيق، إلى عهد ما بعد القصف، وسينضب معين الدعة والرفاهية الذي يجري ماؤه من نشاط ورواج أسطورتها، فروج أهالي البلدة أنفسهم بعصبية قبلية وحمية ريعية، عجائب وغرائب شاهدوها وما شاهدوها حتى غدت مع الزمن حقائق فصدقوها هم أنفسهم.

ولأنها سيدة المكر والدهاء، فقد اتخذت «الرقاص الملهوف» خطيبًا لها وهو مُرتشٍ مُفوَّه، يصوغ الكلام بسحر بيان للإقناع حسب العطاء، وكان خطيبًا يشد الأسماع شدًّا ويُشنِّف الآذان، ويبتدع الملاحم حسب السخاء، حلوَ اللسان، قويَّ الإقناع والإفهام والإفحام كلما زاد المال، خطيبٌ أجَّرَ لسانَه القاطع كالسيف الحسام، غزير المعاني حين تطربه رنة الدراهم، وحكْيُه صليل باتر للشك كالسيف المهنَّد، تخرجه من الغمد العطايا وصرر المال، فيؤرخ لمسيرتها وأيامها وملاحمها الوهمية، تُمليها عليه ساعةَ انفردت به، وتُراجِعه فيما دوَّن وسجَّل وزاد وجمع وانتقى،

وكان يختلق بوضاعةِ خُلُق وسفالة طمع من الأخبار والأحداث ما ترتضيه هي نفسها، ويدسه ببراعة دس السم في العسل في الخطابة كلما تحدث أو روى، وإرضاء لها أبدع وابتكر كرامات وبركات، وبث وأذاع عنها العجب العجيب، حتى صارت في الأذهان والقلوب معجزة الزمان.

«الرقاص الملهوف» كهل خمسيني ذميم الوجه الناتئ الجبهة... نحيل.. قصير القامة بعيبٍ ظاهرٍ بيِّنٍ، أمرد إلا من شعيرات يتيمة على شاربه، وأصله من بلاد السهل الأحمر، يعتمر دومًا طربوشًا أحمر، كثير الأسفار والرحلات، على بغلته الدهماء متنقلًا بين الحضر والقرى، ولم تكن له من مهمة سوى ترسيخ صورة الوليَّة الورعة في الأذهان، وكراماتها في الألباب والقلوب، فيروِّج في الأسواق والقرى أخبارَها و«معجزاتها»، وكانت له «حلقة» مشهورة في ساحة «جامع الفنا» الشهيرة بمدينة مراكش.

يستعين بجماعة من الأشخاص الغرباء، بأجرة معلومة، فينتشرون حيث يعقد حلقته بين الناس في ساحةٍ ما، ويندسون كالغرباء، ويكون دورهم تأكيد ما قال قَسَمًا وحَلِفًا وبكاءً، كأنهم غرباء لا تربطهم صلة به، وهم شهود زور، وألسنة بهتان، فيوزعون الأدوار فيما بينهم في اتفاق معلوم ومدروس، فهذا يزعم أنه تاجر فاض الخير عليه بعد كسادٍ ببركتها، وهذا مُدَّعٍ أنه زوج رُزق بالذرية بعد عقم لم ينفع معه علاج غير علاجها، وهذا شاب آخر مُدَّعٍ أنه كان عنينًا، فيبكي وينحط

وهو يحكي كيف أعادت «العالية» إلى دمه حرارةَ فحولةٍ افتقدها حتى كاد يهلك كمدًا.

والمرجَّح من خلال الأخبار والأتراب أن «العالية» في عقدها السابع، فهذه العجوز الشمطاء، الداهية، ذات الوجه الخشن، الفظِّ في ملامحه... المتجهِّم الذي فاض بالتجاعيد الغائرة المخيفة وقسوة التعابير المريبة، والتي لولاها لظلت قرية «الغرافين» الجبلية في طي النسيان يأكلها الفراغ والرتابة، هي سبب التحول الكبير الذي عرفته البلدة، منذ أربع وعشرين سنة، وكانت قصيرة القامة والأطراف، ضيقة العينين ممتلئة الشفتين، فطساء دون عيب، كثيرة الوشم على الوجه والكفين والمعصمين، تلتحف دومًا عباءةً خضراء، تغطيها من الرأس إلى القدمين دون الوجه، وتشد رأسها الصغير بمشدٍّ من ثوب أبيض، لا يستر أذنيها الهدباوين، والعجب كل العجب كيف مُسِخ جمالُها وبهاؤُها وقد كانت مضرب الأمثال في الجمال؟!!

في الحقيقة، لولاها لتلاشت البلدة في العدم بفعل النزوح الأعمى من عمي البطون الجائعة، والعقول الحائرة، وقد ساهمت في تهدئة الناس، وإطفاء نار الثأر من المحتل، وشدَّتهم إلى البلدة، رغم الظروف الصعبة لعام ١٩٤٥ التي عاشها القرويون من البوادي الأخرى السقيمة الجائعة، فنزحوا جماعاتٍ نحو المدن والحواضر، وسكنوا في مجمعات سكنية عشوائية تسمى «الكاريان»، مكونة من أكواخ قصديرية بائسة، وكان العام عام الجوع والقحط والأوبئة، وزمن البوار والخراب ونهاية

الحرب وآثارها القاتمة على حياة الناس. والمحتل مفلس، خربة بلاده، وزاد الناسَ شدةً وضيقًا تغيُّر الأحوال والأقدار والمصاير بالجدب والأمراض، والاستنزاف غير العادل للخيرات والموارد من لدن المحتل لتغطية مصاريف الحرب العالمية الثانية.

والحقيقة أنه لولا «العالية» أو بالأحرى «الشريفة» أجمل الألقاب إلى نفسها والذي تنشرح له ويغتبط قلبها لسماعه، لظل الناس في قريتها يلعقون جراح أيام القصف، بين الخرب والجيف، «فالشريفة» - كما تصر أن تُنادَى - هي كنز بلدة الغرافين ولو أنه عطِن، وسم بطيء على مهل، رخاء جم ولو عفن، وهذه المرأة هي أصل تبدُّلِ الناس من سوء حال إلى حُسن حال وأحسن مآل وبحبوحة مال، لولاها، لظلت منسيَّة لا يُذكر لها خبر، ولا يقصدها بدو ولا حضر، ولَتَفرَّق أهلها شذر مذر، بحثًا عن لقمة العيش في المدن والحضر، كما فعل غيرهم من شباب ورجال القرى في الجوار والتخوم الذين قبلوا التجنيد في عسكر وفيالق الفرنسيس، للمحاربة على الجبهات المشتعلة في الصفوف الأمامية، وكما فعل بعضهم ممن قبلوا تسخيرهم في استعباد وسخرة، فاشتغلوا مع المحتلين وإن كان العمل شاقًّا مرهِقًا ومُضنيًا، بأيادٍ عاملة بلا مهارة ولا تأهيل في أي أشغال شاقة، بزهيد الأجر في أوراش البناء وشق الطرقات، وتمهيد المسالك في الجبال الوعرة والقمم النائية، والعمل بالمصانع الناشئة، وممن منحوا سواعدهم القوية، لمد خطوط السكة الحديدية والحفر في الأنفاق المظلمة للمناجم

المكتشَفة، في ظروف رَثَّة، صعبة ومزرية، محفوفة بالمخاطر والمكاره، أو لحمل الصناديق والحمولات الثقيلة وربط السفن بالحبال الغليظة بميناء مدينة الدار البيضاء، وللعمل كعمال زراعيين بيوميات هزيلة في المزارع المغتصَبة الممتدة للكروم والأعناب، وفي الضياع الخصبة الـمُغِلة التي فشت على الدخيل الفرنسي الجديد الأموال الكثيرة.

بلدة «الغرافين» أطلسية المعالم والروح والحياة والحلم والوجوه والعزم، منزوية في وحشة لم تعزلها عن صخب الحياة، تؤدي إليها مسالك وعرة بين الجبال، تخترق الدغل والغابات الموحشة، تمتد امتدادًا منتظمًا مرصوصًا، في سحر وجمال على سفوح الجبل الأخضر ومنحدراته، وعلى ضفتي الوادي العميق «**وادي أم الشتا**». يحصي أنفاسها ومظاهر الحياة فيها **جبل الغور** الجدار الطبيعي لها جهة الشرق، حيث تنتصب ثكنة العسكر، وبنايات منجم الفضة.

وقد تمدَّدت البلدة حتى ظهرت دُور قصيَّة في بطن الوادي نفسه الذي جفَّت مياهه الجارية، وقد كانت في زمنٍ ما تندفع بقوة مدمدمة كالزلزال، بسبب بناء سد «أم الشتا» الذي حصر المياه المسافرة من قمم الجبال عند ذوبان الثلوج في بحيرة ممتدة الأطراف، وفي روافد بعيدة عن مجرى النهر، تجري نحو مصبها الأخير في رحلة طويلة ومضنية، تهب الحياة والبهجة للقرى على الضفاف، إلى أن ترتاح من تعب الطريق بين أحضان المحيط الأطلسي.

غدت البحيرة الساحرة، التي سُميت ببحيرة «الزغلال» محجًّا لعدة أنواع من الطيور المائية، كالبط الوردي والبجع وطيور «الغطاس» وطيور «السماك» وطيور «الرفراف» ومالك الحزين الشره، واللقالق العاشقة للأعالي، وكلها طيور مهاجرة غير مقيمة، تتجمَّع هنا خلال رحلتها الخريفية والشتوية الموسمية من الشمال، وعلى ضفافها أنشأ الاحتلال سياحةً قائمة بنفسها، بفنادق راقية، وملاعب «غولف»، ومنتجعات متنوعة، ممنوعة على السكان الأصليين، محروسة بدورية دائمة من العسكر.

ولم تكن البيوت عامَّة راقية إلا دُور الوجهاء وكبار التجار ممن ظهروا زمن القصف واغتنوا برواج الأسطورة، وتجارة الخرافة، فجُلُّها عبارة عن دُور بائسة بسيطة، وإن لم تخلُ من نعمة ودَعَةٍ، وبدائية رفعت بحجارة وصخور من أديم المنطقة، وطوب من طين يعجنونه والهشيم، وسُقفت بجذوع أشجار الصنوبر وسيقان شجر الأرز، وأعواد القصب والقش المخلوط بالطين، وزحف الإسمنت المتجهِّم العبوس، ولو في صمت فظهرت مساكن جديدة من آجر وخرسانة، ومعمار جديد وأغلبها للمعمرين ومالكي الضيعات.

بلدة ناتئة في شموخ على السفوح والمنحدرات، ظلت بدُورِها البسيطة صامدةً في عناد في وجه الرياح والعواصف والثلوج، كجلاميد واجمة في وجه وادي «أم الشتا» الذي لم يبقَ منه غير جداول بها صخور ملساء كانت خلال العواصف الرعدية الشديدة تشتدُّ حولها تيارات

الماء المتدفق الجاري في سرعة، فيغدو الوادي وعْرَ العبور إلى حين، ومستحيل الجوز حتى تقلَّ المياه المتدفقة في جنونٍ في سنوات الجفاف، فجفَّ بعد حصر السد للماء، وتحويل المجاري والروافد، وغدا نقعًا وأرض عمران، حتى نسي الناس مجراه، فسكنوا جوفه، وتمدَّدوا في الأطراف، قبل أن تمطر السماء وتثلج القمم عامهم هذا، فجرى الوادي من جديد حتى كاد يُهدِّد الدور القريبة من المجرى، لكنه كان رحيمًا مرَّ بهدوء دون تخريب ولا هلكَى.

تحفُّ بلدةَ الغرافين في شكل حزام دائري غابةُ الحسك وهي غابة من أشجار الصنوبر والأرز والسنديان، وتحرسها من علٍ في صمتٍ مرتفعاتٌ وافرة الكلأ، حيث تعيش في أمان قردة «الزعاطيط» القصيرة القامة، والتي ألِفَت الناسَ والوجوه، وكان الأهل يقدسونها، ولا يتشاءمون منها، خلافًا للخنازير البرية التي كانت تعيث فسادًا في حقول الذرة والشعير، فيضطرون إلى صيدها بالشراك والمصايد والرشق بالعصي ومقالع الحجارة.

وأصل التسمية غريب وعجيب، يمتح من الأسطورة والخبر المتواتر حد اليقين، فجدهم الأول الملقب بـ «الغراف»، إليه تُنسب البلدة، ويُجهَل اسمه الحقيقي، وله ملحمة ما زالت تدفئ الصدور في ليالي السمر، كسافك دم القائد «آيت عزة» نحرًا، واليهودي الحداد «**بو الكير**» عقرًا، و«أمين حرفة الحدادة» «**الجبلي بو عزة**» شنقًا، ما انفك يحكيها الأهالي وأبناء الجبال بفخر واعتداد.

وقد كانت البلدة «نسيًا منسيًّا» في غياهب جبال الأطلس الوعرة، تغشاها الغربة والوحشة، في عزلة قاتلة رتيبة، باردة جدًّا، تحرى حريًا من الجوع لها الأبدان، وتهزل الموارد والأموال، وتغور العيون في الرؤوس، فيلوذ الناس وحيواناتهم الأليفة ودواجنهم بالمغارات الدافئة والكهوف الجبلية خريفًا وشتاءً، وقائظةً كالجحيم صيفًا تقضُّ مضاجعَها الحرور الخانقة والهوام السامة الـمُغيرة على البيوت، معزولةً في صمت رهيب، في عَوَز وفقر مدقعين عن باقي الدنيا لوعورة المسالك المؤدية إليها، وشظف العيش لقلة الموارد وعزلة الناس القاسية في إملاق، زمن تقطَعُ الثلوجُ الطرقَ والمسالكَ إليها، ورغم ذلك كان أهلها لا يُفرِّطون في كبريائهم ولا يساومون على كرامتهم إلى أن أصابتهم المسكنة والهوان من تسلط «العالية» على العقول واستمالة القلوب بالدعة والعطاء.

وكانت لهم قبلُ عزةُ نفسٍ في القرون البائدة حسب الرواية الشفوية، عزةٌ تصدُّ الطامع في تركيعهم، وأنفَةٌ لا تُغري الهازل الهازئ، وكبرياء صانهم رغم العَوَز وشظف الحياة من المذلة والعار، فلا تجد بينهم متسوِّلًا ولا طالبَ صدقةٍ، فالمملق جدًّا منهم يجد طعامَه وشرابه عندهم وبينهم على بساطته، فقد كانوا يقنعون بالقليل بكبرياء على الكثير في مذلة، يُزوِّجون العزاب الفقراء منهم بناتهم ويتكفَّلون بالأيتام والأرامل، وكان لباسهم من صوف الضأن وزغب الماعز ووبر البعير، إلى أن غيَّر طباعَهم المحتلُّ، فغرس فيهم الخذلان والجشع،

وبدلت «العالية» شِيَمهم فواحش، فركنوا للذل واستكانوا لِدَعَةِ عيشٍ بلا جهد ولا كَلٍّ.

طباعهم متفرِّدة ومتميِّزة عن غيرهم، فقد كانت سحناتهم متشابهةً كأنهم وُلدوا من صلب رجل واحد كما تزعم الأسطورة، النساء قصيرات هزيلات، صغيرات الرؤوس والأطراف، غزيرات الشعر الناعم المشدود بمنديل أبيض مزركش الزوايا بأهداب خضراء، عيونهن ضيقة وأنوفهن حادة دقيقة، يلتحفن ملحفات وملاءات، تغطيهن من قمة رؤوسهن، ويتحجبن بحجاب من ثوب رقيق شفاف مخملي، فلا تظهر منهن غير العيون، وينتعلن نعالًا من جلد خضراء وصفراء وحمراء وملونة، بينما الرجال تُميِّزهم من سحنات وجوههم القاسية، البيضاء الضاربة إلى حمرة، كأن الدم اعتُصر فيها اعتصارًا، ومن عيونهم الغائرة بين عظام بارزة رقيقة، ومن عمائمهم البيضاء في خطوط صفراء، والتي تغطي الرأس ومن عاداتهم حَلْقُه، وتُهمَل ذؤابة العمامة متدليةً على الأقفاء، ولا يكتمل اللباس عندهم إلا بالخنجر الفضي المعقوف الرأس في غمده المنقوش بعناية والمَوَشَّى بالنقوش، المتدلي على الخصر بحزام من قيطان يُشدُّ من المنكب.

إن اختلف الناس قيلًا وقالًا حول أصلهم، فهم لم يختلفوا حول خصالهم التي تبددت مع الزمان، وغيَّرتها ظروف الاحتلال والمسغبات والأوبئة، عُرِفوا بالشجعان، وبصِعاب المراس، لا يخضعون لراية غير رايتهم، وظلوا لعشرات السنين كثيري التمرُّد والعصيان، على كل

قائد أو سلطان، وكانت لهم صفة لم تؤتَ لغيرهم من الجيران وقرى الجوار، فهم وثَّابون وعدَّاؤون، مسرعون في الركض كالبرق، فرسان تلين لقوتهم وعنادهم الخيول الجامحة وتنقاد لشدتهم وعزمهم الأفراس البرية، فيركبونها عارية السروج، تجول بهم في خنوع الجبال والمروج والبراري القصية والمسالك الوعرة.

كان السلاطين في الأزمنة الغابرة يختارون منهم رُسُلًا يُحمِّلونهم البريد والمهمات العاجلة، ويكلِّفونهم بنقل رسائل الحرب والسلام والوثائق و«الظهائر» و«المراسيم» إلى الأقاليم و«القيادات» وإلى الأمراء والمشاهير من الأعلام، وكان جدهم الأول «الغرافين» هو مجدهم التليد الذي اندثر هباءً، بعد ما غطى عليه مجد «العالية» بدهاءٍ، وقيل إن «الغرافين» الكبير جدهم عربي من قبائل بني هلال، بينما شهادات أخرى أكدت أنه أمازيغي من «آيت إدراسن»، وتَعرَّب لسانه لاختلاطه بالأعراب المجاورين، ويَروُون أنه نزح في أوائل القرن الثامن عشر من الميلاد، وقيل عنه في خبر آخر إنه هرب كالنبيذ في قومه، من أرض «دكالة» البيضاء في القرن العاشر الهجري خوفًا من الثأر أو بطش قائد مستبدٍّ، فاتخذ زوجة صلبة كالصخرة العبلاء، من قبيلة «آيت «سي حمو»» في العلياء، ونزل بوادي «أم الشتا» كالغريب العرير، وليس في يده غير صنعة مَهَرها وخبرها، فهو يجيد صوغ وسبك السيوف والخناجر والدروع، ومُعتِّق ماهر للخمور من التين المجفف والعنب والرمان، فسكن الوادي عند سفح **جبل الغور** قبل

أن ينزح النزوح الثاني، إلى سفوح الجبل الأخضر، حيث كانت العيون تجري مياهها خلال كل الفصول، والكلأ الوفير، والعلو الحصين، والغابات الممتدة، والصيد الوفير.

وظل - حسب الرواية الشفوية - يصنع للقبائل السيوف والخناجر والدروع، ويمدهم بالخمور المعتقة والنبيذ، وعاش في سلام زمنًا، في موالاة قبيلة «آيت «سي حمو»» المتوارية وراء **جبل الغور**، حتى حسبه وعَدَّه الأعرابُ منهم، وكان قد تزوج منهم حسب الأسطورة، واستغنى بأولاده وأحفاده عن حماهم وموالاتهم.

وبمهارته وحُسن إتقانه الحدادة وخصوصًا صناعة السلاح نافسَ يهودَ المنطقة، فاغتاظوا منه، فاشتكاه الحداد اليهودي «**زائيف بو كير**» وأمين الحرفة «**الجبلي بو عزة**» إلى القائد «**آيت تعزة**»، فجلده هذا مائةَ جلدةٍ بتهمة تزويد القبائل المتمردة بالسلاح، وطوَّفه على حمار بين القبائل، مكبَّلًا بالحديد والأغلال، وشهد الناس عذابَه على الملأ، وكان يومًا مشهودًا، فسارت بذِكْره الركبان، وعلى مرأى الأقوام والأنباذ والعوام والزوجة المكلومة والأبناء السبعة ينظرون بحسرة ولواعج كمدٍ قويٍّ جَلْدَ وعُرْي الأب العاجز كشاةِ العيد، لا تستر سوءتَه وعورتَه غيرُ خِرقة بالية، وهم يبكون وينتحبون، حتى أدمي ظهره، واختلط الجلد واللحم.

بتر القائد إبهامَيْه ليشلَّ مهارته في الصناعة التي كانت هي موردَ

رزقِه ومصدرَ عيشه، وليُذلَّه ويكسر شوكته، فمرض «الغرافين» زمنًا طويلًا وتقرَّحت جروحه حتى أوشك على الموت ولزم الفراش تُمرِّضه زوجته بأعشاب الجبل كضماد وشراب.

علم الغرافين أن اليهودي الحداد «**بو كير**» و«**الجبلي بو عزة**» وهو من عرب السفح، أعطيَا استمالةً رشوةً للقائد «**آيت تعزة**» وأوغرا صدره عليه حقدًا وكراهيةً، بوشايةٍ كاذبة، فأوهماه ظُلمًا أنه يُعِين عونًا لا مثيل له قبائلَ متمردةً على حكمه بالسلاح والعتاد، وينقلها بنفسه على البغال عبر الطرق الوعرة في جنح الظلام.

فخرج «الغرافين» ذات غبش، وليس معه غير خنجرٍ في جرابٍ وقلبٍ في كمدٍ، وسيفٍ في غِمد، ومِزْود طعام وقربة ماء وشراب على ظهر بغلته الشهباء. يستحثُّ الدابة في المسير، والظلام سِتِّير، مستعجلًا دمًا يُبرِّد الألم المرير، بعد ما أوصى الكبيرَ بالصغيرِ، والزوجةَ بالمصيرِ، وتضرَّع لله القدير، وتسلَّح بعزيمة قوية، وعزم مكين على الثأر للنفس الأبيَّة، وجنانه مختلج بلواعج رجل جسور مرير، ولم يعد أبدًا...

فغدا أسطورةً، شبحًا... روحًا... قصةَ اعتداد وفخر ردحًا، ثم حكايةَ سمر زمنًا، يصادفه الرُّحَّل والركبان في الأودية والأماكن الموحشة، فيتزوَّد منهم طعامًا إن خذله الصيد وماءً إن بَعُدَ النبعُ، ويحكون عنه العجب ويُعدِّدون المناقب والغرائب.

فجاءت الأخبار وانتشرت كالنار في الهشيم، وقد كان الناس آنذاك

في حاجةٍ ملحَّةٍ إلى هذا الدم لتبرد الصدور الحانقة، وتهدأ القلوب الحاقدة، وتتحرَّر الأرواح المظلومة، وتقرَّ العيون المكلومة، فقد نحر الغرافين القائد «آيت عزة» نحرَ البعيرِ عقرًا، في تختة بين نسائه وولدانه وخدمه وعسَسِه، وانتشر الرعب وفشا الهلع بين اليهود في القرى والحضر خوفًا من بطشه، وبين عرب «جبالة» حتى صار الناس يحتاجون حدادًا فلا يجدونه.

لم يعرف الناس كيف وصل كالبرق إلى الحداد «بو كير» في جنح الظلام وهو بين خدمه وفي حراسةٍ مشددةٍ بين رجاله، ووراء أسوار قصر اليهود، فحاروا في الأمر والتبس عليهم حتى قيل إن له من الأعوان جِنًّا، ليريحوا العقل من الإبهام، فهكذا طُبع الناس حين لا يفهمون، يردُّون الأمر إلى الغيب والأساطير. ولم يكتفِ بنحره بل قطع أصابعَه كلها، فإن قطع القائد «آيت عزة» ذُلًّا إبهاميه فقد قطع هو غِلًّا وإذلالًا كل أصابعه. واستأمن باقي اليهود والعرب «الجبالة» على أملاكهم وأمنهم وذراريهم، فلم يكن طبعه وشهامته يسمحان له ولو حِقدًا جارفًا بقتل كل يهودي أو جبلي بجريرةِ واحدٍ منهم.

أما أمين حرفة الحدادين بو عزة الجبلي فقد هرب إلى حاضرة فاس، مستترًا بهوية خفية، لكن يد الغرافين طالته في أحد الحمامات العمومية، وشنقَه وعلَّقه على خشبة إطار باب من أبوابها. وقيل إن الغرافين مات وحيدًا طريدًا في البراري حريدًا، لا يُعرَف له قبر ولا لحد، لم تطله لا أيادي الفرنسيس ولا حملات السلطان وقُوَّاده بالمنطقة.

١٢

وتقول الروايات الشفوية، إن أولاد «الغرافين» وأحفادَه تكاثروا وتناسلوا على مرِّ السنين والحقب، وليس لهم من حرفة معروفة غير الحدادة حتى بارت وكسدت صناعة السيوف والدروع، بتغيُّر الأحوال والأسلحة وخُطَط الحروب، وبانتشار البارود والمدافع والأسلحة الجديدة، فتعلم عَقِبُه الزراعةَ والرعيَ على مضض، فقد كان أبناؤه السبعة يعدُّون الفلاحةَ مهنةَ الأنباذِ، وظلوا يدفَؤُون بسيرة جدهم الأول الغرافين في لياليهم الباردة في المغارات والكهوف، ويسمرون سمرًا مشوِّقًا بأساطيره وملاحمه، وكان هو كلَّ مجدهم التليد حتى صاروا أمَّة في هذه البلدة.

وقالت الأخبار المتواترة إنه سُمي بالغرافين لأنه كان كثير الغَرْف واحتساء السُّلاف من خالص النبيذ، يغترف منه وهو الذي ينبذه من العنب والتين في قدور وخَوابٍ كبيرةٍ بقدح من طين يسمى «الغرافين»، لهذا كانوا ذوي حميَّة وعصبية وشوكة عصيَّة على الكسر أمام المغيرين من القبائل المجاورة، وحتى الجيوش الفرنسية، إلى أن غيَّرت طباعهم «العالية»، فنسوا محتِدَهم، وأصل مجدهم، وألِفُوا الدَّعَة في هوانٍ والرخاءَ في عارٍ على العَوَز بأَنَفَةٍ وعزَّةِ نفسٍ، ولم يدخل «الفرنسيس» البلدةَ إلا سنة ١٩٢٠ بعد الحادثة المشهورة لسيدي الفَرَاش، حتى

روَّضتهم المدافع الضخمة، وهدمت بيوتهم فوق رؤوسهم الطائراتُ قصفًا، فعقدوا هدنةً مع المحتل الذي لم يكن له مِن هَمٍّ وغرضٍ سوى استغلال منجم الفضة في **جبل الغور**.

مع ظهور أسطورة «العالية» عمَّ الخير والنعيم أهل البلدة، وفاض على النواحي والجوار والتخوم، فصارت الزراعة نشاطًا ثانويًّا، وخرجت بلدة الغرافين النائية المغمورة من العزلة والنسيان، واتسعت تجارتها ومواردها، بتكاثُر زوار المزارات، فتمددت بنيانًا ومعمارًا، وأوجد الناس مِهَنًا جديدةً مستحدثة من الحاجة والضرورة، مُدِرَّة للأموال والأقوات، فتعددت وسائل النقل وإن ظلت بدائيةً بين عربات بدائية تجرها البغال والحمير، وراقية مغطاة تجرها الخيول الأصيلة، وبعض السيارات التي تثير العجب في النفوس والغرابة في العقول والتي تأتي من بعيد، من الحواضر كفاس ومراكش، مُقِلَّةً الأعيانَ والوجهاء والأغنياء وذوي الجاه والسلطة، وغالبًا لا تصمد أمام وعورة المسالك والمنعطفات على الطرق المحفوفة بالمخاطر.

صارت البلدة سنويًّا موسم احتفال بطقوس وشعائر، يفتتحه أعيان ووجهاء المنطقة، وفي مقدمتهم قائد أرض الجبلين «الشراجي» والحاكم العسكري الفرنسي العقيد «جورج» بكُسوَتِه العسكرية، ويتجنب أهل البلدة لبقية كبرياءَ في الصدور، حضور موكب الحاكم الفرنسي، وينظرون إليه وللقائد نظرةَ كبرياء وشموخ، فهم لم ينسوا بعدُ القصفَ القديم، والدمار الأليم، ولم تبرد قلوبهم من قسوة الغزاة، فلا يُظهِرون

لهما الخنوع ولا الطاعة، عدا الوجهاء وأغنياء سلع الثكنات وتجار الموسم ومن قَبِلوا غِنًى في مذلَّة، ويسرًا في هوان، وكان الطرفان يَقبَلان بهذا الوضع صمتًا، فلا الحاكم يريد فتح جبهة صراع معهم وهم أشداء قوية شكيمتهم، ولا هم يريدون خلق القلاقل بسبب حضوره موسمهم، فكان تواطؤهم على الصمت والتجاهل أسلوبًا لتدبير زمن الزيارة.

يقصد هذا الموسمَ الأزواجُ والعزابُ والعذارَى العوانس والمهمومون والمرضى من كل الطبقات والشرائح، وكل ذي حاجة يظن أنه سيجد دواءَه أو شفاءَه أو مأربَه في البلدة «المباركة».

وبما أن القلوب تهفو إلى القُبَب، والزوار أشد صبوة إلى قُبَّة أو ضريح يرقد فيهما ولي من الأولياء، فقد استعاض عنهما أهل بلدة الغرافين بعين «أمونة»، وبنوا لها سقيفةً ومذبحًا، وجعلوا من مغارة «سيدي الفراش» ضريحًا صريحًا، بقُبَّة فوق صخرةٍ، وأعلامٍ خضراء، فاستُحدِثت له وظيفة، ولكل قبة وظيفة، فغدا ملجأً لكلِّ مظلوم، وملاذًا لكل يائس، عنده الستر والنعمة والرواج والخير، وفك الأسحار، ودعم التجار، وتزويج العوانس، وفك الرباط في العقد، وإرجاع الفحولة لمن خبَتْ في أوصاله جذوة الذكورة، ومن ماء عين أمونة يُغتَسَل من النحس والحسد ومن الأسحار وعوائق الزواج والأرزاق.

ولا بد في طقوسٍ استحدثَتْها وابتدعَتْها لتأكلَ أموال الناس بالباطل، للزائر والزائرة أن يرجُوَا الأمان وتفيض «النية» على الفهم

والوعي، ويطلبا السلام والتسليم بذبيحة على صخرة صارت قانيةً من كثرة الذبائح، قُرب عين «أمونة»، ولا بد أن يزورا مغارة الشريف «سيدي الفراش» ويُشعِلَا إحدى عشرة شمعةً، ويضعَا أحدَ عشرَ قالبًا من السكر على مدخلها وما تجود به النفس من مال في صندوق، تحت حراسة البراق، ومفتاحه عند «العالية».

اختلفت المواقف وردود الفعل في البداية من «الشريفة» وخلوتها قبل أن تعمَّ النعمة بفضل «بركتها»، بين خائف متوجِّس، وناقم حاسد، ومُشكِّك غير مصدِّق، وحليف غانم متواطئ، لكنهم صاروا مع الوقت مصدقين مؤمنين بمعجزاتها، وهم مَن ساهموا في صنعها ونشرها، فغدت قِبلَةَ النساء لربطٍ وهميٍّ لأزواج تمردوا على الحياة الزوجية، وضجِروا من الفراش الواحد، أو اكتشفوا ملذات جديدة في أسرة جديدة، وقِبلَةَ التاجر الذي تبور تجارته ويجهل السببَ، فيختار كشف «الشريفة» وبركتها لتزدهر التجارة.

قضت «العالية» ليلة مستنصِرَةً بسيدي الحاكي على باب المغارة في البداية، باكيةً منتحبةً، تلفُّها الأسطورة والرهبة، مستنجِدَةً بلالة أمونة السودانية، وقد نسجت حولها أساطير مخيفة، وتناقلت الألسن بحماسٍ ورهبةٍ أن الشريفة أُمِرت من لدن سيد المقام بعد مقتل زوجها سي «الراقي» في رؤيا كالصبح واضحة، لا تحتاج التأويل ولا التعبير، بأن تبتعد وتعتزل الناس في خلوة بالمغارة أربعين ليلةً وليلةً، وبعدها تخرج عليهم وبيدها مفاتيح الأسرار.

أقامت خلوتها، وكانوا يجدون عندها الطعام والشراب، وجذوةَ نار لا تخبو كلما مرُّوا بها، فيزدادون عجبًا وسحرًا وفِتنة، والحقيقة، أنه منذ ليلتها الأولى في الخلوة، وجدت لصًّا قاطع طريق، جعل من المغارة مقرًّا ومخبأً، وكان يافعًا وحيدًا، وحكى حكايتَه الحزينة، فأشفقت عليه ومن حاله، فقد عاش مع أمه وأبيه في خيمة معزولة على «تل الشيح» وراء الجبل الأخضر، وكانوا غرباء عن المنطقة، ولم يكن لأبيه من مصدر عيش سوى العمل بسواعده، وحين شحَّتِ السماء، وقلَّ العطاء، لم يعد أهل بلدة الغرافين في حاجة إلى كَدِّه، فاكتنفهم الجوع والإملاق، حتى فتحت الأم خيمتها لطالبي المتعة، وكان هو وأبوه، ينظران من بعيدٍ، ويتلهيان برعي شاتين عجفاوين، حتى يقضي الرجل وطرَه، ويأتي غيرُه، ويرى الدمع منحصرًا في زوايا عيني أبيه، الذي انكسرَ وذَلَّ، حتى غدا لا يصحو من ثُمالة. فخرج الأب ذات فجر ولم يعد. وظلَّ الحال على ما هو عليه، وكان طفلًا لم يبلغ الحُلُم، يرى الرجال يخرجون ويدخلون إلى خيمة أمه، وأكثرهم من بلدة الغرافين.

ومرضت الأم مرضًا لم يمهلها طويلًا، فماتت في ألم ووجع، أبكاه لياليَ طويلةً، وظلت جثتها في الخيمة لا يدري ما يفعل بها إلى أن تحللت وتعفنت، ولم يعفها بل ظلَّ يقاسمها المفرشة، ويكلمها ولا تجيب، حتى دفنها عابرُ سبيلٍ ولم يتبقَّ من جثتها إلا العظام، وتاه هو في غابة الحسك، حتى وجد يومًا جثة معلَّقة بحبلٍ على شجرة، وما زالت الغربان تعوف بها وتنهش ما تفتت من عظم ولحم، فأنزل ما فضل من

الكواسر والجوارح، ومن الثياب الرثة علم أنها لأبيه، فواراه الترابَ ومضى، ثم عاش ونشأ حاقدًا على أهل بلدة الغرافين، لصًّا في الليل، صيادًا في النهار.

فسمَّتْه العالية «الذئب» واتخذته فيما بعد رجلًا من رجالها الأشداء، وظل يأتيها بالطعام والشراب ويُشعِل نارها ليلًا، وأهل البلدة يعتقدون أن لها بركةً وأن السماء تُطعِمها، والأرواحَ تحضُر لتسامرها، وأن أمونة تُحدِّثها، وسيدي الحاكي يُعلِّمها أسرارَه وعلمه في خفاء.

وحين خرجت من الخلوة، سكنت في البدء كوخًا بسيطًا ضيقًا، قريبَ السقف، من حجر وطين وسقف من جذوع الشجر، وسيَّجَتْه بالقصب والحجارة وشجر الغار وشوك الصبار، قبل أن يَبني لها العقيد دارًا تليق بها، ونذرت الصمت أيامًا، وبعد انقضاء زمن النذر الأخطل، زعمت أنها مُنِحت مفاتيح الغيب وكشف المستور وشفاء المجنون وفك الربط والسحر، من خبرٍ تتلقاه من سيدي الفراش، وغيبٍ يتجلَّى لها من أمونة السودانية.

١٣

تناقلت ألسنة الناس في خشوعٍ ورهبة في النفوس، وثقةٍ راجحة، كرامات «العالية»، والسر العجيب لمغارة «سيدي الفراش»، وبركة ماء عين «أمونة» فغدت بلدة «الغرافين» بعد سنة ١٩٢٢ محكمةً يحجُّ إليها الأزواج من كل صوب وحدب، لفضِّ نزاعاتهم الزوجية وحلِّ مشكلاتهم، ورفع الشك والشقاق، كما غدت مقامًا ومزارًا يؤمُّهما التجار العاثِرُو الحظِّ، المفلسون في تجارة بائرة، ويقصدهما كل يائس ويائسة والمحرومون من الذرية، أو معطلات الزواج من الفتيات اليائسات، أو الزوجات الخائفات المترددات الضعيفات على الأزواج من غواية النساء الأخريات، فكانت تتحوَّل إلى فضاء ضاجٍّ صاخِبٍ بالزوار فُرادى وجماعات، فنشِطَت تجارة البقالة والنقل بالعربات والاتجار في الشمع والسكر والخبز والشاي والحناء والفواكه الجافة، والدجاج والديوك والتيوس والأبقار وكراء الدور والخيام.

ولا يذكر أهل البلدة كيف صار ماء العين التي سُميت ماء أمونة السودانية مقدسًا وذا بركة ونعمة، ويجهلون أشد الجهل أن «الرقاص الملهوف» راويةَ ملاحم «العالية» وناشرَ أنبائها، وباثَّ أخبارِها على هواها هو مَن حوَّلَ الأسطورةَ إلى تجارةٍ، وهو مَن بذر بإيعاز من سيدته الداهية في العقول والنفوس بذرةَ شعيرةِ الغُسل تحت مائها، كطقس

ضروري لاكتمال طقس التخلص من السحر والعين وفك العقد، وعَدَّد وشعَّب في بركات العين ما يجلب كل راغب زائر، حسب الرغبة ودرجة اليأس، فهي ماء مبارك، يفكُّ النحس ويُبدد أذى العين، ويفكُّ الربط مهما كان قديمًا ومتينًا، ويُبطِل سحر تعطيل الزواج ويفسخ عقد النفاثات لتأخير الإنجاب والاستحاضة المزمنة.

ولأن أهل البلدة في البداية كانوا مُعْوِزين، وفلاحَتُهم بسيطة، وقد خربت بلدتهم بعد قصفها، وضاقت حياتهم بالجدب، فقد زكَّوا الأسطورة، ولم يُشكِّكوا فيها، وقد وعَى بعضُهم من العقلاء أنها ملفَّقة وزيفٌ وإن ركبهم العجب، لكن مع الأجيال وتواتر الأحوال صارت حقيقيةً في العقول والصدور، فدافعوا هم أنفسُهم عن وهمها عقلاءَ وجهلاءَ، وجعلوا لها جابيًا محصِّلًا ماليًّا دائمًا وصناديق ومقامًا للذبح والهدايا.

سعَّروا الشربةَ بفرنكٍ والسقايةَ بفرنكَيْن والاغتسالَ بثلاثة، وفي زمنٍ ما همس «الرقاص الملهوف» اللئيم في آذانهم عن سر غريب جديد في الاغتسال المبتدَع، فصدَّق الأولون، وقلَّدهم مَن أتى مِن بعدهم، وغدا طقسُ الاغتسال لا يكتمل إلا برمي الثياب الداخلية، وتعليقها على شجرة سرو عاليةٍ وتغييرها إلى جديدة لا تُشترَى إلا من البلدة لا غير، فنشأت تجارة الملابس والأثواب، وشرطوا الذبائح من المعز والتيوس والخرفان، ومَن له القدرة وأراد كلَّ النعمة فليُقدِّم عجلًا سمينًا أو جملًا جذعًا، فتوسَّعت الزرائب والحظائر، وغدا ضروريًّا

تخضيبُ الأكفِّ بحناءٍ تُباع فقط في البلدة، وتَرْكُ أثرٍ لها على صخرةٍ من صخور المغارة.

وحين يسأل الزوَّار أهل البلدةِ عن «العالية» يرددون في إيمانٍ وخشوعٍ وتصديقٍ وخنوعٍ ما حفظوه وتوارثوه دون تمحيص ولا محاولة فهمٍ، وللإجابة عن القضايا الكبرى يتصدَّى مؤرِّخ ملامحِها ومُوثِّق أخبارها «الرقاص الملهوف» فيقول بثقةٍ وشموخ وهو ينشُّ بمِنَشَّته الذبابَ في المجالس: «إنها من نساء قرية «الغرافين» الأصيلات الشريفات، كانت جميلةَ الجميلات، قبل أن ينكشف لها السر المكنون، بابتلاء السماء لها، وبتدبير الأسباب، كانت زوجةً موسرة لرجل أحبَّته هيامًا وغيرة طافحتين، يتاجر في تجارة الشاي والحبوب في الأسواق، تعيش في كنفه في دعة وسكينة وسلام، لم تُرزَق بأولاد، فصبرت إلى أن وشى الواشي، وفرق الشمل، وزوجها أول من أدخل الزيوت إلى البلدة، غير زيت الزيتون، وعلَّم الناس الطهو بها.»

وحين يسألون عن نسلها وفصلها يقول الرقاص الملهوف: «عاشت في كنف الراقي رحمه الله إلى أن وشى الواشي افتراءً وكذبًا طمعًا في عطاءٍ أو غنيمة في جنح الظلام، وهمس همسًا ووسوسةً قاتلةً في الصدر والقلب، وهو يطلب الأمان والستر، وأشار للراقي بإصبع الغدر، وخيانةِ العشرة والملح والدم، وباتهامه غيبةً باتخاذه خليلةً من قبيلةِ «سهل الرحل»، حتى إذا حبلت منه تزوَّجها فأنجبت له الولد، الذي عجزت هي عنه ذكرًا، فطاف به فرحًا وغبطةً جارفةً خيام

السهل، وأولم له عقيقةً سارت بذِكْرها الركبان، ورقص فيها وشرب النبيذ، وشوى الخرفان وجاد بالمال والطعام، وأقسم الواشي الفَتَّان أنه رآه بأم عينيه يبيتُ في دارها والغلام على صدره، وأنه ناصح لها خوفًا على مالها وجاهها ومال وثروة زوجها من تلك الأفعى الرقطاء، التي أغوته وهي جميلة الجميلات».

وما لا يرويه «الرقاص الملهوف» لأنه لا يعرفه أن «العالية» يوم الوشاية القاتلة عادت إلى مرآتها، تنظر إلى الوجه الذي كان آيةً في الجمال منذ عشرين سنةً، وتلمَّست في ظلها الشاحب القاتم، أثر أربعين عامًا من العمر في الوجه والجيد، فنزعت المنديل، فأخافتها شعيرات بيضاء بدأت تتسلل في صمت، فارتعش قلبها لتلك الخطوط الغائرة التي بدأت تجعِّد طرَفَيْ صدغيها، فخافت صروف الدهر، وأثر الأيام على العنفوان والطراوة، فدبَّ اليأس القاتل في قلبها وجاش صدرُها ألـمًا وغِلًّا، وامتلأ حنقًا، فكسرت المرآة بقبضة يدها.

ويقول «الرقاص الملهوف» في كل حلقة من حلقات الثناء والدعاية، إنها قررت أن تحتكم إلى «سيدي الفراش»، نصير المظلومات وقد أنكر «سي الراقي» الزواجَ من الفتاة، وأقسم بأغلظ الأيمان أنه بريء مُتَّهم ظلمًا في جرم لم يرتكبه، وعزَّ عليه بعد عشرة طويلة مدتها عشرون حولًا أن ترميه بعدم الوفاء، وأن يسمع الناس ذلك وما فيه منه شيء، وحلف وهو يبكي والمرأة في زمزمةٍ تُصوت عيناها لهبًا، وأكَّد لها أن الأمر كيدُ كائدٍ، يريد به التفرقة والفتنة، لكنَّ الغيرة أعمت

عينيها وغشت تفكيرَها، فاحتكما إلى مغارة «سيدي الفراش» وهي أن يقضي ليلةً بها، ويدعوَ على نفسه إن كان كاذبًا بألا يخرج منها أبدًا حيًّا.

وجاء في أخبار «الرقاص الملهوف» أيضًا الجواب الشافي للبدايات الغريبة ولأصل التكوين في حكايات عجيبة، قائلًا: «إن أهل البلدة انتظروا في ألم عشر ليالٍ باردات، حتى اكتمال القمر، وانجلت عنه السحب، فشدوا الرحال بعزمٍ وإصرار إلى مغارة «سيدي الفراش»، فهي الضامن للوفاء والإخلاص، وودعوه بين مُشفِق وغاضِبٍ، فشيَّعه البعض بنظراتِ المودِّعين اليائسين، وآخرون بعيون حزينة، قلقة، لم يخفُتِ الرجاء في بريقها، وأقسم ودعا الدعاء العظيم، ومشى سي «الراقي» حثيثًا مطمئنًّا، بلا خوف ولا تردد، والابتسامة تعلو شفتيه، وهو يردد: «والله يا العالية...! يا قرة العين...! أنتِ وحدَكِ مَن يهفو إليها قلبي... وحدَكِ مَن تصبو لها أشواقي... أنا صادق... والله...! والله...»!!

وأدبر الليل في رعشةٍ، فأقبل الصبح دون عجلةٍ، مشفقًا في لوعة، على الرجل صاحب الدعوة، فانتظر الجمعُ خروجَه، وانتظروا وما يئسوا ولا تبرَّموا حتى ارتفع قرص الشمس في السماء، وصار فوقَ رؤوسهم كرُمح منتصب، وزادوا في جرعة صبرهم، والرجل عندهم على الأعمِّ كريم غير ظنين، متَّهم بريء، حتى أعصر عليهم الوقت، فعصرهم الانتظارُ والترقُّب، وأخيرًا فقدوا الأمل في خروجه، تبادلوا النظرات بقلق وذهول، لِمَ لَمْ تُطلِق سراحه المغارةُ إذًا؟!! وهل فعلًا

هناك سر جديد لها اكتُشِف بهذا الحدث الأليم؟! فعدُّوه خائنًا بعد ما كان ظنينًا، وغادِرًا بعد ما كان متهمًا، فصاح غلامٌ وكان مساعدًا كفله «سي الراقي» كالولد منه، وأنعم عليه بالسكن والطعام والدفء والحماية: «فُصِل في الأمر الذي فيه كنتم تختلفون، الراقي خائن للعشرة والملح، خائن لعقد الزواج المقدس، أخذت روحَه المغارةُ، وعَرَّى إثمه الولي سيدي الحاكي، وكشفت خيانتَه أمونة السودانية، ثروتُه تُنقَل إلى «العالية» حسب الأعراف، وفدية ما زالت على ذمة أهله من الأصول إن وُجدوا، وفي الفروع من الأصول، ولو فرع واحد، لا يهمُّ ذكرًا كان أم أنثى، فإن لم يجدوا مالًا للفدية، صار واحدٌ منهم عبدًا لها حتى تبرد نفسها فإن شاءت حرَّرته، وإن لم تشأ ملكته عبدًا إلى يوم الدين».

وكثيرًا ما يُردِّد الرقاص الملهوف افتراءً ونسجًا من الخيال والناس مشدوهون في «حلقةٍ» من حلقاته بساحة جامع «الفنا» بمراكش أن العالية، الشريفة... غابت ورحلت بالروح عن الدنيا ثلاث ليالٍ، وليس فيها ما يدل على حياة غير نفس صاعد، ولسان ناطق في هذيان، لا يبين ولا يستبين، وهي في غيبوبة غير معهودة، ورهينة في علياء غير محدودة، وتنطق بين حين وحين كلامًا لا نفهمه، بنبرة كالهدير، وبلغةٍ معقودةٍ، ملغزة غير مألوفة، وحين استفاقت، التأمت شظايا المرآة في معجزة، ووُشِمت بلا يدٍ وُشومًا غريبة على الجبهة والكفين، لا الواشم معروف ولا الموشومة المذهولة مدركةٌ، حتى جاء الخبر، مبطلًا دعواهم وتُهمَتَهم للرجل الشهيد، ففي الليلة الرابعة، وَجد

راعٍ على منحدَرٍ، جثة رجل، فأتى بها أهلَ البلدة، تفحَّصَها الناس في ذهولٍ وحسرةٍ، فعجبوا عجبًا شديدًا، وذهلوا مما رأوا، فقد كانت الجثة «للراقي» زوج «العالية» تاجر الشاي والحبوب، وبها طعنات غائرة قاتلة بخنجر على الصدر جهة القلب، فنودي على العالية الشريفة، فصاح بين الجموع منادٍ من آل الراقي: «هذا الراقي بريء، وقد ماتَ غِيلةً بيدِ غادرٍ، أما الفدية فقد سقطت، وأما الإرث فهو على أعرافنا، لا نورث امرأةً، والعالية لا ذرية لها ولا ذكر، وتركة الراقي المغدور، للإخوة من الذكور، ولا عزاء ولا كحل ولا خضاب ولا أعراس حتى يُقتَصَّ من القاتل».

يضيف الرقاص الملهوف: «ما هَمَّ العالية، أن يضيع منها إرثٌ ولا مال ولا عقار ولا تجارة غدت رهنًا بين أيادي أهل الزوج عرفًا، ما همَّها غير هلاك «الراقي» غدرًا، فانتحبَتْ حتى غُشِي عليها، وتمرَّغت في الرماد، وشقَّتِ الصدر وندبت حتى تركت على الخدين ندوبًا طرية ما زالت ظاهرةً للعيون لحد الآن، وحلقت شعرها، وأقسمت ألَّا كحلَ ولا خِضابَ ولا عِطرَ ولا حياةَ حُبورٍ، حتى يُقتَصَّ للرجل... للزوج المغدور»!!

وكان «الرقاص الملهوف» يجد لذةً عارمةً في سرد هذا المقطع المثير والساحر، بلغةٍ تخلُب العقولَ، وإيماءاتٍ تفتن القلوبَ، فيقول وقد ينحط نحط الثكالى: «طاف بـ «العالية» طائفُ خيرٍ من نور وضياء من روح سيدي الفراش، وهي منتحبة على باب المغارة، وقال: يا

«العالية»...! أخذنا الزوج القتيل، وسنمُنُّ عليكِ بالنور الجليل، فاقتصُّوا من القريب قبل البعيد، اقتصوا من الصديق قبل الغريم، يا «العالية»! أول من صاح يا صاح، هو الغادر السفاح، مَن أكل مِن يدك رغيفًا بعد ما ساح، هو ظل الخنجر والدم في يده نضاح، والحلم في ليله كابوس فضَّاح».

وقد يقف «الرقاص الملهوف» وسط الحلقة، ثم يجهش في البكاء، حتى يبكي من حوله ويقول في غصَّة: «أصبحت الشريفة لا تدري تعبيرًا لرؤياها، فقررت أمرًا ما لم يفعله أحد قبلها، انتظرت غرة البدر، واختلت ليلةً على باب المغارة تطلب الفرج، فرج الروح والقلب، بتفسير الرؤيا، فجاءها الطائف الكاشف للأسرار، يقول وهي في اعتصار: «أنا سيدي الفراش، أمنحكِ مفاتيحي وأسراري» ثم ظهرت لها أمونة وقالت: «أنا روح عين العين، اذهبي ستعرفينه من بين الحشود من أول نظرة». ويزيد الرقاص الملهوف في أخباره مرددًا: «حين عادت اجتمع الناس، وتحلَّقوا حولها في ذهول، بين مُشفِق ومُتعجِّب، فصعدت سطح بيتها ونظرت في العيون، ثم تفرَّست في الوجوه، فخرَّ رضوان أرضًا يبكي وهي تنظر في عينيه، فقالت: يا رضوان! لقد كنتَ المنادي أنه خان العهد، يا رضوان...! كنتَ أول من صاح ذاك اليوم، وأنت القريب والشريك، خادم سيدك الراقي، أطعمكَ من جوعٍ، قرَّبَك فصرتَ كالولد الوميق، آواك حتى حسبك الناس منَّا، فغدرتَ وخنتَ الملح والعشرة، فلِمَ قتلتَه قتل الغريم، بلا رحمة ولا شفقة؟!

فقبَّل رضوان قدميها، وانتحب ونحط بندمٍ وحسرةٍ وقال: «أردتُ تجارتَه، وبيتَه وزوجتَه، يا ويلتاه...! يا ويلتاه...! مِن فعلتي الشنعاء، زيَّن لي الشيطان الأمرَ، وهوَّن لي الغدر، وأعانه على الوسوسة من أهل البلدة مَن حسدوه، فقتلوه بيدي، دمُه والله متفرِّق بينهم، وإن ادَّعَوا أنهم أبرياء» فصاح منادٍ من بين الحشود: «ارجموه، حتى يموت...»! لكن الشريفة العالية، أشارت بيدها وقالت: «لا رجمَ ولا قصاص، اتركوه... يذهب... وسترون».

وساح رضوان في ضلالةِ روح، وعذاب عقل، واعتصار قلب، بين الفجاج والدروب كالمجنون، لا مأوى له ولا سكن لا رحيم ولا شفيع، يرجمه الصغار بالحجارة، ويصدُّه الكبار بالعبارة، حتى ضاقت به الدنيا بما رحُبت، فرمى نفسَه مِن عَلٍ، فسقطت جثته هامدةً قُرب عينِ ماءٍ غربَ «غابة الحسك» وهي محرمة شُربها والسقاية منها، فصارت تُسمَّى عين الغدر، لأن دمه اختلط بمائها».

ويزعف الرقاص الملهوف زعفًا كبيرًا في الحديث والخبر الغريب مرددًا مناديًا بين الناس، أو حاكيًا في حلقة في رحاب الأسواق وساحات القرى: «اكتملت الرؤيا والاجتباه في الخفاء، فاعتزلت «العالية» الناسَ والحياةَ، ومباهجها أربعين ليلة وليلة في مغارة سيدي الفراش، ثم خرجت للوجود بالكرامات والخيرات الغزيرة ومفاتيح الأسرار، فوقَّرَها أهل «بلدة الغرافين» وكل البقاع والأمصار، وغدت بركةً وشفاءً لكل داء وجفاء وتبَدُّلِ الأمزجة وتعكُّرِها، وجموحِ

الأهواء بالعقل والصدر، وهي حاملة سِرِّ سيدي الفراش، وتجليات أنوار أمونة السودانية، ففي قلبها التقت الأنوار، وتدفَّقت من الغيب الأخبار».

والحقيقة الغائبة التي لا يرويها الرقاص الملهوف، ولا تأتي في أخباره عبر الأمصار والأقاليم، وفي المواسم وباقي الأوقات، وقد تجرجرها بعض صدور أهل بلدة الغرافين دون البوح بها، أنهم وجدوا في أسطورتها مصالحَ ومنافعَ عديدةً، فازدهر البيع والبناء والتجارة في أركان البلد، فصارت كَنْزَهم الذي لا يفنى، بل يزيد ولا ينقص، وابتدعوا حولها الأساطير الغريبة والأخبار العجيبة، من قائل: إنها تُسخِّر الجن والمردة والعفاريت، وقائل: إن زوجها سلطان مارد من الجن، ومن قائل إنها تشفي بلمسة يد وبَـخَّة ريق، وتعرف الأسرار بنظرة عين واحدة، حتى استعان بها العجم من الرهبان النصارى والأحبار من اليهود، ولا تذكر أخبار الرقاص الملهوف خادمها المطيع، الذئب الشرس القوي البنية، الحاقد على أهل بلدة الغرافين، فلا أحد تذكَّر ذاك الصبي الذي كان يلعب في براءة على مقربة من خيمة أمه، ينتظر أن تناديه، وتمنحه كسرة رغيف، وهم يقضون منها وطرًا، لا يعرفون هذا الذي ظهر بظهورها، يروض ضربًا المشككين، ويغير على غير المؤمنين ببركة العالية العرافة ليلًا، حتى لُقِّب رجالُه بزوار الليل، لا رادعَ لهم، يحرق البيوت والدور، ويجمع الضرائب الجائرة والإتاوات الغاشمة، اللتين تفرضهما فرضًا ولزومًا لازمًا، لا

يراجع ولا يستأنف على التجار الذين بأسطورتها يبيعون ويشترون، حتى إنها أعانت فرنسا في حملتها لتغطية مصاريف الحرب، وانخرطت في عملية جمع «المليار فرنك» لدعم خزائن فرنسا الفارغة، وزودت القائد «الشراجي» بما يكفي ليحظَى برضا المحتلِّ ومباركته، وكان مصير من يرفض أو يتمرد أن تُحرَق دارُه أو حانوتُه ودكانُه، وتُصادَر أو تُبدَّد أو تُقاطَع تجارتُه، وتُسرَق بهائمُه وتَنفُقَ بلا أسباب ظاهرة، والأموال تتدفق عليها من زرائب وحظائر الاتجار في الأضاحي من الأنعام، إلى دكاكين بيع الشمع والمواد الغذائية والحناء والتين المجفف، ومن الوسطاء والوكلاء وأصحاب العربات ودور الكراء، ولها من كل نشاط تجاري - وإن بدا حقيرًا - نصيب معلوم، وأجل في الأداء لا يؤخر صاحبه ولا يمنح أجلًا.

وما لا يذكره «الرقاص الملهوف» أيضًا في الساحات العمومية بمراكش وفاس ومكناس، وأيام الموسم المشهود أن الحاكم العسكري الفرنسي العقيد «جورج» يوقرها ويبجلها، ويسهر على أمن وسلامة ودوام موسمها، وترسيخ سلطتها وسطوتها، حتى بعد مدة يأخذ حظًّا من الغنيمة، بعد ما عفَّ عنها لزمنٍ؛ إذ ظهر فيها من كثرة الموارد والمال ما يكفي الجميع، ويستعين بحارسها الذئب في عمليات الترويض والترهيب وجمع الأخبار والمعلومات، التي كان يزودها بها أيضًا **«الرقاص الملهوف»**.

جورج يؤمن أن للسلطة مظاهر في الوجود تُربِك العقول، ولا

بد أن تُرهَب العيون قبل العقول، بمظاهر أخَّاذة في الفضاء، تخشع لها القلوب، فشيَّد لها دارًا حصينة، بأسوار عالية، وبوابات منيعة، ذات نقوش وزخرفات وفسيفساء وبهاء، وزينت الحيطان والجدران والأرضيات بالزليج والمرمر، وتدلت كعناقيد العنب من السقف الثريات البلورية والنحاسية البراقة، وتفنن المهرة من النجارين و«النقاشين» في صوغ وصقل الخشب في صنع الأبواب والنوافذ من خشب تليد، وزُينت القاعات الواسعة بالتحف الغالية والأواني الراقية والأثاث النفيس الباذخ، وتعددت الغرف دون حاجة، وأنشئت بنايات محلقة بالدار للوفود، وإصطبلات وزرائب وحظائر تربَّى فيها المواشي والخيول والنوق والجمال، وزودها بمولد كهربائي، يُشغَّل بالبنزين الذي تتزوَّد به حصصًا شهريةً معلومةً من الثكنة، بينما باقي البلدة تغرق في الظلام، وتستعين بالشمع أو الفوانيس العتيقة وقناديل الزيت والكربون في إنارة البيوت والدور. وقيل - دون تأكيد -: إن في الدار الكبيرة سردابًا ومتاهةً مظلمة، وبها زنازين وحجرات ضيقة باردة موحشة، وجُبٌّ سحيق يُخفِي أسرار المختفين من المعارضين أو المشككين.

نسي الناس اسم البلدة، حتى صارت تُعرف ببلدة الشريفة أو «العالية»، ولم يعد يهمهم علاقتها بالقائد الذي يُكِنُّون له كرهًا شديدًا ولا بالحاكم العسكري الفرنسي العقيد جورج الذي أمطر سابقوه البلدةَ بالقنابل والمدفعيات الثقيلة.

١٤

وعاد «سي حمو» الابن الوحيد لسليمان الغاشي «**بوناكا**»، و«بوناكا» تحريف للاسم «بو ناقة»، هكذا نطقها الفرنسيون وكل عجمي عِيًّا، حين ثقلت القاف على لسانهم، فلفظوها كافًا، وبعودة «سي حمو» عالِـمًا فقيهًا خريج القرويين في المصيف، عادت الهواجس والوساوس للمرأة الداهية، وقد نقلت إليها العيون والجواسيس أخبار علاقته بإدريس السوسي وقاسم، فاختلطت عليها الأوراق، وشوَّش حضورُه على الرقاص الملهوف والأبواق، وتوجَّس منه شرًّا كلُّ مستفيد من فيض نِعَم وريع موائد العالية، أو مُتَّجِر بتضليل العقول وتركيع النفوس.

رجع «سي حمو» من «فاس» بعد ما قضى مدةً مُتَتلمِذًا في جامعة القرويين، مُقرفِصًا على الحصير بين يدي علمائها، فارتوى من معين علمهم الصافي، الزاخر والغزير، وكان بحرًا في الفقه والسنة والتفسير وأصول الدين، ولا ينقصه غير المنهج والرؤية والتأصيل، فصقل ورتب شيوخُ القرويين فَهمَه وفكره، وسددوا الغزير، وصوبوا العميم، واستدركوا معه استدراكًا وشرحًا ما وجب الاستدراك والإفهام، وشرعوا له بوابة العلم ما كان فيه ضرورة للإدراك، ومنفعة للعباد، فشذَّبوا وهذَّبوا عقله على فن التصويب بدل الحشو والإطناب المملين في الحديث دون هدف محدد، وفهم للحاجات والضرورات،

والمقام الذي يليق بالمقال، والأثر الذي يلمسه سلوكًا بين الناس، سكينة في القلوب وفضيلة في اللسان، وبعودته أحست «العالية» لأول مرة بالخوف والتوجس والخطر المحدق، من هذا العائد العالم، وفي عينيه بريق الحماس ونور العلم، وشعرت بحدسها أن شرعيَّتها مهدَّدة بشرعية أخرى، بشرعية في الكتب التي قرأها الفقيه «سي حمو»، وفي الصدق والإيمان، وفي الـمَعين الصافي الذي ارتوى منه عقله وصدره في رحاب القرويين، وجاءتها عيونها بفاس بخبره وسره، وقد أرادوا توثيق نزوةٍ عابرة منه في ضعف، أو شهوة مكلفة في سرٍّ، يُبتَز بهما، وما للعالم من رأسمال غير سمعته وخُلُقه، ويُهدَّد بما كُشِف من فاحشة حتى يخنع ويخضع، ويغدو بين القطيع، مزكيًا مباركًا، أو يصمت إلى الأبد، وقالوا لها في أسف: «أقبل على العلم كالرضيع المتلهف لثدي أمه، حتى نال حظًّا كبيرًا منه، فنال رضا وثناء الفقهاء والعلماء والشيوخ، وكبر شأنه وهو يتصدَّى للخطابة من حين لآخر في مساجد فاس، وكان يُثني على السلطان ويدعو له بالعون والسؤدد من الله، والمدد لإنقاذ البلاد من البلاء، ويحذر الخونة من سوء المآل، لم تطأ قدماه خمارات فاس ولا مواخيرها، وشوهد وهو يلعن العرافات والكاهنات، ويقدح قدحًا شديدًا السحرةَ والدجالين، وخطب يومًا في مسجد البطحاء، فقال: «إن طلب النفع من القبور والقبب والموتى ومن الجن والشياطين شرك وإثم كبير وظلم عظيم». ودعا الناس للابتعاد عن ذلك، والتوجه إلى الله بلا وسيط، وأخذ العلم والفتاوى من الصدور

النقية الورعة والعالمة بشرع الله وحدوده لا من الأضرحة والقبور، وإن كلَّ وليٍّ لا يُزار إلا لدعاءٍ له واقتداءٍ».

ولأنها تخاف من العلم ومن العقل، وكانا يقضَّان مضجعها، فقد قررت جعل العقل في خدمة الأسطورة، والعلم مؤيدًا لها، إغراءً وعطاءً، فإن لم يُؤتِ العطاءُ نفعَه وكان العقل محصَّنًا منيعًا بعقيدةٍ مترسخة في القلب متجذرة في الوجدان، تحولت إلى غيره من الأساليب الوسخة، مستعينة ببطش الذئب ورجاله، فإن لم يفلح الأمر، استعانت بقائد المنطقة «الشراجي» الذي يأخذ نصيبه من كل شيء حتى من عطاء الحاكم، وهو نفسه يخشَى التغيير وتبدُّل الأحوال، ويكره العقول التي تفكر، لأنها تهدِّد مصالحه مع العالية والفرنسيين، فإن فشل في ترويض العقل وله أساليب كثيرة آخرها بعد التعذيب والسجن القتلُ غِيلةً، أحالت أمره على «جورج» الذي له ألف طريقة، لإيصال أمثال الفقيه «سي حمو» إلى عمود الإعدام، بتهمة ملفَّقة على القياس، وبشهودٍ يأتي بهم على عادته الذئب أو الرقاص الملهوف، كتهديد مصالح فرنسا وقتل الفرنسيين، أو التآمر ضد السلطان وشرعيته، ولأنها أكثر ما تخشى عقلًا في رأس يفكر ويسأل ويتدبر في الأصول والجذور والحقيقة والوهم، أشار عليها الحاكم العسكري أن تجعل عقل الفقيه لا يفكر إلا وفق ما تشتهي، ولا يبحث في أصلٍ إلا أعاده إلى أسطورتها، إغراءً أو زجرًا.

والحاكم هذه الأيام منشغل بحركة بدأت تسري في عقول بعض

الشباب في مناطق متعددة، يطالبون بالحرية والاستقلال وجلاء الفرنسيين، بعد توقيع زمرة من الوطنيين وثيقةَ المطالبة بالاستقلال، وكان يخشى مما يسميه وباء الحرية، أن ينقله عقل يفكر في غفلة منه، كعقل «سي حمو» الذي درس بفاس، بؤرة وباء العقل والحرية إلى البلدة والنواحي، أما كابوسه الأكبر فكان أن يصل الوباء إلى منجم الفضة، بذروة **جبل الغور**، فتكون الطامة الكبرى، لهذا حرص - والعالية تساعده وتعضده في ذلك - على استقرار العمل هناك بالترغيب أحيانًا أو الترهيب والتنكيل والتعذيب كلما دعت الضرورة، بقطع دابر أي ثورة أو تمرُّد محتملين.

يوم عاد الفقيه «سي حمو» ولد **سليمان الغاشي** «بوناكا» كان يومًا مشهودًا، حتى حقَّ له أن تؤرخ به المنطقة، فكان بدايةَ عهدٍ جديد، من صيف ١٩٤٦ وبواكير أفول عهد قديم، فاستُقبِل العالِمُ عند مدخل البلدة استقبالَ الأبطال العائدين منتصرين من الوغى بالزغاريد والأهازيج والضرب على الدفوف والنقر على الطبول، ورقصت النساء دونما زجر ونهر من الرجال، وإن لم ينزعن الحجاب الذي لا يحجب العيون، واختلطت العذارى والعزاب في رقصٍ صاخبٍ، ولم تشهد البلدة منذ زمن اختلاطًا مثل هذا منذ احتفل الناس برؤيا العالية.

وحُمِل «سي حمو» على الأكتاف جذِلًا منشرح الأسارير طلق الوجه، يسير به الشباب الأقوياء كالموج العاتي في مقدمة الحشود الصاخبة،

طائفين به بجلبةٍ وضجيجٍ وهتاف وصياح، وأدعية وغناء، الأزقَّةَ والدروبَ، تشنِّف الآذانَ زغاريدُ النساء المبتهجات، والصلاة على النبي تصدح بها الحناجر في امتلاء، وهو في انتشاءٍ صافٍ وفرحٍ معتدل بلا إفراط في السرور ولا تفريط في الحبور، في شموخ العالِـمِ لا المتكبِّر بخيلاء، ويرد التهاني العارمة والتحايا الغامرة، بابتسامة جميلة صادقة نابعة كالضوء من القلب، يرسمها على شفتيه بوقار دون ضحكات مُخِلَّة بهيبة العالِـمِ وأدب الفرح الرباني، ملوِّحًا بيده للعامة وهم حوله تغمرهم الفرحة بضوضاء وضجيج وصخب وتصايح، ويبحث بعينين قلقتين عن إدريس السوسي من بين الجموع، إلى أن رآه على ناصية الطريق، فلوح له بيده، وطلب من الحشود أن يفسحوا له الطريق، فخطا «سي حمو» نحوه، وضمَّه بفرح وهمس في أذنه: «حان زمن التحرير.»

وعاد إلى الجموع المنتشية بالحدث الجليل من الصدح بالمزامير والنقر على الأوتار، وهو متفهِّم لعرف أهله وعادات قومه، غير متشدِّد بعلمه على رهطه وعشيرته، منسجم مع الأجواء دون فظَاظة ولا قسوة، برَويَّة وحكمة وعمق بصيرة، يَعِي أن هذه بيئتُه، وأن هؤلاء هم قومه، نشؤوا على أعراف راسخة، وعليها اعتادوا للتعبير عن الحبور والتبريك والتهنئة، مدركًا أن تغيير القلوب يكون بالتربية والعشرة الطويلة للجماعة الصحيحة عقيدتها، وقد علمه شيخه «بلماحي» أن التربية هي مدخل أساسي لتصحيح العقيدة، وحذَّره أشدَّ التحذير من

تكفير الناس وهم مُوَحِّدون ملتئمون وإن رأى فيهم معصيةً وتحريفًا، محذِّرًا إياه وحاضًّا على الابتعاد عن الكلمة الجارحة، والحملة الجامحة، والتقريع في الدين حتى لا يكره الناسُ النصيحةَ التي تغدو على الملأِ فضيحةً، ونصحه بعدم الانشغال بالتفاصيل بالتكالب على كشف العيوب جهارًا إن لم يستأنس الناس منه قولًا جميلًا، وألَّا يكون في منهجه راكبًا عاصفة الدعوة المتطرفة التي تُقسِّم الأمة الواحدة، أمةَ ضلالةٍ وأمةً ناجيةً، فتتفرَّق الكلمة، وتتعدَّد الـمِلَل والنِّحَل في العقيدة الواحدة.

انخرط في مسرَّات قومه على عاداتهم، تحضره وترشده نصائح أستاذه الشيخ الجليل «بلماحي»، مربِّتًا بيده على صدره بأدب المتواضع لا المتخاذل.

وانخرط الصغير والكبير والشيخ والصبي والنساء والفتيات في غمرة الأفراح، فساد الحبور الطافح، حتى شاعت إشاعة بعد ذلك، أن «**سليمان الغاشي**» «**بوناكا**» سقَى الضيوف نبيذًا، وأن الشباب شربوا ليلتها حتى زاغت أبصارهم، وترنحوا على الطرقات وتحرَّشوا بالفتيات، وبما أن «العالية» باركت الأفراح والأعراس، قالت: «لا حرج في أن يسكر أبناؤنا، دعوهم يمرحوا.»

الكل في سعادة طافحة وحبور جارف، فأخيرًا غدا للبلدة، عالِـمٌ مُجازٌ من القرويين، كانت في أمسِّ الحاجة للصفة الغالية، من الحاضرة

البهية، وللشرف العلمي النفيس، ليكتمل الموسم في بلدة الأسرار والأسطورة. ولم يفرح «سي حمو» كل الفرح، فهو يعلم أن الجبهة التي سيفتحها هنا صعبةٌ ومحفوفةٌ بالمخاطر، وسيكون على مرمى مدافع العالية والقائد والحاكم العسكري الفرنسي والتجار والوجهاء، وهو يهتزُّ على الأكتاف، استرجع وصيَّةَ أستاذه الشيخ «بلماحي»، فتردَّد صداها قويَّ الرجْعِ في نفسه: «يا ولدي...! لقد أجزناك، وهذه شهادتك، لم نختلِفْ حول نباهتِكَ وفطنتك وعلمك، لكن ما فائدة العلم إن ظلَّ حبيس الصدور، وما فائدة الفقه إن لم يكن في خدمة العباد والبلاد، أنت من بلدة الغرافين، وهي قرية التِّيهِ والانحراف، لم يُبنَ بها مسجد منذ زمن، ولا يُرفع فيها أذان، وآخر مساجدها هَدْم وخَرابٌ، فإن كان علمك لن يُطهِّر القلوبَ والعقول، فقد أجزنا الحجرَ لا البشر، وإن كنتَ ستؤدِّي الأمانةَ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا تتسرَّع ولك في سيرة خاتم الأنبياء المثل والقدوة، ولا تركبنَّك حماسة العلم، فتعَمَى عيناك عن جبروت الباطل، ابدأ بالأقربين، لا تقْسُ على جاهلٍ، ولا تكن فظًّا مع قومك وإن جهِلُوا عليك، ولا تستصغر خصمًا مهما بدا لك صغيرَ الشأنِ، خذ الحرص من القريب قبل البعيد، فالباطلُ دائمًا يخسر، لكن أهم حلفاء الحق هم الصبر والحكمة والنفَس الطويل لا الطيش والنَّزَق، ولا تُعطِ الفرصةَ لخصوم الحق، فيصيروا حِلفًا تجمعهم المصالح والعداوة ضدَّك. واعلم أنك إن قُتِلت، ما نفع أهلَكَ أو العبادَ موتُكَ، وإن سُجِنتَ في الغياهب،

احتبس بحبسِكَ العلمُ والدعوة الصادقة بين الجدران، فَتَفَادَ أن تُقتَل أو تُسجَن، إن الله لا يحب مَن يرمي نفسَه إلى التهلكة ويقول: هذا من عند ربي، واعلم أن الحرية والحياة أنفسهما من عند الله، فاحرص عليهما، لتُفِيدَ وتنفعَ قومك ووطنك، وعَضَّ عليهما بالنواجذ، عدا أن يكون لله قدَرٌ في أجَلٍ، أو مشيئةٌ في شأن من شؤونه، ونسأله اللطف في القضاء».

وفضل «سليمان الغاشي» على «سي حمو» ابنه لا يُنسَى ولا يُبخَس، فهو مَن أرسله ضدًّا على إرادة «العالية» إلى فاس حاضرة العلم لإتمام دراسته، وكان الأب على جهالةٍ بيِّنة، وتعلقه بـ «العالية» كان كتعلق المريد بالشيخ، لمنفعةٍ كبرى له في دجلها، من تجارة رائجة له بفضل أسطورتها، فكان على أهوائها، ويميل مصدِّقًا لريح خرافتها، وهو صاحب زرائب الماعز والتيوس، وحظائر البقر والضأن والنوق، وخيوله من أعرق وأجود الخيول، ولم يكن قبل ذلك إلا تاجرَ الصوفِ، يجمعه بعد جَزِّه ويعيد بيعَه في الأسواق، لكنه كان ذكيًّا، حذقًا في التجارة، ولا يعيبه شيء سوى أنه كثير الريال، يسيل لعابه، فيملأ شدقيه وفمه، ويتناثر على وجوه الناس إن تحدَّث.

فطِنَ «سليمان الغاشي» قبل غيره إلى الحياة المتبدِّلة المتغيِّرة لها المصاير والأقوات والأحوال، ولم يكن غير رجل يُعيَّر ويُشتَم برياله ولعابه، وهو من الأخلاط في حضيض البطون من أحفاد «الغرافين»، بلا نفوذ ولا جاه، ولم يكن درَّبه قومه، لا في العير ولا في النفير، لكنه

خَبرِ الأحوال التي بدأت تتغير في بلدة الغرافين، بانتشار خبر مغارة «سيدي الفراش»، وعين «أمونة السودانية»، و«كرامات» «العالية»، فساير التحول، وسكت عما يعرف ويعلَم، ولم يكن حجر عثرة، ولا معيقًا للطفرة، بل بارك وأثنى، ومدح وزكَّى، وزاد كما زاد كل المنتفعين، وساهم وروَّج للمعجزات المزيَّفة، جهلًا ومنفعةً، ودرس حاجات الزوار والضرورات الجديدة، فاختار التجارة في أغلاها وأنفسِها وأحوجها، والتي لا تبور بأزمةٍ ولا تكسد بغمة.

كان الزوار في حاجة إلى الذبائح والأضاحي، فكان في البداية يكتفي ببيع الدجاج والديوك وخصوصًا السود الريش، ثم توسع نشاطه، فأنشأ زرائب الماعز والتيوس، وحظائر البقر والبعير، وعشق تربية الخيول، فكان يجدُّ ويجتهد في انتقاء الأصيلة منها، الصافية الأصول، وكانت تدرُّ عليه الأموال الطائلة، والثناء الذي يُسكِره، وبه ينتشي معتدًّا بكبرياء وخيلاء، واكتفى بفرس جميلة، لا يبيعها ولو بكنوز الدنيا، كان يهواها هوى العاشق الولهان للحبيبة في هيام، ويرعاها رعايةً بدون تقتير ولا تأخير، أكثرَ من أهله، فسمَّاها «البركة» وأهداها لـ «سي حمو» هدية حصوله على إجازة العلماء في العلوم الشرعية.

يشتري منه «النصارى» ويتاجرون معه، فألفوا مناداته بـ «بوناكا» حتى تناسى الناس اسمه الحقيقي، ولم يعد له من لقب غيره، أرسل ابنه «سي حمو» إلى قرية «آيت الغوث» ليحفظ القرآن في زاويتها، وكان «سي حمو» نبيهًا، ذكيًّا، ونبغ حتى غدا لامعًا، لم يخيِّبِ الأملَ المعقودَ عليه ولا

الرجاء فيه، فحفظ القرآن الكريم والمتون والألفيات، حِفْظ العالِـمِ المدرِك، بأصول وفنون شتى، فنبغ في الفقه وعلم الكلام والقراءات، فأشار عليه شيخه الأول الفقيه «سي العسري» بـ «آيت الغوث» أن يلتحق بالقرويين بفاس حاضرة العلم والعلماء، ليُجاز من لدن عالِـمٍ وأستاذِ كرسيٍّ هناك في المدينة الغراء.

١٥

عاد «سي حمو» إلى البلدة المتعطشة إلى سُقْيا من نبع عِلم فالِق، وإلى بصيص نور وبريق أمل من عقلٍ رائقٍ، وقد غدا الفقيهَ المبجَّل والعالِـمَ المقدَّر، وفي حقائبه شهادة إجازة عَالِمٍ تمنحه الحق في الفتوى إن كان لا بد منها، وفي الدعوة وهي فرض عين عليه، والتدريس والتعليم كلما أمكنا وأتيحا، وإخراج الأمة من الجهل الزمين، والظلم الغشيم، بالقدوة الحسنة، والعشرة الطيبة، قبل الكلمة المزلزِلَة، وفي حقائبه أيضًا كتب وأسفار ومراجع ومصادر ومخطوطات، يرجع إليها كلما طال على علمه الأمد، فآفة العلم النسيان.

لدنياه دون إفراط ولا تفريط، ولا كبر في كبرياء ولا تبختر واختيال ولا زهو وخيلاء، اقتنى «الجلابيب» المتنوِّعة الأشكال والألوان، الزاهية ذوات التزاويق الفنية الجميلة، بأصابع صناع مهرة، فنانين مبدعين بالفطرة والخبرة، من مدينتي «**فاس**» و«**وزان**»، يرتديها حسب الأحوال والأجواء، منها المسماة «السلطانية» الفضفاضة الواسعة، المريحة عند الإبطين المنحسرة عند مقدمة الساقين، التي يميل لونها إلى الزمردي الشديد الخضرة، أو الأرجواني الشديد الحمرة القاني، من أثواب ناعمة أو خِرَق ليِّنة أسيلة، ومنها الجلباب «البزيوي»

الدافئ الطويل الثقيل الخِرقة، الشهير الصنعة والحياكة والطراز، وجلباب «الحبة» النفيس الذي تظهر على خِرقته عُقَد خيوط صغيرة ناتئة، صوفية تميزه عن جلابيب المناطق الأخرى، وتُسمى «بالحبات»، وبدلتان عصريتان وبُرْنُسان، واحد بني ترابي، وآخر أزرق غامق ينفعان لصدِّ الصرِّ، ولمجالس الليل والسمر.

أَوْلَمَ أبوه «سليمان الغاشي» وليمةً باذخةً للتجار والوجهاء، ولم يستثن البسطاء والفقراء وعابري السبيل والمنبوذين، وذبح الذبائح من كل صنف بوفرة، وملأ الموائد بأشهى الطعام وألذِّ الفواكه وأعذب الشراب، وعلى موائد متفرقة وُضِعت صحون اللوز والتمر والجوز، وصحون السمن وعسل الجبل القُحّ، والزبدة، وزيت الزيتون، وزيت شجرة «أركان»، والفطائر المحلاة بالعسل، ورُغُف الخبز القمحي الشهي، وخبز السميد الأبيض، وغنَّتِ الفِرَق الشعبية المتنوعة في خيمة مفتوحة، وفي أخرى معزولة صدحت الأصوات الندية بالأمداح النبوية والأشعار الدينية يرددها زملاء الفقيه، وهم متفهمون ما يجري في خيمة الطرب والغناء، غير كارهين ولا منفرين ولا محرمين ولا معكرين أجواء فرح هي من هوية هذه البلدة.

شرف الأب السعيد المنتشي بعودة الابن غانمًا، وقد غدا عالمًا، بزيارةٍ خاطفة للقائد «الشراجي» والحاكم العسكري العقيد «جورج» ولم ينفضَّ الجمع إلا عند بزوغ خيوط الفجر الأولى، فتبدد الناس وانتشروا، وعادوا

لدورهم وبيوتهم، وهدأت أجواء الأفراح وصخب المسرات، وعيون «الذئب» ترقب كل حركة، وتسجل كل همسة، وترصد كل نجوة.

دعا سليمان الغاشي ولده ليَمثُل بين يديه في الليلة الثانية بعد ما استراح... وقف «سي حمو» صامتًا مطرق الجبين، إجلالًا للوالد وهو عنده في عقيدته ظنين، وفي خلده يحسبه يرتع في جهل مبين، وعناده في جهالة مكين، وقد قبض يديه إلى سُرَّته، والأب الوَجُوم بلا سبب، المنقبِض الأسارير، جالس على سريرٍ عالٍ كالعرش المكين، نظر إليه وبصوت جهور بعبوس قال وغلب رياله وتناثر رذاذًا كالعادة:

- عدتَ الآن، وصرتَ فقيهًا عالـمًا من العلماء، لستَ في حاجة إلى عمل غير مباشرة أشغال وتجارة أبيك، ومساعدتي في تدبير شؤون حِرفتي، وتشريفي بوجودك في مجلس الوجهاء في دار «العالية»، كلما دعت الضرورة.

بحياءٍ جُبِل عليه الشاب، وصَقَله علمه وعقيدته، يقول بصوت خفيض ينضح بالحنو واللطف:

- أبي...! سامحني إن تجرَّأت، فأنت الوالد ولا يُغضِب اللهَ أشدَّ الغضب بعد الشركِ إلا عقوقُ الوالدين، إلا أنني عالم فقيه، وعلمي الذي زوَّدني الله به لا بدَّ أن ينفع الناس والعباد، وقد علمتَ أنه لا تجربة لي لا في تدبير الزرائب ولا الحظائر، ولا أفهم في بيع ولا شراء الأنعام والأغنام، وأنا شمعة - إن شاء الله - أريدها أن تضيء الطريق للناس إلى السبيل السوي.

- الناس ليسوا في حاجة إلى العلم بل إلى الرغيف والأمان.

- العلم نور يجلي الحرام ويفضح الحلال، يحرر العقول من الأغلال، ويُحصِّن النفوسَ من الخطايا والآثام.

- علمك...! هه...! أردتُه فقط لأفخرَ به، لا ليصير وبالًا علينا.

- أبتِ...! البلدة غارقة في الجهل!!

- وهل أنت وصيٌّ على الناس؟! فوِّض أمرَهم إلى خالقهم!

- يا أبتاه...! وما وظيفة العلم إن جَبُن العالم، أو تواطأ مع الحاكم؟!

- ظلم حاكم مع استقرار الأحوال، وفُشُوِّ الأمان خيرٌ من عدلٍ مع فوضى واضطراب، لا تُؤَمَّن فيهما الأملاك والأموال ولا النفوس، وحسبك النصيحة لا التمرد والخروج عن الجماعة... وأنت أعلم مني بهذا يا فقيه...!

- لستُ أدعو للخروج على الحاكم، وقد خلطتَ الحاكم والبطانة، والحكم بالاحتلال، وما أكثر من يُحسبون على السلطان في الأرجاء وهم فاسدون في الخفاء، فليس التصدي لـ «العالية» والمحتل خروجًا عن السلطان، إنما هو عون له في مواجهة الفساد والظلم.

- ألهذا أرسلتُكَ إلى فاس؟! اسمع... لا أريدك أن تتفوَّه بهذا الكلام بين الناس، قد تقتلك «العالية» وتُنكِّل بك، ويطالنا بسبب ما

تقول شرٌّ مستطير، وهي تُنعِم علينا وتطول على البلدة طَوْلًا غير منقطع، أتريد خرابنا؟!

- أتخاف عليَّ من العالية أم تخاف من بوار تجارتك؟!

- ماذا تقول؟! لا تنسَ أنني أبوك، وأبوك لا يخاف، بل يحسبها بالعقل والرويَّة، أبوك يتَّجر في الحلال، يبيع ويشتري، لا يدلس ولا يغش، والربح حلال والربا حرام.

- أبي...! ما أُهِلَّ به لغير الله شركٌ وحرامٌ، وأنت تبيع الذبائح التي تُذبح بلا نية صادقة لله، فتقرُّ بذلك عينَ إبليس، ويزداد غرورًا وعتوًّا، وهو مَن زيَّن لكم أمر تجارتكم، وأغواكم بالدنيا والمال والمتع، وما هي إلا متاع الغرور، فأنساكم الرَّجِيمُ ربَّكُم، وأعانَكم بالأموال حتى يُضِلَّكم.

- عن أي شيطان هذا تتكلم...؟! الناس تسمي الله عند الذبح، وتُطعِم الفقراء صدقات وتتضرَّع إلى الله.

- ولمن تذبحون؟! لسيدي الفراش؟! أسألْتَ نفسَكَ يومًا مَن هو؟!

- سيدي الفراش هو سيدي محمد الحاكي السوسي هو شهيد وولي من أولياء الله الصالحين، له كرامات وبركات.

- أليس الله هو المعطي؟! ألا ينتهي عمل المرء بموته إلا من ثلاث:

ولد صالح يدعو له، وعلم يُنتفع به أو صدقة جارية، فكيف للأموات أن يخدموا الأحياء وهم في شأن عظيم؟! وأي ماء هذا لعين أمونة فيه ما ليس في ماء زمزم من بركة وخير؟!

- إياك...! وإياك...! أن تنطق بهذا الكلام، إياك!... ستبور تجارة البلدة وننتهي في النسيان، ويصير لكَ من الخصوم ما لا يُعدُّ ولا يُحصَى، فكلامك خرابٌ للبيوت، ومسٌّ بالأقوات، وشرٌّ على الأسواق.

- أتصدِّق أن «**العالية**» تتلقى الخبر غيبًا من رجل لم يَدَّعِ يومًا معرفةَ الغيب حيًّا؟!

- وهل تظنني جاهلًا لا أعلم، أو غبيًّا كالبقية لا أفهم...؟! أعرف ذلك، لكن، لو علم الناس الحقيقة، لكسدت أسواقنا، نحن لا نفتري على أحد، هم يائسون في أمسِّ حاجةٍ إلى الرجاء وعندنا الشفاء بالآمال، أما كرامات «العالية»... فلا تشكك فيها.

- الموتى هم مَن في حاجة إلى الأحياء لا العكس.

- كلامك غامض لا أفهمه، كأنك تريد قولَ شيء آخر تكتمه، يا عالِـم...! يا فقيه...! مغارة سيدي الفراش ما زالت تحكم بين الناس وتقضي فيما يطلبون، وتحقق المراد بالزيارة وصدق النية.

- سيدي الفراش وهْمٌ... ولالة أمونة وهْمٌ... صدقني يا أبي...!

يتزحزح سليمان الغاشي من مكانه وقد انتفخت أوداجه، ويداري ارتباكًا انتابه على غِرَّة، بنحنحة تردَّدت في صدره، ويظهر عليه الاضطراب حتى تدور عيناه في ذهول ويقول وهو يتلعثم:

- ماذا تقصد...؟! هل تخفي شيئًا...؟!

فكر الفقيه أن يكشف لأبيه أسرار أمونة السودانية، لكنه تراجع وكبح بَوْحَه، وقد تعاهد وإدريس السوسي على أن يدبِّرَا الأمر معًا.

- لا أخفي شيئًا، فقط أسألك... ألم تفكر يومًا في الأمر، وقد غبتَ أكثر من سنة بعد ليلة القصف، وعدتَ ووجدتَ ما عليه الناس، فآمنتَ وصدقتَ...؟!

يرتبك الأب من جديد، ويتحدث متمتمًا:

- أفكر في ماذا...؟! غِبْتُ...! نعم غبت هربًا من «الفرنسيس»، حتى هدأت الأمور، ولم أكن وحدي بل كان معي «الراضي غربان» «ماروكان»، وتوارينا معًا عن الأنظار مدةً كافية حتى نسيَنَا «الفرنسيس»، ولو قبضوا علينا حينذاك لأُعدِمنا توًّا رميًا بالرصاص.

ضاق صدر الأب بالحديث الجريء لولده، فانزعج حتى عصفت بداخله ريح الغضب تكاد تُخرِجه عن أطواره، وتعالت الأمواج في هدير متضاربة في لُجَّة الحنق والغيظ، وإن كظمهما جهدًا وإجهادًا،

وشد عنان عاصفته الهوجاء، فقد فضحته ملامح وجهه التي قبحت، ورعشة شفتيه، وحركات رتيبة لساقيه. استاء إذًا وضاق ذرعًا بكلام الفقيه الذي بدا له أنه تجاسَرَ وتمادَى وتطاول، وخشي أن يصل خبره عبر عيون وآذان العالية إلى الدار الكبيرة، وأخيرًا جمحت وجفلت فرس غيظه، فانتفض في توتر جارف انتفخت منه أوداجه، وقد تبدَّد حِلمه وتلاشى حُلمه في أن يصير الابن عالـمًا يُعزِّز به الحظوة عند «العالية»، فتُنعِم عليه بسخاء وتزيد، وتغدق عليه عطاءً لا يزول، جحظت عيناه وهو يزمجر باضطراب ويصيح ورذاذ لعابه يتناثر:

- اغرب عن وجهي...! لا أريد أن أراك.

- قبل أن أخرج يا والدي...! كنت...

- ماذا...؟ انطق...!

- الحاكم الفرنسي، كنت أتمنى ألا يحضر الليلة.

- ما لك وللنصارى؟

- لا تنس يا أبتِ...! أنه يمثل فرنسا التي اغتصبت البر والبحر والصخر والشجر، واستعبدت الناس، وسلبت الأرض غصبًا وكرهًا، وهل نسيت كيف دخلوا البلدة بعد نسفِها قصفًا شديدًا، فدمروا البيوت والدور، وقتلوا الصغار والشيوخ، والنساء والعجزة دون رحمة ولا شفقة، حتى أثخنوا وأعدموا الكثيرين؟!

- ذاك زمن مضى، جاء الرجل إلينا بأدب وشرف، مهنئًا مبارِكًا أنَرُدُّه...؟! أهذا من أعرافنا وعاداتنا...؟! والله...! أرسلناك لتزداد عقلًا فعدْتَ أخرقَ، بلا عقل... يا خيبتنا...!

- الرجل الأجنبي يستعبدنا، اغتصب أرضنا غصبَ القاهرِ، واستعبد الناس استعبادَ الغاشمِ الجائر، وسخَّر سواعدَ الرجال والشباب في ذل وقهر، لجلب المنافع لبلده، وتجويع الناس وقمع إرادتهم، وهضم الحقوق، وهو عاقٌّ أشد العقوق، جاء بذريعة الحماية، فصار أصل البلية والمصيبة والخيانة، طرد الفلاحين طردَ الأنباذِ من أخصب الأراضي وأفقرهم، وجعلهم «خماسين» و«رباعين» أو عمَّالًا زراعيين، وهم أصحاب الأرض، ومنها خرجوا، وفيها جذورهم والعروق، فصرنا خدمًا في البلاد ونحن أهل البلد.

ينتفض سليمان الغاشي، يهرول نحو الباب، يتحقق من إغلاقه جيدًا، ويعرج على النوافذ ويغلقها بإحكام، وهو مضطربٌ يكاد يكبو، ثم يغادر خارجًا مستطلعًا هل مِن مُسترِقٍ للسمع، أو مُتلصِّص بالعين، ثم يعود في ذعر وقلق ويقول:

- يا أحمق...! كلامك هذا عقابه الإعدام... اصمت...! وتذكَّر أن لفرنسا أفضالًا على البلد، فقد كنَّا قومًا في «سيبة» وفوضَى، يُغِير القويُّ فينا على الضعيف، وامتلأت الطرقات بقُطاع الطرق

واللصوص والمجرمين، وفشا الخراب والتمرد والخوف، حتى جاءت فرنسا حاميةً، فأعادت الأمن والاستقرار، وشقَّت الطرق ومدَّت السكة الحديدية، وحفرت السواقي والآبار، ووطَّأَت الطرق والمسالك، فقَلَّ الخوفُ وتبدَّدت الأخطار، كدنا نموت جوعًا عام «البون»، حين فشا الجوع والمرض، ونفقت البهائم والأنعام، ومات الناس جوعًا وعِللًا، حتى هرب الآباء من الأبناء، وصار الطعام من حشائش مُرَّة، وجراد يُشوى أو يقلى، فوزعت علينا فرنسا، الزيت والسكر والدقيق، ومنعتنا من ترك أراضينا، ولو لم نُمنَع لصرنا خارج قريتنا أغرابًا، وسمحت لنا بذبح ما نشاء من البهائم، وقد كان الناس في عام الجوع، والحرب على مشارف نهايتها، كان الناس يأكلون القطط والكلاب ولا يجدون في ذلك حرجًا...

- يا أبتِ...! لم توزع فرنسا عليكم الطعام مجانًا ولا حبًّا لسواد عيونكم، ولم تكن راعيةً لكم في الضراء عام ١٩٤٥، بمنحكم «إيصالات» و«قسائم» بالمقابل للشراء والتبضع على قِلَّة السلع، ضمن حصص محددة، أتذكر...؟ كان الرجل لا يجد ما يُطعِم به أبناءه وهم يتضوَّرون جوعًا أمامه، فلا يصبر لهول المشهد، ولا يطيق الأنين والبكاء، فيختفي على الأنظار، والمصيبة أنهم جعلوا أمر تلك «الوصولات» اللعينة بأيدي القُوَّاد والشيوخ، وأمثال

العالية، يبتزون بها الناس ويغتنون، ويستميلون ويجورون عقابًا أو جشعًا، ربما «بلدة الغرافين» يا أبي...! لم تعش عامَ الجوع بالحدة نفسها التي عاشت على ضيقها وقسوتها باقي القرى و«المداشر»، رغم أنها ساهمت في دفع حصتها من «المليار فرنك» لفرنسا، عبر القائد الشراجي، والعالية كانت تدخر وتكنز، لمثل هذه الأعوام من أموال وأقوات الناس، وخيرات البلاد، فازداد نفوذها بالعطاء زمن الرمضاء، وتقوَّت سطوتُها بحاجة الناس إليها السنةَ القحطاء.

- اصمت...! اخرج...! هل أرسلتُكَ لتتعلَّم علم الخراب وتغدو أفعى رقطاء في بيتي...؟! سأُقرِّط عليك في النفقة حتى تعود إلى رُشدِك.

ينسحب «سي حمو» حزينًا منكسرَ الفؤادِ، وقد خسر أول معركة له ضد الباطل، بأسًى وحسرة يخطو وئيدًا خارجًا من مجلس أبيه.

يعرج «سليمان الغاشي» على غرفة راضية زوجته الثانية الشابة، وعلى سريرها الدافئ لم يجد المتنفَّس للغمِّ، فغرق في تأمُّل أصم، وقلق عميق، عرَّته الزفرات وتعابير الجبين المقطب، والعينان الشاردتان في ذهول، وهو مستلقٍ على الفراش، وقد كحلت ومشطت وتعطرت الفتاة الحسناء الهيفاء، ففطنت لشروده وغمِّه فقالت في دلال وهي تمشط أمام المرآة:

- ما لك؟ يبدو أنك حزين!!

- اصمتي راضية، الله يخليك...! لا تزيدي همي، فيَّ ما يكفيني، «سأنفجر».

- كلمني...! أرجوك...! «عافاك»...

تصير قربه على السرير، تلحُّ عليه في دلال وغنج وتهتك، وهي تدلك ظهره، ورقبته، فيشعر بكسل وخدر يسريان في مفاصله، أشعراه بدبيب نشوةٍ دافئة، فيقول وهو يتثاءب:

- «سي حمو»... يا راضية...!

- «سي حمو»؟!، ما به...؟! أرسلتَه طالبَ علمٍ فعاد عالـمًا تشرُف به وترفع رأسك باسمه عاليًا، وشرَّفَك الليلةَ أعظمَ شرف حتى احتفلَتْ به البلدة كلها، وزارك النصراني والقائد.

- «سي حمو» يريد الخراب لنا.

- كيف؟!

- يقول إننا نعيش في الحرام ومن الحرام، والمصيبة أنني كدتُ أصدقه، فهو يقول كلامًا ينفذ إلى القلب بطلاوة، ويفتح العيون على أشياء جديدة... للأسف... لكنَّ في صدقه خرابًا وكسادًا، والكذب أنفع للناس في معاشهم وكسبهم وتدبير أمور دنياهم، وما يُخيفني إلا ما يقوله عن «الفرنسيس» والمزارات و«العالية»،

ولو علم ما أعلم لأشعل النار في البلدة.

- وهل تعلم ما لا يعلم الناس؟!

مضطربًا، يشيح عنها بنظره ويقول متلعثمًا:

- لا...! لا...! مثلي مثل الكل أعرف ما يعرفون...

- وهل يقول سوءًا في الشريفة...؟! آه...! لو فعلها لجُنَّ حقًّا.

- هو يشكُّ في «الكرامات»، ويعدُّ الذبحَ لسيدي الفراش شِركًا، وفي كلامه بالعقل منطق وصواب، لكنه لا يملأ بطنًا، ولا يفتح بيتًا، ولا يبيع شمعةً ولا نعجةً!

- هل جُنَّ ابنُك...؟!

- ربما جُنَّ!!

- أو سُحِر... ربما عين حاسد، أو فعل ناقم، خذه عند «العالية»، أو أرغمه أن يغتسل من ماء عين أمونة السودانية، ليذهب عنه أثر العين والحسد.

- أجننتِ...؟! لو علمت «العالية» بما يقول «لبات ولم يصبح».

يمد أصابعَه وهو يرتعش إلى القنديل، ثم يُطفِئه بنفخة قوية خلطها بزفير حاد وهو يقول:

- غدًا مُدبِّرها حكيم... تعالي...!

لا تسود بعد ذلك في الأجواء الموحشة الباردة، غير ضحكات عالية متهتكة، ماجنة، متقطعة لامرأة جامحة، منتشية بدغدغات عابثة مداعبة، وسط عاصفة شهوة جارفة، ولا يُسمع غير نهيج في أنفاس لاهثة لصدر متعب، وصدًى تغير لضحك مقموع، في تهالُك ودلال لسان «راضية»، تفتح الأحراج الخفية، تختلط تأوهات طافحة، وآهات فاضحة، وأنات جامحة، فهدوء وارتخاء، ثم سكون وصمت، لا يشقهما غير هرير كلاب، ومواء هررة وراء الأبواب تتضوَّر جوعًا، وصرير الأبواب والنوافذ المرتخية الدفاف، وفصيص الجنادب، وزفزفة الرياح الساهكة.. ومالت جذوة الرجل للوهن، فقمع فتيل القنديل بعد أن صب الماء على جسده وهو يلاعب راضية، يرشها ماء صارخًا: «اغتسلي يا كسول لصلاة الفجر...» وبعد حين علا الشخير، وانشغلت الفتاة بتجفيف شعرها ومشطها. وهي تدندن أغنية أندلسية.

وفي اليوم السابع من عودة «سي حمو» أرسلت العالية في طلبه ملحَّة غير مُرجِئة، فحلَّ بالدار مساءً، محاطًا بالذئب الذي غدا في غطرسةٍ يتشبَّه بالعسكر الفرنسي، مرتديًا جلبابًا وسروالًا عسكريًّا، محتذيًا جزمتين عسكريتين ثقيلتين، معتمرًا عصابةً بيضاء، وعلى كتفه بندقية. وكان رجاله الثلاثة على شاكلته إلا أنهم كانوا بلا عمائم، حليقي الرؤوس.

فُتِحت رُتُج البوابة العظيمة المنيعة، للدار الكبيرة الغامضة الحصينة،

في صرير مرير، وهدير كدير، بجهد عسير، من ثقل الأرتاج، فشقت الأصوات المضِجَّة رهبةَ الصمت المخيم على الأرجاء والغموض المكتنف الأجواء، ثم سُحِب العمود الثقيل بسواعد قوية لعسس بوجوم غريب وهو خشبة صلبة، كالرتاج تُغلِّق البوابة تغليقًا فتجعلها وعرة الاقتحام، وكان عليها حُرَّاس أشداء سود البشرة، قساة النظرة، عوت الكلاب بشدة، لم ير «سي حمو» كما توقع ضوء مصابيح المولد الكهربائي، أين مصابيح الفرنسيين؟

ظلام الدار العالية الممتدة الأطراف، لا تبدده المصابيح التي زوَّدها بها الحاكم الفرنسي، بل تعمَّدت العالية زيادةً في الرهبة والغموض، إشعالَ المشاعل على طول الممر الموحش المؤدي من البوابة وراء السور العالي. ينصرف الذئب بوجوم، وعيناه تدوران وتكنسان المكان كالبوم، بعد ما تكفَّل حاجب آخر زنجي قوي البنية بإيصاله إلى قاعة الاستقبال، فوقف باضطراب لا خوفًا بل توجُّسًا، ينتظر، وقد تعمَّدتِ التلكُّؤَ والإبطاء، استصغارًا لشأنه وكسرًا لكبريائه، ثم خرجت ونظرت إليه في استعلاء وخيلاء، نظرة نسر كاسر متربص، وأشارت فقط إليه بسبَّابتها دون أن تنبس بكلمة واحدة احتقارًا وازدراءً، أن يجلس على فرش على الأرض، بعيدًا عن فرشتها العالية، وقالت في استعلاء وهي تحدِّق فيه من علٍ، ثم تسرح ببصرها في المدى، غير آبهة بالعَالِم الفقيه الذي أتى ومعه عِلم لا يفنَى، ونور إن وزعه على القلوب

كفَى، وإن نشره بحريَّة فشَا الأمانُ والسكينة، وقالت كأنها تضنُّ عليه بالقول وتمنُّ عليه بالدعوة:

- مبارك، صار لنا عالـم بالبلدة.

- الله يخليكِ العالية.

انتفضت واقفةً بغضب، وزمجرت وهي تهتزُّ كقصبة في مهب الريح:

- خاطبني بما يليق بشرفي، الشريفة «العالية»...

تذكَّرَ وصيَّة شيخه الجليل العالِـم الفقيه بلماحي، فكتم غيظه الجارف، وقمع علمه العارف، ولجم فورة الحق، بجوابٍ عندها لا يُعاب، مؤجِّلًا مواجهة تجبر الباطل، فابتسم في وجهها وقال مداريًا أفكاره في تَقيَّة:

- نعم...! الشريفة...! «العالية»... «على عيني وراسي»... من قال غير ذلك فهو إما أحمق، أو حاقد ناقم.

انتشَتْ بكلامه انتشاءً قويًّا، فسرى خَدَرًا دافئًا منعِشًا في عروقها، فعَلَتْ ضحكتُها ضاجَّة حتى ملأت الغرفة الواسعة التي اعتادت فيها استقبالَ الضيوف والوجهاء، وكانت فسيحةً رحبةً، ذاتَ سقف من جبس منقوش ومزخرف في بهاء، وأرضية من رخام ومرمر، وجدران من زليج فاسي ومراكشي، بهي الألوان والأشكال، وكانت النوافذ والشرفات من خشب ناعم الملمس صقيل، وزجاج بلوري تليد الصنعة والحرفة.

رفعَتْ عن وجهها النقاب المخملي، وقالت في غطرسةٍ وتعالٍ وبنبرة قوية:

- تعلم أننا نعيش في رغدٍ ودَعَةِ عيش، وأبوك منَّا، والفضل يعود لي ولما مَنَّ الله علينا من أسرار سيدي الفراش، وبركات ماء عين أمونة السودانية، وأنت منَّا عالِـم لكن يعرف شعائرنا، ويُزكِّي طقوسنا، لا عالِـم من الأغراب يُشكِّك في بركتنا وفضلنا الذي وهبه الله لي، تعلم أنني أفدتُ من نور الولي، وأنعمتُ على بلدتنا التي كانت في طي النسيان، فصارت مزارًا للناس، وبزياراتهم عمَّ الخير، وساد أمن القلوب والعقول من مجاعةٍ، وفشا سِرِّي المبارك فأمِنَ العباد على الأملاك والنفوس.

متبرِّمًا يردُّ وقد تردَّد مدة:

- أعرف... «العالية».

- هل أنت معي أم ضدي؟ في صفي أو في صف خصومي؟

يُفكِّر مليًّا، ويجول في خاطره أن يكشف كيدَها وكذبها، لكنه يؤجل المواجهة إلى حين تنضج الظروف، ويقول وهو يجول ببصره بعيدًا خوفًا أن تكشف من نظراته تردُّدَه، وحقده الخفي:

- «حاشا» الشريفة... أن أكون في حلف غير حلفك.

- قبِّل يدي إذًا!

كاد ينتفض غضبًا، فقد جاش صدره حنقًا، ففطن إلى الخطر المحدق، من طيش أو نزق، فهدأت نفسه باستحضار وصيَّة شيخه فاقترب وئيدًا، غير مستعجل، فمدَّت يدها الممجوجة، فقبَّلها وهو كاره لا يُبدي، وقال ما تنتظره منه وتتوق لسماعه في تدليس:

- أنتِ سيدتنا... وتاجٌ على رؤوسنا بلا منازع.

فنهضَتْ تمشي بخيلاء، تجرُّ ذيول أثوابها بكبرياء، وهو جاثٍ على ركبتيه، ثم وضعت يدها على رأسه وقالت في سجع الكهان، وتنميق وتلبيس في البيان، قوة في الإلقاء في الأسماع، مما يدرك «سي حمو» ولو بالفطرة قبل العقيدة أنه باطل ودجل وبهتان:

- «أُبلِغتُ في الليلة الدهماء، من أمونة النجلاء، أنكَ ستكون وريث السر والخفاء، وبكَ تنجلي الأنواء، وببركةٍ ستأتيك من سيدي الفراش، ستشفي الأدواء في الأجساد، ويصير منك الريق الدواء، وبلسمًا منك للصدور ينجلي الكرب انجلاءً وتصفو صفاءً، فقط عليك أن تضع يدك في يدي، وتصير من حاشيتي، عالـِمًا تزكي قراراتي ونبوءاتي، مستفيدًا بلا حساب من خيري وعطائي الوفير، والكلمة الأولى والأخيرة كلمتي، لا تعلو عليها كلمة، ولو مِن عالم علمه غزير، أو من فقيه متحمِّس للكلام الكثير، فلا تُحرِّم إلا ما حَرَّمتُ، ولا تُحلِّل إلا ما حلَّلتُ، وعلمك ضيق يجري على الظاهر، قد يبدو لك أن في

كأسي خمرًا، وهو عسلٌ صافٍ، وقد يحلُّ لي ما يحرم على غيري، نعمةً من الله، وقد أكون بينكم وأنا في حضرة مكية، فلا تحكم بنظرك على فعلي».

يستغرب «سي حمو» ويتساءل في أعماقه: «من أين لها كل هذه القدرة على التلبيس وخلط الكلام، والإفادة من معجم الصوفيين والزهد...؟!» ثم يستدرك على نفسه: «آه...! هذا كلام الرقاص الملهوف... «الرقاص الملهوف» الملهوف حتمًا، وتلقينه لها، الخبيث الماكر... استفاد من حلقات جامع الفنا، ورحلاته بين القبب والأضرحة، فعلّمها كلام الزهاد، ولقّنها بَوْح النُّسَّاك».

يصمت في غيظ مكتوم، وصمت الراضي الخنوع، ويُظهِر لها ما ترتضيه نفسُها، وهو من كلامها غاضب غير متغاضٍ، لكن التقية، التقية هي طوق النجاة، والحق في يده محاصَرٌ بالغلبة، ومُضيَّق عليه بالمال والرشاوى، فإن صدح به الآن كان صيحةً في وادٍ، وستظل التقية درع اللحظة إلى حين يكثر الأتباع، ويقدر على النداء والشياع.

عادت لتجلس في الإيوان ذي الستور المخملية، وئيدةً في اتزان وغدا «سي حمو» في لجة الاضطراب غضبان، حسْبُه الوصيَّة اللّاجِمة لغضبة الحق الجامحة، تروض حنقًا عارمًا، وتلجمه لجمًا بعنان الحكمة، وتقول وهي واقفة، لا تنظر جهته:

- خصصنا لك عطاءً، متم كل قمر، مقداره ٢٥٠ فرنكًا من صناديق الزيارات والهدايا والهبات.

يجول في خاطره، ما يستفزه ويقول في نفسه: «الكلبة تريد شرائي ورشوتي»!!

- إيه... ما قولك إذًا...؟

- عندي ما يكفي، وأبي لا يحرمني من شيء.

- أتردُّ عطاء الشريفة...؟!

- لا... فقط...

- لا تكثر من الكلام، أريدك صامتًا... صامتًا... أسمعت؟!

- حاضر سيدتي.

- نريد تزويجَكَ... هل فكرتَ في الأمر؟

- ليس بعدُ سيدتي.

- متى تأتيني البشارة؟ فعالِـم غير محصن كخيمة بلا سارية، أي ريح تهب عليها تهدمها.

- لا أدري... الأمر بين يدي والدي.

- ربما نصير أصهارًا، فنصنع حِلفًا لا يكسره أحد، مهما كان قويًّا، عجِّل بالأمر...! وفكِّر...! فكِّر... هل فهمتَ قصدي...؟!

يحاول أن يفهم تلميحها، فيستحضر صورة «**تافوكت**» ابنتها بالتبني، فيدرك أن الخبيثة تفكر في أمرٍ جلل، تقطع به لسانَه بلا سيف، وتشلُّ دعوتَه بمصاهرةٍ، صفقةٍ رابحةٍ لها، قد تُغري والده، فتختلط المصالح والمنافع والدماء والأنساب.

- نعم... حاضر... سأفكر...

- أريدك في مجلسي الشهري، مع الحاكم والقائد وأمناء الحرف.

- حاضر «العالية».

- والآن اقترب...! هاتِ يدك...!

تشدُّ على يده، تضع خاتمًا بحجر كريم أزرق حول سبابته، وتقول وما انفكت تنظر بعيدًا في غطرسة طاغية:

- صرتَ منَّا، وهذا حرزك من العين والحسد، وجوازك في كل مكان وزمان.

في طريق العودة وهو ينحدر رُفقة الذئب نحو الوادي، سالت مآقيه دمعًا من الإحساس بالعجز، وكاد يرمي بالخاتم بعيدًا، ففطن الأفجى إلى بكائه وقد صار نشيجًا وغصَّ بالبكاء في غير نحيب، فتوقف كالكاسر المتهيِّب في السماء أو النسر المتربِّص في الأعالي، ينظر إليه نظرةَ استغراب ويصيح:

- أتبكي؟! ظننتك ستفرح، فهذا حدث مهم.

- نعم... ألا تعلم أن من الفرح ما يُبكي؟! شرَّفتني الشريفة، فأثَّر

الأمر في أشد الأثر حتى أبكاني، وتأثرت بحُسن فعلها، وطيب صنيعها.

ينخرط الذئب في قهقهة عالية، تشق صمتَ المنحدر، فتفزع لها بعض الطيور في الأعشاش على الأشجار، وبعض الهوام، ويقول وهو يربت على كتف «سي حمو»:

– مرحبًا بك... صرتَ منَّا، ما يضرُّكَ يضرُّنَا، وما يضرنا يضرك، أنا خادم «العالية» منذ سنوات، ولم تمنحني الخاتم إلا مؤخرًا، وأنتَ من أول يوم، يا لك من محظوظ، يا رجل!

في خاطره يجول الحديث الحارق: «معاذ الله أن أكون منكم وتكونوا مني، لا يجمعني وإياكم شيء، أستغفر الله أن أصير من رهطكم، يا أهل الشيطان...! أي خاتم هذا الذي هو جوازي في كل الأرجاء، وهو علامة على العار والهوان، وإشارة على الجهل والشرك؟! هذا الخاتم تأشيرة نحو الجحيم... لولا وصية شيخي بلماحي لرميته في وجهها»!!

– «سي حمو»...! أين «سرحتَ» بعقلك؟!

– لا... أنا معك...

– اذهب في سلام، سأعود... أم تريدني أن أوصلك حتى البيت؟

– لا... الله يخليك.

- قبل أن أودعك، احذر من مرافقة المسمى إدريس السوسي وذاك الأحمق قاسم؟

- إدريس السوسي... المهندس... إنه رجل طيب ومتعلم رغم أنه عربيد.

- لا تثق فيه، فهو أصل الفتن والقلاقل في منجم الفضة، وهو تحت عيوننا بطلب من العقيد جورج، وأخاف أن يلعب بالعقول هنا، فهو يكره «العالية»، ولولا عطفها لدفع الثمن عاجلًا، أما قاسم فقد صار من الأغراب وصاروا منه.

- لا تخف...! لستُ بالغِرِّ ولا الغِرُّ يخدعني.

- سلام...

يستأنف الطريق الموحشة وحده، وقد ابتعد عن غابة «الحسك» حيث الدار منتصبة على ربوة، متسترًا بالعتمة، وعقله في اضطراب، وصدره يجيش بأحاسيس متضاربة، تتلاطم كالأمواج على الصخور، وهو يردد في نفسه: «أي سلام هذا...؟! ربي...! ربي...! لا تتركني طرفةَ عين لنفسي...! ربي...! لا تبتلني...! ربي...! ربي...! وهذا «الذئب» قاطع الطريق الأخرق، يريد أن يكون ناصحًا ووصيًّا عليَّ، وهو غارق في الفساد والجهل، مِنْ قِمَّة رأسه إلى أخمَص قدمه، يحذرني من إدريس السوسي المتعلم، المهندس، الذي درس عند الأغراب بالخارج، وعاد إلى البلدة من أجل وصية، وقضية عادلة، مضحيًا

بالنعيم والمتع هناك، ولا همَّ له سوى فضح العالية، وهو ابن ولي صالح وزاهدة عابدة، آه...! لولا شربُه الخمرَ وعربدتُه...! لا...! لا... لست رقيبًا على الناس... وليكن...! فليهدِهِ الله، وهو فرعٌ من أصل طيب، يومًا ما سيعرف الطريق المستقيم.»

١٦

على «**تل الريح**» كان اللقاء المخطَّط له، اجتمع الأربعة، إدريس السوسي والفقيه «سي حمو» وزخارى وقاسم، فوجئ أول الأمر الفقيه بحضور قاسم اجتماعَهم، وهو عنده ظنين، وكان يحسبه على الفرنسيين لعلاقته بابنة العقيد جورج، ولدراسته في مدارس الراهبات المسيحيات، وتشبُّهِه بعاداتهم وسلوكهم وزيهم، ومصاحبته شبابهم، وعيشه حياته على منوالهم في احتفالاتهم وصخبهم، فبدد توجُّسَه وقلقَه ثناءُ «زخارى» وتزكيتُه لما سماه شهامته وإقدامه، وإطراء إدريس السوسي عليه، مشيدًا بصلابته في الشدائد، وبموقفه الجريء دون تحفُّظ من العالية ورجالها، وإن كان ذلك يسيء إلى أبيه الذي يُحسَب من المقربين الوجهاء إليها، وبجهره برفض المحتل وأذنابه وإن كان يرى في علومه وسلوكه ما يُغري العقل التواق للتغيير.

وأضاف إدريس السوسي مبتسمًا ابتسامةً يشع منها الأمل، مبدِّدًا ببريقها الحذر: «يا «سي حمو»...! ليس كل من لبس على منوال المحتل هو منهم، وليس كل ما أتى به العجم فاسدًا مرفوضًا مكروهًا يُترَك ولا يصلح لنا، فعلمهم إن لم نلحقه ما نفعتنا حرية ولا استقلال، وتدبيرهم للسياسة في شؤون شعوبهم إن لم نتعلم منهم غدت الحرية فوضى واستغلالًا مهَّدَا الطريق للظلم فصارت ذلولًا لحُكْم غير

رشيد مستبدٍّ مكين، وما تقوقعَتْ أمةٌ في زمن ما إلا تخلَّفت، وفاتها ركب الأمم السائرة في درب التقدم، والحضارة كونية، ملكية إنسانية، تساهم فيها أمم عبر حقب، فإن خبا نورها على ضفة، اشتعل في ضفة أخرى مما تبقَّى قبس، فكل مفيد نافع يُحسَب للإنسانية لا لقومية بعينها، والعرب والمسلمون حين نبغوا أفادوا، وقد تحوَّل مشعل التنوير من يدنا إلى يد غيرنا، فلا عيب أن نهتدي بنوره، دون أن نفرط في قيمنا وما يربطنا بخصوصيتنا، فإن كنا نكره من العجم الاحتلالَ والاستغلالَ، فإننا لا ننكر عليهم ما أتوا به من علوم نفعت الناس، طبًّا وعمرانًا وحكمًا، أما قاسم ففيه حمية الشباب، وتطلُّع شرعيٌّ لجيله من المتنوِّرين، ولا يعيبه غير تهوُّر متسرع، شأنه شأن هذا الجيل ممن تتوق أنفسهم للحرية والتفكير الحر على طريقة الفرنسيين، أما تسرُّعه الطائش غير المحسوب العواقب فيُلتمَس له العذر في دفق الطموح وكِبَر الآمال، وأما جهره على الملأ في الساحات بأن عمل العالية دجل وبأن ما تقوم به فيه خرافة لا تستقيم والمنطق والعقل دون خوف، فذاك يُحسَب له لا ضده.»

وفي الحقيقة فقاسم يؤمن إيمانًا راسخًا حد التطرف بأن العقل هو المخرج الوحيد للبلاد من التخلف والاستعباد، ويردد بثقة: «ما تخلَّفنا إلا لاعتمادنا علومًا لا تُحدِث تغييرًا في الحياة، بل تهتمُّ بشرائع وأصول فصل فيها الأولون تفصيلًا، ولو سرنا على خطا ابن النفيس والفارابي

وابن سينا وابن رشد ما ضللنا طريق العلم والتحديث»، كلام كان ينظر إليه الفقيه بنظرة عدم رضا، لإحساسه أنه يقوض شرعيته الدينية والاجتماعية من الأصول الفقهية والعلوم الشرعية.

اطلع قاسم على الحقيقة، وعلم قصة المغارة والدفين، وكشف له إدريس السوسي اختصارًا عن أسرار أمونة السودانية، فأصابه الذهول مما يسمع، وفغر فاه من الدهشة ومن غرابة الحكاية، فاستلقى على ظهره ضحكًا تطوَّر قهقهةً وقال ساخرًا وهو يكح وعيناه تدمعان من أثر الضحك: «ههه... هم لا يقدسون ويبجلون الأموات الآن، هم لا يستشيرون الأموات في شؤون الأحياء، بل الفراغ، الفراغ القاتل، اللعينة حكمتهم بالفراغ، والغريب أنها نفسها لا تعلم، وتظن أن بالمغارة دفينًا، وها أنت يا إدريس السوسي...! أقصد «سيدي إدريس السوسي» ابن الشهيد وأمونة السودانية، تخرج من العدم لفضح العدم، وسلطة العدم... سامحني...! والله...! ما استحق أبوك التقدير مني لنسك في مغارة، ولا لتصوف في خلوة، لكنه كان مجاهدًا واجه المستعمر بجرأة وبسالة، وقَبِل الزعامةَ بما فيها من خطر وملامة، وقد علمت من أمر بعض الزهاد في بلدي أنهم إما متواطئون أو منعزلون عن شؤون أقوامهم، بحجة أن الصراع يلهيهم عن جهاد النفس، ولا يهمهم ظلم مستبدٍّ ولا طغيان مستعبد، والله...! ما بجلت والدتك أمونة السودانية إلا لأنها امرأة

ولا كل النساء، بألف رجل، وقفت صامدةً إلى جانب الشهيد في مواجهة الاحتلال، ولم يركبها خوف النساء، ولا جُبن الضعيفات، بل جاهدت وحفَّزت، وداوت الجرحى، وودَّعت الشهداء القتلى بلا دمع بل بزغاريد النصر...»

لم يكن إدريس السوسي يجد حرجًا في كلام قاسم، بل كان هناك مشتركٌ بينهما خافٍ، ثقةً في العقل منفردًا عند قاسم، وثقةً بالعقل مقترنًا بالإيمان عند إدريس السوسي، الذي رأى من أهوال العقل الغربي ما جعله يرى أن العقل وحده غير كافٍ لتدبير شؤون الحياة، أما الفقيه وإن كان مذهبه أن الثقة في النص المقدس هو الأصل قرآنًا وسنة واتباعًا للسلف، فلا يرى مانعًا في تحكيم العقل قياسًا في كل مُستجَدٍّ وجديد، لا حكم له في النصوص معتمدًا على ما درسه من فقه المقاصد، ولكن السبق كل السبق للنص لا للعقل، أما زخارى اليهودي، وهو ليس على ملتهم، فكان شعاره «كلُّ ما ينفع الناس والعباد ولا يُفرِّق الكلمة ولا يزرع الضغينة ويُنتج الرخاء بالعدل والمساواة ويواجه الظلم والطغيان ويحرر العقول والبلاد يجري على ملته، عقلًا كان أم نصًّا».

فعقدوا أمرهم على أن يستغلوا الموسم السنوي للبلدة، في السنة المقبلة ربيع ١٩٤٧ لحشد الناس، للدعوة إلى الحق سرًّا، واستقطاب العقلاء لقضيتهم الأولى الضرورية قبل معركة التحرير والجلاء،

واستغلال الزمن الفارق، في تعبئة عمَّال منجم الفضة، واستقطاب الوطنيين من الجنود المجندين من لدن فرنسا، والاستفادة من صوفيا، عينًا لقاسم وأذنًا على ما يجري في كواليس العقيد جورج، وتعهَّد زخارى بتجميع الأخبار، والتزويد بالسلاح حين يحلُّ أوان الجهاد ضد المحتل، لما له من علاقات تجارية قديمة، ومعرفة بالأسواق وخباياها.

حل الموسم السنوي لبلدة الغرافين، وصار اسمه عبر الأمصار والأقطار «موسم الشريفة «العالية»»، فتقاطر الناس والزوَّار فُرادَى وزرافات، ضمن عائلاتٍ وأسر وعزابًا، من كل صوب وحدب، وحطُّوا الرحال على السفوح والمنحدرات والأزقة والدروب، وقرب مجاري العيون والمنابع وفي بطن الوادي، فنشأت لهذه الحياة والمجتمعات الجديدة الموسمية حاجات مُلحَّة ومتطلبات جديدة وضرورات لازمة؛ فغُلِب أصحاب الدور والمنازل المعدَّة للكراء من كثرة الطلب، ولم يُغطُّوا العجز والطلب المتزايد.

نشأت عادة جديدة لاقت الترحيب، إذ صار بإمكان من لم يجد دارًا للكراء أو الإقامة، أو من ليست له القدرة المالية الكافية لكراء الغرف والدور، أن ينصب خيمةً بين «الزنقات»، وفي الفجاج وعلى السفوح وبين الأحراج وتحت الأشجار. فغاصت البلدة بالأُسَر في الخيام المنتشرة في كل مكان، وكانت أماكن بعينها غاليةَ السعر، وصعبةَ

المنال، إلا لمن جادت عليه السماء، فرشا «الذئب» وأعوانه، ليجد مكانًا بين الأحراج والدغل، في محيط عين مغارة سيدي الفراش، وعين أمونة السودانية، وظهرت سوق مستحدثة، تجارها يعرضون سلعهم في خيام بدائية من خِرَق وسقط المتاع، على طول الفجِّ المؤدي إلى الدار الكبيرة، وفي ساحة واسعة قرب المنبع، حيث تنتشر العربات المجرورة بالحمير والبغال والخيول، فغدت البلدة ربوضًا، كثيرة الزوار والحجاج، لا تنام ليلًا ولا نهارًا.

افتُتح الموسم السنوي في الربيع بنداءٍ وإعلامٍ روَّج له وعمَّمه بحماس «البراح» وهو رجل مكلَّف بتعميم الأخبار والأوامر والنعي والمآتم والأعراس، بصوت عالٍ وهو يجوب بين الدروب وينقر بشدة بعصاه على طبل شده بحزام على صدره.

نداء هذا الموسم كان غريبًا، حيث ارتفع البلاغ في الأرجاء: «يا أهل بلدة الغرافين...! الحاضر يبلغ الغائب، والسامع يُفهِم الأصم... يا زوار المقام...! يدوم الموسم هذا العام إحدى عشرة ليلة، ولا حكم خلالها ولا قضاء إلا ما تقول وتقضي به الشريفة «العالية»، فإن اختلفتم في شيء فرُدُّوه إليها، فتحسم فيه، وإن كانت لكم مظلمة فهي الفيصل والحكم، في الدار الكبيرة القصاص والفدية والإصلاح، يا أهل بلدة الغرافين! يا زوار المقام! حاضركم يبلغ غائبكم». أما «الرقاص الملهوف» فساح في الأرض قبل شهور وقد جهَّزوه بالمال والعتاد،

يضرب الأكباد ومساعدوه مَن يلعبون أدوارًا في مسرحيات، يعدها بذكاء بالكذب والافتراء، يروج للخبر في الأقاليم والقرى البعيدة بلا كلل ولا ملل، ويشهد ممثلوه كالعادة أمام الناس كالأغراب، شهادات عن كرامات رأوها أو عاشوها بعجب وذهول.

امتلأت الصناديق بالأموال والعطايا والهدايا، وكانت تُفرَّغ يوميًّا في دار «العالية»، ولا يُفتَح أي صندوق إلا بمفتاح عندها، فنشطت التجارة نشاطًا ورواجًا منقطع النظير، لم تعهدهما البلدة ولا أهلها من قبلُ، فتنوَّعت وتعدَّدت وتشعَّبت صنوف السلع حسب حاجات ومآرب ومتطلبات الوفود والأسر والزوَّار من كل طبقة وفئة اجتماعية، ولأن العقيد جورج يريد أن يكون الشباب في صفه، ويتلهوا عن أمر بلدهم، فقد همس في أذن «الذئب» أن يشجع المومسات على الحلول بالبلدة والعمل في دروبها، والاستقرار بها، وقد كنَّ قبلُ يأتين مع الجنود في مواعيد محددة، ولا يَبِتنَ في البلدة إلا لمامًا وبرخصة منها، وسمح أخيرًا لهنَّ باتخاذ خيام خاصة، أو دُورٍ مكتراةٍ، وكان الحاكم العسكري الفرنسي، قد عاتب العالية خلال السنوات السابقة على عدم السماح لهنَّ بالاستقرار في المنطقة، حتى اشتكى الناسُ من تحرُّشات الجنود، فجاء أمرُه لينفذ، فلم تعد المومسات من كل صوب وحدب من مختلف الأعمار يجدن صعوبةً في كراء الدور واتخاذ الخيام والعلامات والتجول في الدروب لاقتناص الزبناء.

ولكل نشاط مقابل مهما كان، فكان يمر عليهن أحد رجال الذئب وهو كبير «القوادين»، يحاسبهن من حين لآخر بغلظة ولؤم ووضاعة، مستبيحًا الأجساد بالقوة والترهيب، ويقتطع خلسة حصة له غير مدونة، وحصة العالية وحصة القائد، ولأن الموسم لم يعد موسم زيارة للمغارة وللعين فقط، بل صار محجًّا للتجار والمومسات، وتنشط خلاله عدَّة مِهَن وحرف، فقد تغاضى وتغافل القائد الشراجي عن رواج «عشبة الكيف والحشيش» خلال الموسم، وكان له من كل ربطة تباع نصيب معلوم، ولـ «العالية» نصيب محسوم.

سَعِد العقيد جورج بهذا التحول في مزاج الناس، وتهالكهم على الملذات والمتع، فلم يكن يهمه مال الدعارة ولا مال الكيف والحشيش، بقدر ما كان يهمه راحة عمال المناجم، وهم يطلبون إجازات خلال فترة الموسم، فيأمر رؤساء المناجم، بالتسريح المؤقت لهم، فكانوا يجدون في البلدة، كل ما يريدون، نساء تحت الطلب، في دور أو خيام متوارية، فيختارون منهن الجميلات والصغيرات، وجَرُؤَ الزوار على ولوج حانة اليهودي زخارى، بعد ما كان الخلاء خمارة مفتوحة.

انتشر انتشارًا كبيرًا مرضا الزهري والسيلان الصديدي الجنسيان، وفشا القمل والبرغوث والبق بين الناس وفي الدور والخيام والأثاث، وغزا الجرب الأجسام من قلة نظافةٍ وعنايةٍ، وعدوَى تنتقل بالاختلاط

والضيق وتقارب الأنفاس في الزحام والتدافع، حتى حارت فيه أعشاب العشابين، ومراهم وزيوت تباع على الطرقات، ويتم الترويج لها بالصياح والافتراء، فظهر زيفها وعدم جدواها، فتحول الناس عنها.

ولم يجد القائد الشراجي والعقيد جورج من حَلٍّ غير نصب حاجز صحي، شبيه بالحجر الصحي على الطرقات المؤدية إلى البلدة، لفحص الزوار ومنع المرضى والمعتلين بعلل وبائية أو معدية، فصار للبلدة عند مدخلها «ديوانة» أي نقطة مراقبة، بها رجال يرشون الزائرين والزائرات بالمبيدات الحشرية القوية، وطبيب نصراني تساعده راهبات يكشف على المومسات وبائعات الهوى، فتمنح لأجملهن وأنظفهن - بعد الكشف الدقيق - جوازاتُ العمل في الماخور «البورديل» الخاص بالجنود، والذي افتُتح في زقاق بخارج البلدة، وكان شديد العسس، سماه الحاكم الفرنسي «الأمل»، ولا يقصده غير الجنود الفرنسيين وعينة من الوجهاء المنتقاة بدقة، وبه طبيب مقيم، وإدارة تدبر شؤونه، ومن تبقَّى من الأخريات يخترن دعارة الدور والخيام.

وتناسل في تكاثر كالفطر مروجو الخمور السِّرِّيون، وأهل البلدة عن ذلك منشغلون بتجارتهم ومهنهم وحرفهم وتهالكهم على الدنيا والتجارة، وتظاهر القائد بعدم العلم، وعيونه ترصد كل حدث صغير أو كبير، فالتزم ذوو «صنعة» المتع والخلاعة، بالإتاوة والعطاء،

لـ «العالية» نصيب محدد من الغلة وللقائد نصيب معلوم وأخبار ومعلومات مهمة جمة.

كانت العالية أمام زوارها ووفودها والوجهاء من القوم تتظاهر بالورع والتقوى وهي أصل البلوى، فتقول منتحبةً نحيبًا مزيَّفًا مصطنعًا: «يا ويلي...! يا ويلي...! عليكم يا أبناء بلدة الغرافين، يا رجال بلدة الغرافين... صارت قريتكم محجًّا للعاهرات والحشاشين. لكن ما العمل وقد أُمِرت من سيدي الفراش ناصر المظلومات بتوفير الأمان والحماية لهن، لحكمةٍ لا ندركها نحن». وحده «الذئب»، كان ينظر إلى وجهها المقنع الذي لا تكشفه في هذا المقام المزيف، وهو مدرك أشد الإدراك بلا شك ولا أدنى ريبة، ألا دمع في المآقي، ولا أسف في النظرات، ولا حسرة في الزفرات، ولا ألم في الصدر، ولا حزن في القلب والجنان، وكانت تردف مصطنعة البكاء والدعاء: «أمونة السودانية زارتني في الرؤيا الساطعة كفلق الصبح، وأوصتني وصاية المحذر والمنذر، أوصتني بهن خيرًا وعطفًا ورحمة، وهي منتصبة بين السماء والأرض في الأجواء، زاهية بثوب فضفاض أخضر شفاف، وشعر مجهد أفحم كليل مظلم مضفور جدائل، وأوصتني بالضعيفات المنكسرات الأفئدة والأجنحة، قالت: «هن «وليات»، تائهات وضعيفات، وحريٌّ بك حمايتهن حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا، من يدري؟! قد تطهرهن أرضنا ومياه عيننا.»

وحين تختلي بالذئب، وتبدأ الحساب وعَدَّ المدخول، تغضب لعدم مردودية بعض العاهرات، وتشك في ذمتهن، وتقول له: «اقس على الكلبات، واجعل في كل دار عينًا عليهن منهن، فلا ذمة للعاهرات ولا ثقة فيهن.»

أما «القرابون» وهم مروِّجو الخمور سرًّا، فقد كانوا يؤدون الإتاوة عن كل نوع وعن عدد القنينات قبل الترويج، ولم يكن أحد يعتقد أن لـ «العالية» يدًا في ذلك، فقد عَزَوُا الأمر إلى جشع وطمع الذئب، ومن ورائه قائد المنطقة.

ظل «سي حمو» يقرأ هذه الرفاهية والدعة قراءة أخرى، كان يتحسَّس الأرض بهلع شديد تحت قدميه، خشية أن يخسف الله الأرض بالبلدة، وكلما اشتد هبوب الريح، حسبها - لهلعٍ وخوفٍ - ريحَ صرصرٍ، ستقلعهم من جذورهم، وتحضره مصاير عاد وثمود وقومي لوط ونوح، فكان قبل أن ينام يستغفر ربه كثيرًا، ويتوب توبة العاصي وما هو بعاصٍ، خوفًا من أن يرسل الله عليهم حاصبًا وهم نيام، وينام مودِّعًا الدنيا وداعَ مَن لم يعد يرغب في الحياة.

وكل ليلة يطوف ويجوب أرجاء ودروب الموسم الصاخبة بمجون، علَّه يجد سبيلًا إلى الدعوة وإلى القلوب التي تتوق للحقيقة وللصدور التي تهفو إلى الحرية الطليقة. ونهارًا ينقِّب بين الجموع عن أتباع يؤازرونه على تعرية الجهل وتبديد غشاوة العقل والقلوب التي

صارت كالحجارة، لكنه لا يجد إلا ما يصدُّ عزمه، ويُحبط رغبته، ويذهله الأسئلة المحيرة: كيف نَمَتْ هذه الرغبة في الاستهلاك والتبذير؟! متى ظهرت تجارة رفاهية لا ضرورة فيها، كتجارة البخور والأعشاب و«الخلطات»؟!

وفتح الرقاص الملهوف محلًّا للتطبيب بالأعشاب، زاعمًا أن عنده زيوتًا باركتها الشريفة، وما يداوي الناسَ غيرُ الإيحاء الراسخ والإيمان القوي اللذَيْن يفعلان الأعاجيب في البدن، مِن استعداد النفس والعقل، وروَّج خلطات من أعشاب بادعاء أنها مِن علم الغيب الطبي لما تجلَّى للشريفة العالية من رؤًى وخبرٍ من سيدي الفراش، وامتلأت فضاءات قُربَ نبع العين بأكواخ من قصب، بها نساء بجلابيب وملاحف وملاءات، مختلفات الأصول والأهواء، بعضهن ينقشن الأكف بالحنة «المباركة» المعجونة بـ «ماء العين»، بعضهن يقرأن الطالع بالأوراق، وحلَّ بالموسم النصابون واللصوص، ونازِعُو الأضراس، وبائعُو الوهم والمهرجون وشاربو المياه الساخنة، وآكلو الكؤوس الزجاجية، وحواة الأفاعي، والمشاة حُفاةً على شظايا الزجاج وأشواك الصبار والجمر الملتهب.

هال «سي حمو» هذا التحول السريع نحو تجارة الرذيلة والجهل، حتى أوشك أن يُغمَى عليه، لولا تذكُّره وصية الشيخ، وابتلاء من سبقوه وكانوا أكثر منه شأنًا، وصبروا صبرًا شديدًا.

الْتقَى الرجال الأربعة مرة ثانية على «**تل الريح**»، كلٌّ في هَمٍّ وغَمٍّ مما يرى، فإدريس السوسي يرى بلا تردد أن الضلالة الكامنة في العقول عَرَض خبيث من أعراض الاستغلال والاستعباد، ويعدُّ العالية جبهةً صغيرةً، والصراع معها ليس أساسيًّا وهو مزيف، وهو تناقض ثانوي، يصطنعه الشر الكبير لإلهاء الشعوب بحروب داخلية صغرى، والصراع مع العالية مهما بدا فهو مُزيَّف، سيُعطِّل الصراعَ الحقيقيَّ والتناقض الأساسي مع الاستبداد والاحتلال، وأن المسيطر نفسه يخلق مثل هذه الجبهات الصغرى ويُفرِّخها من حين لآخر، لإنهاك قوى التغيير، وتحريف مسار المعارك النضالية، ويرى أن الحلَّ في مواجهة العدو الحقيقي المستعمر، بالصراع الأساسي ولو بالقوة، ويؤمن بصوت البندقية العالي في الحسم، ومعه قاسم في الرؤية، لكنه يختلف معه في المنهجية، فهو يؤمن بالضربات الخاطفة لمصالح المحتل، وإنهاكه بحرب العصابات، واستنزافه على عدة جبهات، فهو جيش نظامي لا يُجابَه إلا بالضربات الخاطفة التي فيها كَرٌّ وفَرٌّ سريعان، واستهداف لهدف محدَّد دون هدر للموارد والطاقات، وتصويب السلاح نحو الخونة وأذنابه واغتيالهم في أسرتهم حتى يكونوا عبرةً لكل متعاون خسيس.

وكان «سي حمو» يرى رأيًا مخالفًا، فيقول إنه بتطهير القلوب والعقول، بنور الإيمان والعقيدة الصحيحة والمنهج السليم القويم،

تُحقَن الدماء ويُطرَد المستعمرون بالحوار والعصيان المدني، ويدرك الناس أن الاحتلال ليس قدرًا وقضاءً سرمديَّيْن، بل هو بلاء ووباء يجب استنهاض الهمم لردِّهما، واستنفار العباد لتحرير البلاد، والأصل هو الحرية في النفوس والمصير، لا الاستعباد والسكينة بحجة واهية من جبرية سائدة، ويؤكد أن «العالية» هي الجبهة الأساسية والأولى، وليست عَرَضًا لمرض خبيث، بل هي أصل المرض الأكبر، وهي الشر الأكبر، فالذل الذي سكن النفوس حتى ألفت القيود والخنوع لن يتلاشى إلا بسقوط الخرافة؛ لتفتح العيون والعقول وتغدو في حاجة إلى الكرامة والحرية.

أما «زخارى» فكان يرى أن الكل على حق، فقط يختلفون في ترتيب الأولويات، الحرب ضد العالية أولوية، لكن بمحاربتها نضرب المحتل في الصميم، ونحارب خططه هو نفسه، والتفريق بين المعركتين، هو وهْمٌ، فما يُضعِف المحتلَّ إضعافُ جبهات الجهل والذل.

وفي هذا اللقاء أضاف قاسم مُعطًى جديدًا متبرِّمًا من كثرة التنظير وتأجيل العمل، وقال بضجر وقلق ونرفزة: «النظرية تغتال الفاعلية، ولا حلَّ إلا بحمل السلاح، وخوض حرب تحرير في الغد القريب، والعالية ورجالها تكفيهم رصاصات في الرؤوس وينتهي الأمر، وهذا مصير الخونة في كل الثورات، وكل نقاش نظري مضيعة للوقت وللجهود». وتفرقوا دون إجماع، على أن يحسموا الأمر في

اجتماع قريب، فلم يحسموا للمعركة خطة، ولا للمواجهة تدبيرًا، ولا للأولويات ترتيبًا.

استأذن «سي حمو» على العالية، فأذنت له بعد أيام في قاعة الضيوف الرحبة، دخل عليها، وهي بين حاشيتها، متبوِّئَة وسط المجلس كملكة من زمن سحيق، وعلى مائدةٍ عريضة ممتدة الأطراف أشكالٌ وأنواعٌ وصنوفٌ من الطعام الشهي واللحوم المتنوعة والشراب اللذيذ والفواكه الطازجة، وجلس عن يمينها القائد «الشراجي» وعن اليسار الحاكم العقيد جورج وضابطان فرنسيان، وثُلَّة من الأعيان بادية النعمة على وجوههم وفي الأثواب والملامح، سَلَّم وظلَّ واقفًا، لم تدعه للجلوس ولا للطعام، فحمد الله في سره وهو يحسبه حرامًا من ظُلم أو سحت، وابتسم ابتسامة باهتة وقال:

- الشريفة...! قوة بلدة الغرافين فيك... وفي بركتك...

هكذا وطَّأ ومهَّد لطريق الحوار لتغدو ذلولًا، ودرءًا للرد الغليل والغضب الشديد ثم أردف:

- وخيرها الجم الغزير من العطاء لبركة سيدي الفراش، ونور أمونة السودانية

- لكن...!

يتوقف عن الكلام، خشية أن يفسد ما مهَّد به الشكوى بحديثٍ

يمجُّه ويأنفه قلبه، واصطنعه ليلقَى القبول عند العالية، فما لا يؤخذ كله لا يترك بعضه، فشعرت بتردُّده في نظراته الحائرة فحضَّضته بزمجرة وشدة نبرة وقوة نظرة، محفِّزة إياه على المضي في الكلام:

- لكن... ماذا؟!

- البلدة...! «العالية»...

تقاطعه وهي تحدجه، تكاد تعصف بكيانها شرارة شرٍّ جليٍّ في تعابير وجهها قاتم النظرات، وقد تجلى منها الغضب في الملمح وتقول مزمجرة:

- البلدة...؟! ما لك مرة أخرى والبلدة...؟!

تردَّد حتى كاد يغير ما جاء من أجله، ثم فكَّر مليًّا وقرر الكلام في الموضوع، علَّه يلقى منها سندًا:

- البلدة...!... عجَّت ببنات الهوى والمومسات و«الشوافات» «قارئات الأوراق» ومدعيات الغيب بكذب، وانتشر الخمارون والنصابون في كل درب وحدب.

رمقته بقسوة واستصغار بلا حظوة وزمجرت:

- وما لك أنت وبلدة الغرافين وشؤون أهلها والزوار والأغيار؟! أتريد أن تعرف ما يقع؟! اسمع إذًا وافتح أذنيك! فأنا أعرف ما يقع ويجري ويدور في قريتي، القديم منه والجديد والغابر والظاهر، ولو كان إبرةً في القش، لكن الأمر ليس بيدي، فكلما

قَرَّرتُ طرد النساء المشتغلات على المتعة والأنس والمجون، هداهن الله، رأيت تِباعًا وإلحاحًا في رؤايَ «سيدي الفراش» غاضبًا وما عهدتُه غير راضٍ، ولالة أمونة بنظرةِ قلقٍ، وما زارتني غير مبتسمةٍ، يأمران ويُصدِران الأمر المطاع في شأن الخاصة والعامة، ويحذران من إجلاء النساء المومسات تحذيرًا شديدَ الإنذارِ والوعيد، ويقولان: «إن في الأمر حكمةً ونعمةً، لا تعرفينها بالفطرة ولا بالخبرة، دعي الشأن للسماء تدبر أمر النساء بخفاء...!» وأنا لستُ إلا مأمورةً، لا آمرة، وحين يتكلمان بوضوح وبيان أطيع بلا سؤال ولا لجاج، فلا أريد إغضابهما في أمر محسوم، ولا مراجعتهما في عقد مبروم، فألقى مصير الجذماء في عزلة وجفاء.»

وحدجه القائد «الشراجي» يومذاك وثلة من الوجهاء والأعيان وكانوا منهمكين كالضواري المفترسة، في نهش اللحم، نهشَ الضباع المتدافعة على لحوم الأجياف، بنظرة قاسية وقال وهو يلوح ببقية ضلع لحم ضأن:

- اهتمَّ بشؤونك! لا أريدك أن تثير الفتنة بسؤالك وفضولك؟ أسمعْتَ...؟ لا تجعلني أغضب منك غضبًا تعرف سوء عاقبته... دع الناس يرتعوا ويمرحوا...! وإن... إن لم يعجبك

أمرُهم وساءَكَ منهم ما لم يشتكوا منه ولا عافوا، فاخرج من بلدة الغرافين، يا عالم «الجلابيب»!

ثم تَصدُر عنه قهقهة عالية بصخب وضوضاء، فيغصُّ الطعام في حلقه ويشرق الشراب في صدره، حتى انقطعت أنفاسه، وعصفت يده المضطربة بحركة طائشة زائغة بالكؤوس فهوت على الأرض وتكسرت فتطايرت الشظايا، وفزعت قلوب الحاضرين، وهرع إليه على عجل مرتبكًا وجيهٌ من الوجهاء، يسقيه ماءً ويضرب بقبضة يده بين منكبيه، ليسري الطعام الذي علق في مجرى البلعوم، وحين يسترجع الأنفاس والوجه معتصر دمًا، يقول باضطراب لسان وبقية سعال من اختناق:

- اغرب عن وجهي...! كدتَ تقتلني.

ويلتفت بغضب إلى الكهل الوجيه الذي تسمَّر في مكانه منتصبًا خوفًا ومذلَّة، كالخادم، ويقول:

- وأنت...!! توقف...! يا حمار...! توقف...! توقف...!! أتريد قتلي بتلك اللكمات الشديدة؟!

ينسحب الوجيه، وهو يسوي عمامته تكاد تلابيب جلبابَيْه - واحد صوفي ثقيل وآخر من كتان - تعوق خطوه السريع فيكبو، ثم ينهض ويستوي في مقعده بخجل وارتباك، والعالية تهزُّ رأسَها هزًّا وتغمز له غمزًا بعين، وترفع حاجبًا وتنزل آخر، كأنها تلومه على طيش سلوك وتسرُّع فعل، وتحضُّه بالإشارة على الجلوس والسكوت.

وفي خاطره سرًّا يغتبط «سي حمو» اغتباطًا بنشوة وشماتة، من غُصَّة القائد الشراجي، فيتمنى له الموت الخاطف الذريع، ويدعو عليه دعاءً قويًّا شديدًا، وعلى الجمع بالخسف أو الغرق الجارف من طوفان، ويرمق الكهل الوجيه بنظرة استهزاء واستصغار وهو يرى أقداحَ وقوارير النبيذ على المائدة، أما العقيد «جورج» فقد سوَّى أوسمته ونياشينه الخمسةَ على صدره، ووضع قبعته العسكرية على رأسه مترنحًا من ثمالة واضحة باعتداد بالنفس، ولوَّح في الهواء بصولجانه، ثم التفت إلى «سي حمو» وتفرَّس فيه تفرُّس احتقار المستخِفِّ المستصغِرِ بغطرسةٍ ولؤمٍ، ثم استقام واقفًا وهو يسوي سترته العسكرية، وحزامه الجلدي الغليظ، وجراب مسدسه، ويتأرجح غير مستقرٍّ وفي يده قدح نبيذ يميد لترنُّح الجسم المتمايل، والبصر زائغ، واللسان عيي، متعثِّر الكلمات على الشفتين، وقال بعربية دارجة مقهورة المخارج مقموعة الحاء والخاء والضاد والعين وهو يلوح بسبابةٍ كأنه في وعيد:

- اسمع أنت...! اسمع كلام «القائد» «الشراجي»...! نحن نحترم أباك، لكن لا تكن غبيًّا، فتخربها على أبيك وعلى حياتك...! لا تحفر بعيدًا...! لا تتكلم...! لا تتكلم كثيرًا في أمر لا يهمك وقد يضرك... ههه... ولا ينفعك! دع الناس وشأنهم، يسعدون ولا يشتكون...! اضحك معهم... نعم... تمتَّع يا رجل...!

أو اذهب بعيدًا عنهم...! ههه... تمتع فالحياة جميلة وقصيرة يا أحمق، لا تنسَ...!

يغلبه التجشؤ، فتصير كلماته متباعدة متنافرة، ويقمع غثيانًا يغلبه بإغلاق فمه بيده وبقوة لحظةً، يتجشأ من جديد وهو يهتزُّ من عذاب ما به، يتهالك على الكرسي، ويصيح وهو يلوح له بيده زاجرًا طاردًا:

- اذهب...! أوه... تفو... تفو... لا يأتي معكم إلا النغص... هيه...! إياك... وإياك...! أن تنسَى أن جيوش فرنسا هنا، وهم في أمسِّ الحاجة للفرح والمتعة، أفهمتَ يا... يا فقيه...؟!!

انصرف «سي حمو» بأسًى وغيظ، يجرُّ ذيول الخيبة، وقد خبر من هذا اللقاء قوة الجماعة الباغية المتضامنة المصالح والمنافع، وتكالبها كالضباع على البلدة وأحوالها.

وحين تطرَّق بأدب إلى الموضوع مع الوالد والرجاء فيه ضعيف وهو لا يقلُّ عن ذاك الوجيه الخنوع الذليل الذي نهره وأذله العقيد، ولم يصدر منه ما يشي بكبرياء وأَنَفَة يأنفان الهوان، ويدرك يقينًا أن الوالد ذاته خَنوع متهالك على المتع وملذات الدنيا، اكتفى الأب الجهول ببضع كلمات قاتمة بفظاظة، بلا أمل ولا أفق ولا مشاعر آمنة:

- اترك الناس وشأنهم! تلك أرض الله وهو القاضي ولستَ أنت، كأني بك صرتَ شوكةً في خاصرتي، وحصاةً في حذائي، يا ندمي على تعليمك الذي قد يصير سبب خرابي وهلاكي!

- أبي...! أخاف عليكم من غضب الله، أخاف من أن يخسف بكم رب العالمين الأرض وأنتم نيام، ولستم له مُعجِزين.

- أتظننا كفارًا في جهل وجهالة نعيش ونرتع؟! نحن قوم نصون العرض ونصوم، ونصلي ونجود، نخطئ فنؤوب مآبَ النادمِ التائب، ونستغفر من الذنوب كل يوم وليلة، وتميل قلوبنا وأنفسنا بعد كدٍّ وتعب إلى الأنس والمتعة، وتهفو حينًا وتلك فطرة للأهواء فنتوب بخشوع، وما صبرنا على ما ترى وما نراه من مجون إلا تصديقٌ راسخٌ لرؤيا العالية وهي دومًا للحق نصير، وسيدي الفراش لها ظهير، وهو السيد المسخَّر من السماء لخدمة العباد وهو الحَكَم في الشنآن، و«أمونة» ببركتها تنقشع الغيوم، ونستمطر فنُمطَر، ونستغيث فنُرحَم، وقد أبلغنا البراق أن الأمر جاءها ألَّا تعترض ولا تقمع النساء الضعيفات اللواتي لا تجارة لهن غير متعةٍ يمنحنها، و«مسيو» جورج سمح لجنوده وموظفيه وأعوانه بزيارة البلدة طول السنة، وبأن يرتعوا في مباهجها بين دروبها وزنقاتها، فازدهرت ازدهارًا كبيرًا تجارتُنا، ولم يعد بيع التيوس والأماعز والأكباش والأبقار مرتبطًا بالذبح عند المغارة أو العين، بل صارت تُقام الليالي والولائم، ويرقص الجنود حتى الصباح، كل التجار صغيرهم وكبيرهم وكل الباعة والحرفيين والصناع سعداء بالعسكر الفرنسيس، إنهم كرماء، مُبذِّرون

كثيرًا بسخاء، بلا حساب مقيت ولا عسر تدقيق، يسهل غشهم والتدليس عليهم، لا يكنزون لا فضةً ولا ذهبًا، وهذا يعود بالنفع والخير العميمَيْن علينا وعلى الجوار والتخوم من الأمصار، وغشهم والتدليس عليهم في البيع والشراء حلالان، ما دام كما تقول أنت ماهم من خيرات أرضنا التي نهبوها.

١٧

لا «**العالية**» ولا أعوانها من ذوي القُربَى أو الوجهاء الذين هم في عَمَاء الجشع المظلم يعمهون أبردوا حُرقة قلب «سي حمو» الملتهب ولا أخمدوا ولو زيفًا ورياءً ونفاقًا لهب غيظه المستعر، ولا الوالد الخانع كان في صفه، ولا تفحَّص قضيتَه تفحُّص المهتم الغيور، في جولة الباطل، ولا ييأس وهو العالم المؤمن بحكمة مُدبِّر الأحوال ومُقلِّب القلوب، وهو صاحب قضية عادلة، وحريٌّ به ألا يذلل الطريق بانكسار، لشبح الخيبة واليأس المثبطَيْن للعزائم والهِمَم، وقبله كان دعاة مصلحون، ما قنطوا وما يئسوا من رهطهم وقومهم ولا نفروا، وإن اشتدوا عليهم وظلموا، صبروا الصبر الجميل بلا مِنَّة، فانتصروا وفلحوا؛ فرجَّحوا كفة العدل بالحجة والإفهام والإفحام، وبالرجاء الكريم جدَّدوا الهمَّة، وبالصبر الجميل قوَّموا النية، وبالصدق المنيع ردُّوا الخيبة، ولم تثنهم جولة الباطل العابرة المؤقتة، عن الطلب الملح للحق العِذْق، المزهق للباطل الهالك الزهوق، ولو بعد جولات ودورات.

غمره بريق الأمل بنشاط وحماس لحوح، وسكنه الرجاء المنوح، في أن يستقطب بلين ورحمة ويسر دعوة، يجلب إلى صفِّه بخفي ندوة، مَن يُؤمن به وبقضيته، وكان حذرًا من عيون وآذان العالية المنتشرة، والمبثوثة في كل الأرجاء والدروب والدور، وليس مستبعدًا أو

مستحيلًا أن يكون أحد من الخدم أو الخادمات في بيت أبيه عينًا من عيونها، أو تكون أُذُن في الجوار القريب مستمالَةً بالمال أو بالترهيب في خدمة العالية تُدوِّن العطسة والسعلة، لتجد في السمع سبيلًا للحظوة والقربة، فتتنافس قنوات الوشاية والاستعلام من أجل سَبْق له ثمن، وخبر نفيس له سعر، فالضعف والشهوة والنزوة، أهم سلاح بيد المستبد والغالب الخائف، لتركيع وتوظيف العقول المتمردة، والأفكار المعارضة، بالعدول عن الحق خوفًا من الفضيحة بين الأهل والناس، وكم من صوت صدح بالعقل وعلا بالحق زمنًا، ثم لان وَرَقَّ فصمت حتى اختفى وانعزل، وحين عاد مال ميلًا غريبًا، وغدا من الحاشية مزكيًا بفِكر ظلمًا يحتاج إلى علم يستره وعالِم يبرره، والناس في أمره مستغربون، في مجالسهم له مُخوِّنون وكارهون، فتتلاشى وتتبدَّد الثقة في الصفوة المفكرة وفي النخبة القائدة، ويصير كل صادح بفكر معارض محطَّ شبهة راجحة، وقد سبقه من كان في حماسه فأصبح ذَمٌّ مثبت التهمة، وما أسكته في البدء غير فضيحة من نزوة مدونة في وثيقة، ولها شهود عدول، وضحايا مؤجَّلو المثول.

قرر التقية في دعواه ومسعاه، والتريث والحكمة في دعوته ومُرتجاه، فدعوته وإن كانت دعوةَ حقٍّ فهي باطل مجلجل في عقول الناس، لأنه وحيد منفرد بلا أتباع، وبلا قوة ولا نفوذ، وحوله الضباع لا السباع. ألم يقل له شيخه الفقيه الماحي: «إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»؟ ودعوته هو بلا قوة ولا سلطان.

العالية في يدها البطش والجبروت، وسلطان العطاء على الغوغاء، وهم كثرة كالدهماء، يفرحون بالقليل، وينتشون بالتقبيل، وأما الوجهاء فهم على رأيها ومسلكها، كالأكثرية من عِليَة القوم، الذين يؤمنون بها في منفعة واستلذاذًا بالنِّعَم والرخاء، وهم الزعماء وأهل الثقة والقدوة والمثال وعلى ديدنهم الناس يسيرون نحو أشر البلاء.

والسلطان الفاسد بطش شديد، وقهر مهين، وإذلال أو تعتيم وجهالة وتضليل، أو رشوة ومفسدة للذمم واستمالة وتغرير، أو دهاء ماكر وحيل محبوكة ومكايد مدروسة، والعالية اجتمع لديها ما لم يجتمع لغيرها من صنوف السلطة الفاسدة المتمكنة، والجاه العالي والمال الوفير، فلها سلطة التلبيس بالخرافة والتدليس بالأسطورة والوهم على الأفئدة، وسلطة الترهيب في النفوس بالسياط والأعنة، وسلطة الجهل والخطل في العقول بالستائر والأحجية، وسلطة التعنيف والتعذيب في الروع بالتعذيب في الأقبية، ولكن السلطة الغاوية الساحرة للمال بالجشع والاستمالة بالرشاوى والعطايا كانت أقوى السُّلَط وأنفذها نفاذًا في النفوس المتهالكة على الملذات، والفقيه «سي حمو» لا سلطة له غير الحقيقة في إيمان وثقة، وحقيقته بلا سلطان باطل وزندقة وهرطقة، وإيمانه بلا نفوذ وأتباع، فإن صدح بالحق، اتهم بالفتنة وبالخروج عن الجماعة وشق عصا الطاعة لمن تجب طاعتها.

سلك في اقتداء حكيم مسلك الدعاة، وانتقى من القلوب ما تلين وتخشع لذكر الله وتذوب، ومن العقول ما تأنف الخنوع والاسترقاق،

ومن النفوس من فيها فطرة توحيد خابية منسية، فأنعشها بالإفحام والتذكير، واصطفى من الصدور ما لا يكابر عنادًا في حق صدح ولا حقيقة صارخة، ومن العقول ما لم يعمَّها الطمع والجشع، ومن الأرواح المشاغبة، من تقضُّ مضاجعها فطرة غير مشوبة بتنطع، فطفقت مجموعة «**تل الريح**» تتوسع وتتشعب ولو وئيدًا، وأول الملتحقين بعض عمال المنجم بعد جهد جهيد للسوسي، وشباب منهم ذوو عزة ولكنهم مغلوبون، ومنهم متنورون متمردون يحلمون بوطن الحريات، استقطبهم قاسم، وكان محطَّ ثقة الشباب المتنور المشتاق إلى خرائط جديدة للحياة والعقل والأفكار.

وصار الاجتماع واللقاء صعبين وإن لم يغْدُوَا مستحيلَيْن على «تل الريح»، ومحفوفَيْن بالمخاطر الجمَّة في بلدة جُلُّ سكانها جواسيس، وعيون وآذان ومخبرون للعالية باعتداد وفخر غريبَيْن بدون حياء ولا خجل، حتى غدا الأب لا يأتمن ابنه، ولا الابن يأتمن أباه، والزوج يتوجس من زوجه وأهله وخدمه، وبعد معلومة أكيدة من «صوفيا»، حسموا أمرهم إجماعًا أن يعقدوا موعدًا شهريًّا عند «الكابورال» «عزوز» في إحدى ضياع الفرنسيين البعيدة مسافةَ ليلةٍ عن البلدة بالعربة.

و»العريف» السابق أو «الشاف» **عزوز الأخنس**، جندي سابق من معطوبي الحرب، حارب في حروب الهند الصينية ضمن جيوش فرنسا، وفي الجبهات الساخنة الحامية الوطيس، في مواجهة جنود

جحافل هتلر بأوروبا في الحرب العالمية الثانية، ولقب بالأخنس لأنفه المنخفض القصبة مع قلة ارتفاع، وهو كهل خمسيني، في رجله اليمنى عرج خفيف من أثر شظية في انفجار لغم أرضي، بيد أنه ظل قويًّا شديدًا بئيسًا شجاعًا، غليظَ وخشنَ القبضتين، مهيبًا طويل القامة، وجسمه غير سمين، أسمر البشرة، حاد النظرات دون قسوة، يعتمر دومًا كراعي بقر أمريكي قبعة قمحية اللون، باهتة بحواف مسطحة وسترة صيد.

وكان عزوز الأخنس غريبًا عن المنطقة، نزح إليها من بادية «عبدة»، واشتغل حارسًا حيث يقطن أيضًا وزوجته الجبلية زينب وابنتاه زهور ورقية بضيعة شاسعة ممتدة الأطراف، بها بساتين لأشجار التفاح والخوخ والمشمش والكروم ودوالي عنب أسود تستخرج منه أجود الخمور، وأراض تزرع برسيمًا تناوبًا وقمحًا، وبها حظائر للخيول الأصيلة، وزرائب للأبقار وهي في ملكية معمر فرنسي ستيني اسمه «كلود»، ويكنيه أهل المنطقة، بـ «**البلوطة**» لعيب خلقي برأسه، من طول بشع معيب، مع ضيق في قمته، واشتهر بفظاظته وشراسته ومجونه وتهتكه، هذا الستيني الهارف الأجلف، السريع الغضب كان لا يتورَّع في صراخ هستيري عن اللطم والركل والصفع.

يبيع الفرنسي «**كلود**» أهلَ البلدة الفحمَ في أكياس يعرضها عزوز الأخنس بساحة البلدة في أكوام متراكمة، وأخشاب التدفئة المتكدسة في محلات معلومة، مَن عجز عن الشراء اشترى له **الرقاص الملهوف**

باسم العالية التي تحدد السعر وأجل الدين والأداء، ولا يعلم أهل بلدة الغرافين من أين يأتي بها هذا الفرنسي الفظُّ الجافي، وما من غابة قريبة معروفةٍ تحطب، فغابة «الحسك» حرمة لا تُنتهَك، ممنوعة على كل الناس والأنعام، رهبةً وتوقيرًا، لأنها حسب ما تزعم العالية، سكن ومقر للأرواح وأسياد «الرياح»، التي تغضب لكل صوت منشار، أو ضربة فأس، ووقع أقدام، وغضبها نقمة تحبس المطر، وريح تنشر الوباء والعلل، وكساد في البيع والشراء، وضيق في الرواج، وتعطل للذرية والزواج، حتى إنهم إذا ما ظهر أبتر عقيم في بلدتهم اتهموه سرًّا بانتهاك حرمة غابة الحسك، وإذا بارت تجارة تاجر ألصقوا به تهمة خرق المحرم، وإذا انتشر بينهم طاعون فتشوا عمَّن يُحمِّلونه وِزرَ مرضٍ فاشٍ.

يضمر عزوز الأخنس لكلود حقدًا دفينًا وغِلًّا مكينًا، بعد ما حاول اغتصاب زوجته، كوحش كاسر بلا رحمة ولا شفقة ذات ليلة، وهو في سُكْر طافح وعربدة غاشية، وهمَّ بقتله نحرًا وذبحًا، فأجَّل القرار إلى حين مشورة «العالية» وهي عنده صاحبة غيب وبركة، فجاء مغتمًّا مهمومًا، غضوبًا مهزومًا إلى بلدة الغرافين، يطلب الإذن والبركة واليسر والقبول، لتنفيذ المهمة التي تقرُّ بها عيناه ويهدأ لدمها روعه.

فكرت «العالية» بمكر ودهاء وقلبها وهواها يميلان بريح العجم لا بآلام وجراح الناس، وهي أحوج الحاجة إلى الفرنسي كلود في شؤون شتى في الخفاء، وبينهما تجارة الخشب والفحم في السر، فحذرته

تحذيرًا شديدًا من التسرع في الأمر، وانتظار قرار أهل العزم من روح «سيدي الفَرَاش» ولالة أمونة السودانية، وعقدت معه أن ينتظر يومًا وليلة حتى تستشيرهما.

وحين دعته لسماع الفتيا، قالت بلا حركة كالصنم الماثل في سجعها الساحر مما علَّمها الرقاص الملهوف من خطابة وحفَّظها من بيان ملتو: «حلَّ اليوم المزعوم المعهود، وفيه تُحسم العهود وتؤدَّى النذور، وما أوجبه الناس على نفوسهم عهدًا ونذرًا، انتظر ساعة «تفتح الطرود»، وتعقد العهود، وتحل القيود، ويفضح ظالمك في اليوم المعهود»، فحسمت في الأمر قولًا لا فعلًا، بالخديعة لا النصيحة، فارضة لا مخيرة هامسة تحت خبائها المخملي: «لا تقتل الرجل، بقتله سيقتلون زوجتَكَ وابنتيك، اذهب...! ثأرك بيد «سيدي الفراش»، سينتقم لك انتقامًا يبرد غِلَّك وتَقرُّ له عيناك. وانتظر الأخبار ولا تخط خطو الاستهتار بغضبة الشيطان، فتندم ندمًا شديدًا».

يومها وهو قافل إلى أهله، امتطى بغلته الهزيلة امتطاء الغضوب، نخسها بعصا سوطه بعصبية، حتى ركضت ركضًا سريعًا من ألم شديد، فكادت تدوس بحوافرها «سي حمو» وهو يمشي شاردًا على الطريق، مُطرِق الجبين من هَمٍّ جاثم من سوء حال بلدة الغرافين، فتوقف عزوز الأخنس وترجل معتذرًا بحياءٍ، والفقيه عنده معروف مبجَّل، متحججًا بما به، وبما أن الصدرين بهما غمٌّ عارم طافح لا يطاق، جلسا معًا على ناصية الطريق، مختفِيَيْن على الأعين والآذان، ليُنفِّسَا عنهما

الثقل الشديد، وباح عزوز الأخنس الجريح بألمه وجور «كلود»، حتى بكى بكاءً شديدًا من جرح عميق في الروح وشرخ مكين في الكبرياء، فنصحه الفقيه بعد تأمُّل وتدبُّر بالتريث وتحيُّن فرصة الثأر للكرامة، وبانتهاز الفرص وتدبر الأساليب في الرد دون طيش حماسة، ولا بدَّ للقلب المهموم أن يكون مخمومًا، كي لا يَغشَى غِلُّه على العقل فيصير مصدومًا، فيختلط عليه الطيش والشجاعة، وأفحمه في حجة دامغة وكلمة سائغة، أن يصطفَّ في صف الدعوة إلى الحق، وينضم إلى جماعة «تل الريح»، لهزم العالية ومن يواليها من الوحوش، فانشرح الصدر الكليم والقلب الجريح للدعوة، واستقبل عقلُه الحائر بطمأنينة الفكرةَ دون تردد ولا جُبن بهمَّة، فغدا منذ ذلك اليوم واحدًا من رجالات القضية العادلة، قوةً وعزيمةً، وشدةَ إرادةٍ، وحقده على «كلود» والعالية في أغواره أقوى الدوافع والبواعث من فهمٍ عميقٍ للقضية والرجاء الأسميَيْن.

١٨

وكان اللقاء المرتقب ذات ليلة مظلمة عاتمة، داجية غائمة، سترًا لهم من العيون والآذان الفاشية، وغطاء لهم من الرقابة والاقتفاء المدروس، حين غاب «**كلود**» لأمر ما على عجل، ورحل لبلده الأصلي فرنسا، ليقضي ما لا يقضيه غير وجوده الفعلي، وحضوره الشخصي، حسب رواية عزوز الأخنس، وتأكيد قوي للمعلومة من «صوفيا» لقاسم.

أقاموا طقس التعارف السريع، مصافحةً مع الجدد وعناقًا مع القدامى المألوفين، واحتساءً للشاي الدافئ في صمت وجيز، وتبادُلًا للنظرات في ترقب للجديد. بين جدران هذا المخزن الواسع الرحب بلا ترتيب ولا تنظيم، انتشروا قعودًا جلوسًا على ما وُجد وصَلُح، واتكاءً على الحيطان، والمخزن عبارة عن بناية من خرسانة وإسمنت، ما به غير كوة غربية تطل على الخارج في احتشام، تكاد لا تسمح لضوء الشمس حين تضعف بعد الزوال بالعبور، هو بعيد عن البوابة بعشرات الأمتار، ناءٍ في أطراف موغلة من الضيعة، في خميلة متشابكة الأشجار الملتفة الكثيفة، التي تحجب الرؤية من بعيد، وفيه تخزن الحبوب والبذور والأعلاف والأسمدة، وتُحفَظ معدات وآليات الزراعة وتربية المواشي، لهذا كانت روائحه قوية لا تطاق ولا تُحتمل، وقد اختلطت بالرطوبة والعفونة، فاشية في الأجواء مختلطة بالأشياء

خانقة، وهي خليط نتن أيضًا من روائح زيوت مستعملة مهملة منذ زمن، حتى غدت آسنة في قعور براميل حديدية صدئة، يعلوها الغبار وأعشاش العناكب، وتسلقتها أعشاب طفيلية، مما لا يحتاج من النباتات المتوحشة إلى ضوء شمس، أو بلل مطر، بل تحتاج فقط إلى بلل من رطوبة، وزاد من قوة ما لا يطاق من روائح كريهة رائحة «وقود» المحركات، ومتلاقياتها وقطع غياراتها المعطوبة المتسخة المهملة، وما ينبعث من عجلات قديمة متآكلة، وما تنشره بقايا المبيدات الكيماوية السائلة في المرشات والبراميل البلاستيكية، وفي وسط المخزن في غرابة بئر قعيرة بعيدة الغور، مهملة لا تستعمل، يضيع فيها الرجع مخيفًا، ولا يسمع بأثر سقوط حصاة إن هي رُميت من علٍّ، بلا غطاء متهالك الطوق، ولكنهم مضطرون إلى اتخاذه مقرًّا سريًّا، لبُعده عن البلدة، وظلامه كثيف لا يلطفه غير باهت قنديل ضوء في شحوب، يمسخ الأشكال وحوشًا وكائنات غريبة على الجدران.

افتتح الفقيه «سي حمو» الاجتماع، فبسمل وحمد الله ثم صلى على النبي، وشكر الله، فأسهب وأطال حتى ملَّ قاسم وجماعته، فقال في تبرُّم:

- يا أخي...! أهذا تقديم أم خطبة جمعة...؟! ادخل «الله يخليك» «عافاك»... في صلب الموضوع...! أوف...! هل جئتَ تبحث عن منبر فقيه أم رأي وجيه؟!

ابتسم «سي حمو» ثم انقبضت أساريره، وبدا مستاءً غير راضٍ،

فقال في لطف على عادته:

- لو أردتُ منبرًا ما غادرت حاضرة المنابر مدينة فاس العالمة، فلا تُسِئِ الظن يا قاسم...! وكن صبورًا وبين شفتيك زِنِ الكلمةَ بما يليق بالرجال، من حياءٍ لا يفسد للقضية ودًّا، وما صلحت والله خطبة بلا بسملة وحمد وتعوُّذ، ولا بورك جمعٌ كان أفلس الاستهلال، أبتر الاستفتاح، بلا حمد ولا ثناء لله، مما استهل بالصلاة على أشرف المرسلين، وبحمد الله بما يليق به تعالى شأنه ويرضاه، إن كنتُ لا أُلزِمكَ كرهًا وهذا أصل في عقيدتي على قول قولي، ولا فعل فعلي، ونسج كلام على منوالي، فيلزمك أنتَ يا من درستَ على يد الفرنسيين الـمُحتَفِين بالعقل والـمُعلِين من شأن الاختلاف، من أثر فكر عصر التنوير، وما زرعه أمثال فولتير في العقول، أن تحترم في الرأي... وديباجتي لا أسعى فيها لمنافحة خطيب، بل همي الوحيد أن أغدق الجمع بخصب نور الاستهلال الرحيم.

باستغراب يردد قاسم:

- فولتير...! أقلت فولتير...؟!

- أي... نعم فولتير... وجون جاك روسو... وغيرهما... أتظننا في جامعة القرويين بفاس نكتفي بالقديم دون الاطلاع على الجديد، وتجارب الأمم؟ أتظننا منغلقين نجترُّ ما صنَّفه الأولون، كما أستجلي من ثنايا كلامك حين تُلمِّح ولا تُصرِّح من حينٍ

لآخر؟ ستعلم يومًا ما كيف تجد المعادلة العادلة القويمة بين القديم والجديد، بين الأصالة والمعاصرة، في تدبير بالعقول والألباب كما حضَّ على ذلك رب العباد، ونحن أمة عقل وفكر، دون تفريط في فضيلة ولا تحول أعمى في تقليد أغشى، من عيش في اتزان إلى انحلال الغاب والأهواء، اسمع...! إن كنتُ لا أجادلك في أسلوب حديثك، فليسَ لأني صامت في معجز عن تصيُّد زلل في قول وهدر في رأي، أوَتظن أني مُزَيِّنٌ لكَ خَطَلَك، أو تعوزني الحجة للمقارعة والطريقة للمطارحة، لا...! لا...! أنا رجل منهجٍ لا مجاهد على الهوى ولو صدقت النية، ولكل مقام مقال، ونحن في أمس حاجة للرجال الشجعان، لا للجدال في زمن ننأى فيه عما يصدع لُحمة الإخوان من أمتنا المغلوبة على أمرها، وما غُلِبنا إلا لأننا جعلنا من بعضنا بعضًا خصمًا، ونسينا الخصم الحقيقي، أنت شجاع ومن الأشداء على الأعداء، ولا أحد كامل، بيدَ أن فيك من الشجاعة والحماسة ما قد لا نجده عند عابد عالم معتكف، حظه من هذا الفضل وهو حرية الأمة، أقل من حظ من هو على أدنى الفرائض مقيم، لكنه مستعد للموت من أجل الكرامة والحرية، والله ما كنتُ إلا محسنًا بك الظن، أما باقي القضايا الخلافية فيحسم فيها الأمر بعد الحسم مع الشر الكبير.

ساد صمت رهيب، وتبادل الحاضرون النظرات، وظهر لأول مرة

قاسم معزولًا مصدومًا مما سمع، فالتفَّ التفافًا سريعًا، ودنا من الفقيه مبتسمًا، فقبَّل رأسه، وهو يقول معتذرًا:

- سامحني يا أخي...! سامحني...! صدقَتْ صوفيا أنا لا أزن الكلام وعليَّ أن أسوده في عقلي قبل النطق به، والله ما قصدت...

- لا عليك...! ما يشغلنا أعمق مما يجعلنا نبدو مختلفين، أعرف طِيبة نفسك، ونبل خلقك، وهما يشفعان لك عندي دومًا كلما كبا لسانك...

يربت قاسم على كتف الفقيه، وينط وسط الجماعة ويقول وهو يضحك عاليًا:

- يا أخي...! وهل نفلح بدونك وبدون دعواتك...؟! دعواتك لنا يا «سي حمو»...! على الأقل أنت حيٌّ وموجود، ولستَ وهمًا كدفين المغارة...

عندها يحدجه إدريس السوسي بنظرة قاسية، فيردف:

- حاشا أن أنقص من قيمة سيدي الفراش، أقصد سيدي محمد الحاكي السوسي، فهو قاد ثورة بعزم وصدق ضدَّ المحتل، وأنحني لروحه إجلالًا، ولوالدتك يا إدريس السوسي كل التقدير، فقد تحمَّلت ما لا تطيقه النساء، واختارت مع المرحوم الحياةَ الوعرةَ، على العيش في النعيم... لكن لا تقل لي إن ما يقوم به أهل البلدة من تقديس الفراغ، لا يُضحِك ولو في ألَمٍ... ههه...

ويقهقه مغرقًا في الالتفات حوله، متنقلًا بصره بين الوجوه، وكعدوى فشت رغبةُ الضحك في صدور الكل، فشعروا بها غالبةً جامحة، تتمرد على القمع، فضحكوا حتى دمعت العيون، وإدريس السوسي باستغراب يحملق في الوجوه، فغلبه ما غلبهم، فاستلقى على ظهره من شدة الضحك الجارف، وعزوز الأخنس ذاته وهو يحذر من الضجة والضوضاء بالإشارة والإيماءة باليد، غمره ما غمرهم في ذروة الضحك الذي لم تلجمه أصابعه على فمه، ولا قمعه للمشاعر بالحذر.

وحين هدَؤُوا، ومسحوا دمع العيون، قال «سي حمو» منشرح الأسارير طلق الوجه وما زالت في صدره بقية من رغبة جامحة في الضحك يداريها قمعًا وعزمًا:

- منذ زمن بعيد لم أضحك هكذا، لنوضح القضية بلا لبس ولا إشكال، عدونا هي العالية المجرمة، التي أفسدت الناس بالدجل والمال وخرَّبت البيوت بالخرافة، ففسدت العقيدة، وعلينا أن نواجهها بالدعوة للحق وتقوية الأتباع ورصِّ الصفوف، الجهل هو الداء والدعوة هي الدواء.

فبدا قاسم غير مقتنع بالخصم الحقيقي، فقال مستدركًا على حديث «سي حمو» في عصبية:

- نحن... إن سمحتَ يا أخي...! لسنا دعاةً، وهذا دور مُناط بأهله من العلماء والفقهاء في زمن السلم، ونحن في حرب وإن لم تكن معلَنةً، وحتى لو أمضينا العمر في الدعوة، فلن نجد سبيلًا

إلى القلوب، والعقول مُستلَبة بالمال ومستعبَدة بالاستعمار، الاستعمار الظالم الغاشم هو العدو الرئيس، العبودية هي الداء، وبنور الحرية تحرر العقول والقلوب، أما العالية الكاذبة فهي عَرَض من أعراض الاستعباد، وحين نملك البلد نملك قوة التغيير، الظلم لا يُردَع إلا بالقوة.

كان عددهم عشرة رجال، تخلف عنهم زخارى لكي لا يثير الشكوك، والخمارة صارت مصدرًا للخبر، ويتردد عليها الجواسيس والعيون، وغيابه قد يفجر أسئلة عيون العالية وتوجُّسًا وارتيابًا لدى جواسيس العقيد جورج. بين الحاضرين بعيدًا عن الجماعة في ركن المخزن، ظهر رجل يحملق بعينيه، صامت المنطق والشعور، لأول مرة رأوه دون سابق معرفة ولا تقديم، فارتابوا من الرجل الكهل، النحيل الطويل القامة، الشاحب الوجه، الملتحف جلبابًا خفيفًا من كتان رخيص، المنتعل نعلًا من جلد الماعز، ما زال الشعر به عالقًا، تآكل وتغير لونه إلى لون باهت مُتْرَب، بدا مضطربًا يكتنفه الخوف والذعر، إذ لم تغمره الضحكة التي غمرت الجميع، ففجَّر الشك في العقول، عيناه تطرفان بسرعة رمش على جفن من توجس ظاهر مريب، نظر إليه إدريس السوسي نظرةً ثاقبةً، تفرَّس فيه وهو يمشي وئيدًا متمهِّلا، وكأنه لم يره من قبلُ، دنا منه حتى غدا أقرب إلى حبل وريده، يسمع دقات قلبه المتسارعة، وأنفاسه المتلاحقة، وهو يفرك ذقنه، فارتعب الرجل، وغدت عيناه تدوران في رأسه، وتقلص عنقه، وهو يغوص في

جسمه ويكدس بدنه، سأله إدريس السوسي ونظره على وجهه:

- من أنت...؟

ارتعب الرجل الذي كان يغطي رأسَه بغطاء جلبابه، ونظر حوله، ثم استنجد بـ «سي حمو» محملقًا فيه، فأخرجه الفقيه من هلعه قائلًا مبتسمًا:

- يا إدريس السوسي...! هذا «**رحو**»...

استغرق الجميع في التفكير، محاولين التعرف على الرجل، فانتفض قاسم مزمجرًا:

- رحو...! رحو...! معلم الصبيان الدَّاعِر، دجال النسوان الذي كان في دار العالية، وعاش في كنفها، يفتي ويرفع الدعاء لها والثناء.

فهمَّ قافزًا نحوه محاولًا أن يسحق عنقه، فارتعدت فرائص «رحو»، واصطكت ركبتاه، وصرخ وهو يغطي جسدَه بيدين مرتعشتين:

- والله...! كنتُ مرغمًا... وتبت...

يمنع «سي حمو» قاسمًا مطوقًا دون شِدة إياه بيديه من خصره حتى هدأ، فأفلته برفق وهو يقول مطمئنًا الجميع:

- الرجل تاب يا عباد الله...! وقد طردته الكذابة يوم سأله سائل على الطريق: «هل الذبيحة على عتبة المغارة حلال؟» فقال: إنها حرام إن ذكر عليها اسم غير اسم الله»، فوصل الخبر إليها،

فطردته وحرَّمت عليه مجلسها، وكانت وعدَتْه بفتح جامع يكون هو إمامَه، فأغوته بما لا تنوي فعله، فانطلت عليه مكيدتها، فصار يُفتي لها بما يُرضي نوازلها، ويلوي عنق النصوص ليُرضي أهواءها، وهو حافظ للقرآن الكريم، وله يسير من الحديث الشريف، لكنه ضعُفَ أمام العطاء والدَّعَة، وما لذَّ من الشراب والأكل... وهو تائب الآن فارحموه...! ولو رددناه اليوم ورفضناه ما جاءنا أحد تائب غيرُه من أعوانها، ولَقَنَط الناس من رحمة الله، وظلوا في حِلفها وقد يئسوا من مغفرة الله، و«**رحو**» يعرف دار العالية شبرًا شبرًا، ورجالها وعاداتها داخل الدار، وهو إحدى علب أسرارها، وما أَتَيْتُ به إلا لنفعٍ رأيتُه فيه.

يلوي إدريس السوسي شفتيه، ويحدج «رحو» بنظرات قاسية ويقول متقهقرًا مبتعدًا:

- أنت الذي كنت تقول: إن العالية رحمةٌ من الله، يأتيها العلم والخبر والشفاء عبر رَوْحَيِ الوليَّيْن الشهيدَيْن سيدي الفراش ولالة أمونة السودانية، وفتشت عن الدليل في حديث ضعيف، أو قصة مدسوسة في كتب الأولياء، حتى تُدلِّس على الناس، من جهةٍ الرقاص الملهوفيصطنع الملاحم والكرامات، وأنتَ تجد لهما الدليلَ المغشوش.

في ذهول مصدومًا يرد «رحو» وهو مكوَّر الجسد:

- كنت مخطئًا، أغوتني بالمال والعطاء، فابتدعتُ لها الفتوى على

مقاس الحاجة والطلب، والدليل على حسب الدعوى والكرامة المعلنة.

يرد عليه إدريس السوسي بغضب:

- يا لئيم...!

يحاول قاسم من جديد أن يركله وهو يردد:

- وما الذي أتى بك الليلة؟

يحبط «سي حمو» محاولة ركل الرجل ويعترضها بيديه، حتى آلمته، ويقول بحنو:

- آه...! دعه...! الرجل اعترف بخطئه وتاب، انتهى الأمر وأنا أحضرته ليكون واحدًا منَّا... دعه...! فهو في استجارة مني.

بقلق وامتعاض يصيح قاسم:

- أيُّ جِوار واستجارةٍ هذان يا فقيه...؟! أتظننا في زمن الخيام والمضارب والغزوات؟!

- احفظ لسانك يا قاسم...! والاستجارة حَقن للدماء، ومهلة لتلطيف الأجواء، وجمح الغضب من الأهواء، وحق ثابت للضعيف المستغيث، ولو كان زعيمًا عند قومه، فبطلب الاستجارة صار ضعيفًا، وهي حقٌّ وواجب وعُرف في البلدة والأمصار لا ينكره غير لئيم، لم يبقَ في دمه من شِيَم جدنا «الغرافين» غير زبد الانتماء، ولو تعلق الأمر بالخيام، فسل أباك تعلم، أننا كنا لزمن

بعيد نسكن أبأس المساكن من أكواخ بئيسة، أو كهوف شاهقة، وفينا الحداد والنَّبَّاذ، وكنا لا نجيد حتى الزراعة والحلب، وقد علمتَ صنعةَ جدك الأكبر، والذي كان بيته من كثرة الترحال الصهوة الصلبة، ويستجير بلا سؤال، ويحمي كل مستغيث، ومات موتة الرجال، من أجل الكرامة والأنفة، وما ترك لنا من مال ولا جاه، غير جاه البطولة والشجاعة.

بدا قاسم مضطربًا وقال وهو يذرع جيئةً وذهابًا الفضاء بقلق:

- يا فقيه...! كلامك «على عيني وراسي»، لكن لا يمكن بناء دولة حديثة، تحتكم إلى القانون والمساواة، بقاموس الأعراف العتيق، لا يمكن تطبيق عُرف استجارةِ مَن طلب استجارةً في مجتمع الحقوق والواجبات، إن كان مطلوبًا في دم أو فساد أو خيانة أو سرقة رجاءً افهمني... ليس كل ما كان هو الأكمل والأتم، كل زمن يستدعي اجتهادًا في النظم والقوانين، بما يخدم المجتمع والجماعة، يا «سي حمو»...! العلائق في الدولة الحديثة، علائق تعاقد على مبدأ المواطنة.

- أفهم...! لكن أنت عمَّمت ما خصصتُ أنا، فالنازلة خاصة، واستجارة «**رحو**» بي، لا تعني تعطيلَ قانون أو إجهاض حقوق، إنها حماية له من جور ناجم عن غضب متسرع، ومن محاكمة لا تتوفر فيها شروط العدل، أرأيت أنني رجلُ منهجٍ، لا يُنكر مبادئ الدولة الحديثة، لكن لا أفرط بقيم الأصول التّليدة، كالشهامة

واستجارة المظلوم، وإغاثة المستغيث، وإكرامٍ مع تواضع...؟!

فلا تعمم، فالنازلة خاصة، ولا داعِيَ لربطها بخيمة أو نكسة في تاريخ، وإن كانت الخيمة رمزَ عزتنا وخصوصيتنا.

ينقل «عزوز الأخنس» مضطربًا نظراته بين الوجوه، ثم يحك أرنبة أنفه ويقول وهو ممتعض:

- «الله يخليكم... بلا كلام كبير»، «راني ما فهمت والو»... لن نُمضي الوقتَ كله في الكلام والهَذَر، أنا والله ما فهمت غير شيء واحد... «الفرنساويون» عليهم مغادرة البلد، وهم لن يفعلوا ذلك حتمًا بالكلام وبدون مقاومةٍ وقوةٍ، والعالية لا تسقط قبل خروج فرنسا... أما رحو... فاتركوه...! فالله يغفر، فما بالك بعبده...

يداعب «رحو» لحيته، وقد انشرحت أساريره لانشغال الجميع عنه بأحاديث جانبية، يمد رجليه متأوِّهًا، ثم يلتقط حبات اللوز من الصحن وهو يقول ماضغًا:

- كلامك يا عزوز واضح، والله إنك «كابورال» بحق وحقيقة... لكن ما معنى كابورال؟!

ينتشي **عزوز الأخنس** بالإطراء والمديح، ويبدو عليه ذلك من تعابير وجهه الذي انفرجت أساريره، فيقول بزهو واعتداد:

- «الكابورال» هي رتبة عسكرية حصلت عليها في الجيش، سأدخل البيت لأحضر لكم النياشين لتروها بأعينكم.

فاستقام في خفَّة واقفًا، فجره إدريس السوسي من تلابيبه بقوة حتى أوشك أن يسقطه أرضًا، وقال له مزمجرًا:

- اجلس...! لا نشكُّ في الأمر... لم نأتِ لهذا... وأنت يا رحو اللئيم...! لا تلعب لعبتك معنا، فتظن أنك بالإطراء ستصير منَّا، وبالثناء سنمنحك مكانةً غير التي تستحقها...

تهالك عزوز على الأرض وهو يجلس مغتاظًا مغمغمًا:

- حاضر...! المرة القادمة... سأريكم نياشيني...

أما «رحو» فلزم الصمت، وظلت عيناه الخائفتان اللتان ترمشان بسرعة، تفضحان ضعف شخصية، ولؤم نفس، وتلهَّى مرة ثانية في غمس لُقَم من الخبز في صحن عسل، ثم قال قاسم بثقة:

- الليلةَ ليلة الحسم، يلزمنا السلاح والعزم، الضربات المستهدَفة والدقيقة، ضرب مصالح فرنسا وإرباكها، هي البداية، أما أنت يا إدريس السوسي فعليك بإشعال النار مع مجموعة العمال في المنجم...

والتفت إليه «سي حمو» مندهشًا:

- يا قاسم...! هذا تسريع خطير للأحداث، لنفضح العالية أولًا، لنقطع لجورج يدًا من يديه... هل أنت معي يا إدريس السوسي؟

يرد عليه متحمسًا:

- كانت في البداية قضيتي هي تحرير سمعة والدي، والآن القضية أكبر من اسم... في أقرب وقت علينا أن نعلن للناس الحقيقة وليكن ما يكون...

يهز «سي حمو» رأسه متفقًا معه:

- لنفضح اللئيمة علنًا...! لنفضحها... ثم نلجأ للسلاح...

التقف عزوز الأخنس الكلمة بسرعة وقال بفخر واعتداد بالنفس وهو يضرب صدره براحة يده اليمنى:

- السلاح...؟! آه... آه...! وأخيرًا سيكون لك دور يا عزوز... ستكون مهمتي التدريب على استعماله، فقد حاربت في «**لاندوشين**» أي الهند الصينية وفرنسا.

سمعوا حثيث خطوات، فلزموا الصمت، فغدا الحثيث دبيبًا قُرب كوَّة في المخزن، استرق عزوز الأخنس النظر من شقٍّ على الباب، وركب الجميعَ القلقُ والحذرُ، إلا «رحو» فقد غلبه هلع طافح وخوف جارف، حتى انتقع لهُمَا لونُ وجهه، وتسارعت نبضات قلبه وأنفاسه، فشخص ببصره، وتملكته غصة من بقية طعام في الحلق، منعه خوفه من بلعه، فسعل حتى دمعت عيناه، وبلل ملابسه، وإدريس السوسي ينظر إليه بغضب ويهمس:

- فضحتنا يا جبان...! اصمت يا ابن الكلب...!

راودت رحو فكرة عابرة، الهروب والاختفاء من العيون، لولا أن باب المخزن كان مقفلًا والمفتاح عند عزوز الأخنس الذي ما زال يراقب من الشق وقد تسلَّح بهراوة، مما أثار استغراب «سي حمو» وقال متسائلًا:

- لمَ الهراوة؟!

يأتيه الجواب من قاسم وباقي الرفاق الذين تسلحوا بما وجدوا في المخزن من عصي وأدوات قائلًا بصوت خفيض:

- ماذا تنتظر منا؟! هل نفتح له الأحضان مرحبين؟! الصاع بالصاعين...

يرمق عزوز الأخنس «سي حمو» بنظرة خاطفة لكن قاسية ويؤيد قاسمًا بصوت هامس:

- ش... ش... الكلب «كلود» دائمًا مُسلَّح، لو كشف أمرنا فسيطلق علينا النار بلا تردد ولا شفقة، علينا أن نكون السباقين...

لم ير عزوز غير ظل شخص يسبقه ضوء قنديل يتأرجح، فحضَّ الجميع على الهدوء والصمت والترقب، يرتفع نباح الكلاب عاليًا ويتناوب على شق الصمت صرير الجداجد والصراصير، ونقيق الضفادع، وحمحمة الخيول في الحظيرة، فيرهفون السمع، تلتقط آذانهم دبيب الخطوات، يمعنون في الصمت، ثم ينتظرون.

طرق خفيف على الباب، صوت خافت من كوة ضيقة:

- عزوز...! وا...عزوز...!

تنفرج أساريرهم، ويهدؤون وهو يقول مطمئنًا الجميع:

- لا تخافوا...! هذه فقط زوجتي، ربما أحضرت الطعام.

يدنو من الكوة ويقول بصوت خافت:

- ما الأمر؟ قلتُ لكِ مرارًا ألا تخرجي... ألم أحذركِ؟! كنت سآتي بنفسي لإحضار الطعام...

هدأ الجميع، إلا «رحو» الذي ظل مرتبكًا لكن اضطرابه لم يمنعه من طحن حبات اللوز رغم أنه كان أقضم، متكسرة أطراف أسنانه، ولم يخجله البلل في ثيابه.

تُردف زينب بوجلٍ وقد اضطرب فيها الصوت حتى تكاد تشعر بها ترتعش خوفًا:

- الكلب كلود هنا.

- أين؟

- في حظيرة الخيول... وهو ثمل.

- عودي للبيت بسرعة!

- حاضر!

فشا بينهم الاضطراب الشديد من جديد، وتباينت ردود الأفعال والقسمات والتعابير والملامح، حتى اصطكَّتْ ركبتا رحو من جديد وارتجفت شفتاه، فعزف عن الطعام وهو يحملق في الوجوه في ذعر، بينما عزوز الأخنس ظهر غاضبًا في رباطة جأش، والعينان في شرارة حنق تتوعدان وتتربصان، وطفق «سي حمو» يردد في خشوع دونما خوف: «يا لطيف... يا لطيف...» ليَرُدَّ شرَّ القدر بخير القدر، متمتمًا بالدعاء بصبر وثبات، بينما إدريس السوسي بدا هادئًا متأهبًا، يراقب بتوجُّس وحذر، أما قاسم فقد انتابته حماسة طافحة، وبرقت عيناه بريق عزم شديد، وتبادل النظرات مع بعض العمال والشباب، وهم يبتسمون، ويضربون العصي على أكفهم، كأنهم في إحماء.

أطفَؤُوا القنديل وأرهفوا السمع، وكل في حال من أحواله، دون حسٍّ ولا حركة ولا أدنى همسة، حتى سمعوا خفقان قلوبهم وتسارع أنفاسهم، ثم فجأةً تعالى صراخ زوجة عزوز الأخنس في الأجواء وهي تولول بفزع وألم جليَّيْن من حدة نبرة الصراخ، فلم يتمالكوا أعصابهم ومرقوا نحوها باندفاع كالسهام الطائشة حفاةً بجَلَبة، حتى اضطرب عزوز الأخنس وهو يفتح الباب بالمفتاح الذي ضل عن عين القفل من ارتباك يده، فاندفع بقوة إدريس السوسي وهشم الباب، ووثب وثبًا قاسمٌ كالنمر الهائج، فهرعوا وثبًا وركضًا، حتى كبا رحو على العتبة وداسته الأقدام وهو ينتحب.

ذُهِلوا ودُهِشوا مما رأت عيونهم القلقة من فعل شنيع ومشهد مريع، يهز المشاعر، ويفطر القلوب، وتسحب لأجله السيوف من الأغماد، والخناجر من الأجربة، وتلقم له البندقيات بالرصاص الحارق، كان صاحب الضيعة «كلود» برعونة وجهالة وبطش وخشونة، وثمالة طافحة وفظاظة، مترنحًا بجسمه السمين مستلقيًا على جسم الزوجة الهزيل الضعيف، حتى ضاقت أنفاسها وجحظت عيناها، وهو بقوة وشدة، يقمع الصوت المستغيث بيدٍ على الفم المرتعشة شفتاه، وهي تترنح وتهتز ترنُّح الديك الذبيح، فطار عقل إدريس السوسي قبل الآخرين، فركله حتى أوجعه، ثم لكمه، وبصق على وجهه وسبَّه سبًّا بذيئًا، وضربه قاسم ضربًا قويًّا بحذائه حتى جعله يتقيأ، فأغمي عليه.

بعد لحظات استفاق من دَوَّخَ البلاد والعباد وانتبه إلى عددهم، فامتدت يده إلى مسدس في جراب على حزامه، فانهال عليه عزوز الأخنس بحجر كبير فهشم جمجمته وهو يردد باضطرابٍ وغضبٍ جارفَيْن: «مت أيها الوغد...! مت أيها النذل الحقير...»! فخرَّ صريعًا مضرجًا بدمائه، يترنح ويهتز كمن به رجف أو صرع، وانتفض انتفاضةً قوية، تقلص فتمدد وتمطى الجسد وارتعش ثم اهتز من بقية رمق حياة، وهدأ هدوء الموت الشنيع، والعينان شاخصتان بجحوظٍ تؤرخان لفزع وهلع شديدين في الرمق الأخير.

انتصبت زوجة الأخنس زينب واقفة، في مشقة وهلع، وما زالت في رعشة واضطراب واصطكاك الأسنان والركبتين، ولم تتوقف في ألم شديد عن البكاء والنحيط، وغطت شعرها وقد نكشته يدا المغتصب الغاشم، فغدا أشعث، وسحبت الملاءة على الجسم الواهن لتستر ما ظهر منه بتمزُّق الثياب التي غدت كالخرق، وتكوَّمت تحت شجرة في ذعر باكيةً منتحبةً.

هرع إليها قاسم مواسيًا في عزاء وحنو مهدِّئًا مِن رَوْعها، بينما صمت وقبع الآخرون في أماكنهم كأن الطير على هاماتهم، بين مرتبك في ذهول وحائر في شرود وخائف في تردد، وبغضب وحقد، عرج عزوز الأخنس في خفة حركة على غرفة مضخة الماء، وأحضر قارورة بنزين، وعزم على حرق الجثة، فصرخ في وجهه «سي حمو» مستنكرًا بغضب واستياء:

- ماذا تفعل...؟! أتنكل به؟!! لا تفعل...! هذا حرام في الدين، لا تنكيل ولا تمثيل... لا يُعذِّب بالنار إلا الواحد القهار.

فانتزع منه إدريس السوسي القارورة وقال بحنق:

- لسنا همجًا.

وطفق «سي حمو»، يرُجُّ كلَّ واحد فيهم رجًّا من تلابيبهم، ليستعيدوا الهدوء، وينزعوا عنهم غشاوة الذهول وهو يردد:

- الرجوع لله يا رجال...! وقع ما وقع، علينا أن نفكر في حلٍّ الآن.

نظر رحو إليه بفزع شديد وجبن بيِّنٍ وقال مضطربًا وهو يلطم خديه لطم النسوان:

- سيقتلوننا... سنُعدَم... ماذا فعلتم...؟!

ثم طفق ينتحب هلعًا بكاء الثكالى، ويلطم فخذيه، وعلى حين غرة منهم، أطلق ساقيه للرياح وهو يصرخ كالمجنون:

- لست معكم... لست قاتلًا.

لحق به قاسم وكان وثَّابًا عدَّاءً، فقفز عليه واثبًا حتى شلَّ حركته، ثم عاد به إليهم، فقال عزوز الأخنس بغضب:

- سأقتل الجبان وأُلحقه بالكلب «كلود».

لكن «سي حمو» بهدوء ورزانة، عاد ليشدَّ بعنان الأهواء ويلجم غضب النفوس واضطراب العقول، فقال بعزم القول وحسم التردد:

- يبدو أن الخوف تسلل إلى قلوب بعضكم، والذهول تملك

الآخرين حتى أعماهم وسد منافذ تفكيرهم، لعنة الله على الشيطان الرجيم، والآن صلوا على الحبيب المصطفى.

فصلى الجميع وأوفوا الصلاة والسلام بصوت عالٍ إلا قاسمًا حرك فقط شفتيه مما أثار حفيظة سي حمو الذي رمقه بنظرة قاسية وأردف وهو يذرع المكان يمنة ويسرة متأمِّلًا:

- لكل مشكلة حل، هذا الرجل كان يستحق القتل، والآن لنعرف هل جاء وحده ونقرر في أمر الجثة...

أكدت لهم زينب زوجة عزوز الأخنس يقينًا لا يشوبه شك وقد كانت ترصد تحركات كلود منذ ركن السيارة قرب الحظيرة، أنه جاء وحده ولم تر أحدًا يرافقه أو ينزل من السيارة.

يتفرَّس «سي حمو» في الوجوه لحظةً، ثم يلقي على زوجة عزوز الأخنس نظرةً ويقول لها بنبرة قوية:

- اذهبي لدارك...! لا تفتحي الباب لأحدٍ حتى يعود عزوز.

تخطو زينب خطوًا وئيدًا، يخيم على وجهها الحزن والقلق والخوف من المصير والمآل، كان بها ألم شديد في الجسم من أثر الصراع المرير مع كلود الذي تجرَّأ على تكرار فعلته السابقة.

يقول إدريس السوسي وهو يسوي قبعته الأيرلندية:

- هل من أحد يجيد السياقة؟

استرجع عزوز كبرياءه المسفوح بعد ما أراق دم «كلود»، فنفس

عن صدره الألم الذي جثم منذ شهور وأنقض ظهرَه، وهدأت بعد اضطراب عوالج الروح، وقال باعتداد بالنفس غير مشوب بغطرسة جوفاء:

- أنا... تعلمتها في الخدمة في صفوف الجيش... الفيلق ١٢٨.

يرمقه إدريس السوسي باستياء جلي من حدة نظر وتقطيب جبين، ويرد عليه بقسوة:

- لا يهمنا رقم الفيلق يا عزوز...يا أخنس...! أوف... من هذه الليلة الخرقاء...!

ويردف وهو يشيع الكلَّ بنظرات قاسية بعزم وشدة:

- اسمعوا...! كلنا شركاء الآن في الأمر، ليس أمامنا إلا أن نتخلص من الجثة ونختفي إلى حين، وأنت يا رحو...! اسمع ما أقول و«ضعه حلقةً في أذنك» إن نطقتَ بكلمةٍ واحدةٍ وصلك ردُّنَا خنجرًا في الصدر أو رصاصة هنا بين العينين، هل أنت معنا...؟ تكلم!

مرتجفًا بجُبن، وبنظرات زائغة خوفًا يرد رحو وهو يطقطق أصابعه:

- معكم... والله...! صدقوني...! والكعبة الشريفة.

يغضب «سي حمو» لقسم رحو، فينهره نهرًا شديدًا ممتعضًا قائلًا:

- احلف بالله أو اصمت، لستَ جبانًا فحسب، بل أنت جاهل أيضًا، كيف كنا سنأتمنك على تعليم الصبيان في الكُتَّاب...؟!

يحدجه قاسم بقلق وحنق ويرد عليه بشدة:

- أهذا وقت الوعظ يا أخي...! يقسم بما يشاء، المهم أن نوقن صدقَه بالوفاء، وليس أمامنا سوى أن نصدق هذا الوغد الجبان.

بعد تفكير وتقليب للأمور، يقول قاسم:

- نضع الجثة في السيارة ثم نرمي بها من أعلى جبل، فتشتعل النيران، وتحترق وتتفحم الجثة، فلا يشك أحد ولا ترتاب السلطة و«الفرنسيس» في كون الحقير مات ثملًا في حادثة.

انطلقوا مُجمعين على التنفيذ، إلا «رحو» طلب في بكاءٍ أن يعفوه مما تبقَّى من المهمة، وأن يسمحوا له بالعودة، فسمحوا له بعد جدالٍ ساخنٍ، إذ رفض قاسم وإدريس السوسي في البداية، لكنهما لانا بعد إصرار «سي حمو» وبقية الشباب والرجال، وكلَّفوا قاسمًا بمرافقته، وقبل أن ينطلقا همس إدريس السوسي في أذن قاسم:

- استدرجه في الكلام، واجعله في بوح سلس لا يشعر فيه بفضولك أو توجُّسِك، فجر ما في القلب والعقل، جَارِ الجبان حتى تفهم منه عزمَه وجهةَ هبوب ريحه، فإن ظهر لك منه ما يريب أو يدل على جُبن يفشي به سر الليلة، فاقتله بلا رحمة وارم بجثته في جب أرض «العزيب» المهجور... قُرب عين «المغدور».

هوت السيارة من علٍّ، وهي تتدحرج بصخبٍ شقَّ سكون الليلة الموحشة، على السفح إلى أن استقرت على شفا منحدر دون أن تنفجر، ثم عادت لتتدحرج مع هبوب ريح، فأكملت الطريق، فانقلبت مرارًا،

حتى رست على سقفها ولم تحترق، فشعروا بالخيبة، وعزموا على إشعال النار فيها بأنفسهم. نزل إدريس السوسي الجبل بحذر من الهوام وفي مشقة وسط العتمة، وهو ينعطف عن المطبات، لكن قبل أن يصل إلى الوادي انفجرت في دوي مدمدم.

لفَّهم لفًّا معتمًا ساترًا الغبش وهم ينسحبون كالظلال، بلا أثر ولا أدنى عين شاهدة، أو أذن سامعة، اختفوا في هرولة دون ضجَّة، مندسين بين الأحراج والحشائش، ثم تفرقوا فرادى.

استدرج قاسم بدهاء «رحو» في الحديث، وهما على الطريق، حتى علم منه نية الغدر والوشاية، فادعى قاسم نفسه أنه خائف مما حدث، ولا يجد مخرجًا من المشكلة غير التبليغ ليبرِّئ ذمتَه من دم الرجل، فما كان من رحو إلا أن باح له أنه هو نفسه عزم على الوشاية وإخبار القائد الشراجي بالأمر ليُفلت بجلده من المصيبة.

واقترح قاسم عليه تغيير الطريق المعتادة، وكان فطِنًا ذكيًّا وهو يجاريه ويطمئِنه بالكلام الجميل والتحفيز والمديح، ويُحفِّزُه ويطمئنه بذم إدريس السوسي وعزوز و«سي حمو»، متحينًا الفرصةَ للانقضاض، فقبل رحو في غباء وقلَّة عقل العبور صحبتَه عبر «أرض العزيب» التي رغم وحشتها وكثرة أحراجها ودغلها ورهبة عين المغدور المشؤومة التي تنبع من صخورها والتي لا يستسقي منها أحد، منذ هلك رضوان على صخرتها الذي وشى كذبًا وطمعًا في المال والزوجة، بالراقي زوج العالية فاختلط دمه بمائها، فمنعتها العالية عن الناس مروِّجة «أن ماءها

غدا لعنةً، ما استسقى منه أحد إلا مات قبل أن يعطش مرة أخرى، وما اغتسل بمائها أحد إلا هلك قبل أن تطلع شمس اليوم الجديد»؛ فخاف الناس وصدَّقوا ورغبوا عنها توجُّسًا وجهالةً وغباءً، وهي في أطراف بلدة الغرافين، فغدت في خفاء مصدر ماء تمتدُّ إليه قنوات أراضي المعمرين، يضخون منها ما يسقون به الأراضي والشجر ويشربون في البيوت، وغدا الجانب الخفي من غابة الحسك، ورشةً لمعمر حطاب، يقطع الأشجار بالآليات، ويُصدِّرها خشبًا غالي الأثمان، والبلدة غافلةٌ تظن أن الغابة مسكونة، وترغب عن حطبها في الصر وتشتري أحيانًا خشبًا للدفء من شجرها وهي جاهلة بمصدره.

استدرجه قاسم إلى أرض «العزيب» الموحشة، المخيفة، التي ترتجف وترتعش القلوب عند المرور بها، وفي أجوائها هلع وفزع من اختلاط الأصوات المفزعة التي تصطك لها الركب والأسنان وتشيب لها رؤوس الولدان، خوفًا ووجلًا شديدَيْن، من نعيق الغربان، ونقيق الضفادع ونصيص وفشيش الأفاعي، ووعوعة الكلاب المتوحشة، ورغاء الضباع الجائعة.

وعند الجب المهجورة، تأخر قاسم عن رحو خطوة أو خطوتين، وباغته بضربة قوية بحجر قوي ثقيل، هشم رأسه حتى تطاير مخه، ورماه في غياهب الجب، ثم اندسَّ في الظلمة عائدًا إلى البلدة.

١٩

كانت الشمس تنحدر محتضرةً بوجوم ووهن ونزيف كُلُوم، وراء الجبلين الحزينين الشاهدين في رهبةٍ يوميةٍ على هذا الأفول الحزين العَزوم، وهي تتعلق بالوجود إلى آخر لحظة، مصيرها هو نفسه عند كل موعد، دون أن يكلَّ الزمن من دورةٍ مملَّة قاتلة، تشيعها في مخاضها القرنفلي، أسراب الطيور المحلِّقة في الأفق الدامي، نحو وكناتها وأعشاشها في الغابات والأحراج والشروخ والمخابئ بأصواتها الحادة المتنوعة، وغثاء وخوار القطعان وهي تنحدر على السفوح عائدةً إلى الحظائر.

في هذه الأجواء التي تعتصر فيها الشمس لتُخرج آخر رمق من الضوء، لفت انتباه السابلة والناس عامة انكباب «الذئب» وثلَّة من رجاله، فيهم نجارون معروفون، في تشييد شيء ما بالخشب والأعمدة في ساحة البلدة، لم تظهر معالمه بعدُ، بدا في البداية أنه منصَّة، تَحلَّقَ بعضُ الفضوليين، ومنهم من مدُّوا يد العون لهم في محاباةٍ للذئب، حاملين الأعمدة على الأكتاف بفرح.

فشا الخبر في البلدة حين اكتمل البناء وظهر أنه منصة إعدام، فاجتمع جمع كثير من الحشود في فضول لمعرفة ما يقع، وقلق مما يجهلون، لكنه شغل العقول، وأربك النفوس، كان بين الجمهور **قاسم** و«**سي حمو**»

ينظران بتوجُّس وترقُّب ظاهرين في النظرات الحائرة الزائغة، وقد توقَّعَا أمرًا فظيعًا، وحدسَا حدثًا شنيعًا، هرع زخارى رفقة السوسي خارجين في عجلة من الخمارة، وحاولا هما أيضًا معرفة الخبر من أحد، فلم يجدا مَن يمدُّهما بأدنى معلومة.

بعد اكتمال البناء الخشبي، صعد «**الذئب**» المنصةَ، وغدا يهتزُّ فوقهَا مزهوًّا ومعجَبًا بنفسه، ضاحكًا في لذَّة من حقد دفين بَيِّن من تعابير الوجه الهازئة، مختبِرًا صلابتَها وقوَّتَها برَجَّاتٍ قوية وضربات شديدة بقدمَيْه، وعقد حبلًا غليظًا على عمود أفقي صلب متين يمتد عاليًا وسط المنصة، وجرَّبه بعقده عقدة محكمة مفتوحة حول عنقه، وقاس المسافة بين قدميه وصندوق على الأرضية الخشبية، وهو يضحك من نشوة سارية كالخمر في العروق، ثم نزل وصاح: «أيها الناس...! يا أهل بلدة الغرافين...! غدًا سيتم فجرًا إعدام عزوز الأخنس شنقًا... قتل «فرنساويًّا»، قتل الكلب عزوز الأخنس سيده وربَّ نعمته «كلود»، الذي كان يزودكم بالخشب والفحم، وأعرف أنكم تسمُّونه «البلوطة»، وليكن... لقد قتله المجرم الجاحد الناكر للجميل من أجل سرقته، ورمى بسيارته من أعلى الجبل، الأحمق، ظن أن النار ستخفي جريمته، أراد اللعب مع الكبار، والكبار يحلون كل الألغاز، ومن أراد أن يشهد الأمر فليحضر قبل الشروق... وهذا هو عقاب من يتطاول على أسياده، وينسى مقامه ويتطاول على الكبار، وسيكون درسًا لكل أحمق حاول... نعم حاول فقط المرة القادمة الإساءة «للفرنساويين»

وخدامهم ورجالهم... لم يعد السيد العقيد «جورج» يحتمل حماقاتكم، وها هو واحد من الكلاب قَتَل سيده، وكان يطعمه ويستره من البرد والحر، لبس ملابسه وطعم أشهى الطعام من مطبخه هو وزوجته الكلبة الجرباء وجِروتاه، أنتم... أنتم... والله...! لا خير فيكم، ولا يربيكم غير هذا السوط والشنق...».

ينزل «**الذئب**» من المنصة محاطًا بالرجال الأشداء، يمشي بخيلاء بينهم ويتهالك في مشيته متبخترًا، وعيناه تتقاطعان وعيني «سي حمو»، فيخفض النظر منشغلًا بما يقع حواليه من بوادر شَغَب، وقد وجد صعوبة في إيجاد فسحة بين الحشود الهائجة للمرور، والأفئدةُ تملَّكها الخوف والحذر، وهاجت النفوس حزنًا، وجاشت الصدور غيظًا، وهم يعرفون عزوز الأعرج أو الأخنس الطيب البعيد الأذى، المدمن في شغف على سرد حياته العسكرية، اليد اليمنى لكلود البلوطة، وكان الوسيط اللين بينهم وبين «الفرنساوي» الجلف البذيء الفاحش المنطق، في تجارة الخشب والفحم، وهو زوج الجبلية الحاذقة الماهرة في صنعة الطرز والطهو، وقد كانت خياطة ماهرة مطلوبة، تطرز للعرائس الملابس والمناديل، ويقصدونها كلما دعت الحاجة إلى ضيعة كلود، رغم بُعدها المرهق عن البلدة، وكم أثْنَوْا كثيرًا على طهوها وهوسها بالنظافة والتنظيم، وقد شغلهم مصيرها والبنتين أكثر من مصير عزوز الأخنس، فماذا سيصرن بعده؟!

لم تتبدَّد كل الجموع، بل هناك من بات قرب المنصة، وعند الفجر،

هب نسيم يسري في النفوس طريًّا، ثم هاجت ريح خاطفة، كادت تعصف بالمنصة، لكنها هدأت، كأنها تعلن أن الخريف في عنفوانه طرق الباب بقوة أوائل شهر أكتوبر، وأعلن زمنه إن كانوا ساهين عنه، فارتفع هدير شاحنة عسكرية، والتفتت العيون نحوها، حتى إذا ما توقفت، نزل الجنود مدججين بالبندقيات، وأنزل اثنان منهم بالقوة والفظاظة «عزوز الأخنس» في بدلة بيضاء موحَّدة الطراز، مخططة بخطوط عمودية سوداء مكبل القدمين بالسلاسل الغليظة الثقيلة، يجرها جرًّا فتُجَلجِل، ومقيَّد المعصمين بحبل متين، نظر إلى الجموع وهو مبتسم، أراد أن يلوح فما استطاع والقيد يعيق الحركة، رفع وجهه قليلًا وهو يستنشق عبق التراب من بلل الطلِّ، ويملأ صدره بنسيم أتى حاملًا كل روائح الجبل والغاب، من عَبَق شيحٍ وزعترٍ ونعناعٍ، فحثَّه الجنديان زجرًا ونخسًا قويًّا بنَصْلي البندقيتين على السير، فمشى بتثاقُل يجرُّ الحديدَ والحديدُ يجرُّه، وعَرَجُه الخفيفُ زاد من مِحنتِه، واختلطت الهمهمات بين الناس، وقد أشفقوا عليه، فرقَّت القلوب وتداعت لها المآقي بالدموع، حتى انتحبت النساء وبكى الرجال. صُدم السوسي و«سي حمو» وقاسم وزخارى مما شاهدوا، وهمَّ قاسم بالصراخ ومحاولة تخليصه، لكن الفقيه لجم طيشَه، والسوسي قمع تهوُّره بشَدِّه من حزام سرواله وهو يهمس له في أذنه: «يا أحمق...! هذا ما ينتظرون... أن نفضح أنفسنا... لِمَ تظن أنهم أتوا به إلى البلدة لإعدامه بهذه الطريقة؟ إنهم يريدون إخراجنا من الجحور، الملاعين... الملاعين... كيف كشفوا الأمر...؟! لا تحزن ولا تخشَ...! الرجل قوي

بما فيه الكفاية، وجندي حقيقي، ولولا ذلك لاعترف بكل شيء، ولَكُنَّا معه هناك على المنصة.»

يتقدم «سي حمو» نحو المنصة، يمنعه الجنود من الصعود، يدنو منه قاسم، ويكلمهم بفرنسية راقية: «المسلمون يحتاجون في مثل هذه اللحظة لمن يذكرهم بالله، وتلقين الشهادتين لهم، وتثبيتهم، كما تفعلون أنتم حين تحضرون الراهب، دعوا الرجل يقمْ بدوره الديني...»

بإشارة من العقيد جورج، يفسح الجنود الطريق لسي حمو، يدنو من عزوز الأخنس مبتسمًا، ويهمس في أذنه: «يا ماكر...! ستسبقنا إلى الجنة...»! يضحك عزوز الأخنس مِلءَ فيه حتى بدت نواجذه، وعجب الجمهور عجبًا من رجل يضحك وهو على بُعد لحظة من الموت، واغتاظ العقيد «جورج» وبعض الجنود من سكينة نفس الأخنس ورباطة جأشه. يسأله الفقيه بصوت خفيض في ليونة وحنو: «إيه... قل لي... زينب والبنتان؟!» يرد عليه: «أرسلتهن إلى الريف وهن في حماية جندي من مدينة تطوان شارك في الحرب الأهلية الإسبانية و...»، يقاطعه مبتسمًا: «أستحكي مغامرةَ حربٍ أخرى وأنت هنا...؟! ههه سأعرف منك كل القصة يوم نلتقي في الجنة... عشتَ كريمًا، وسترحل شهيدًا، فأثن واحمد الله، ولتكن الشهادتان آخرَ كلماتك...». يكفكف الفقيه دموعه بكُمِّ جلبابه، فيبتسم عزوز الأخنس ويقول منشرح الأسارير مبتسمًا بهدوء غريب: «أتبكي لرجل من أهل الجنة...؟! أوصيك بزوجتي وابنتيَّ...».

يُعقَد الحبل حول عنق الرجل، يظل رابط الجأش، قويًّا غير مرتجف ولا خائف، أرادوا وضع الغطاء الأسود على رأسه، فرفض وهو يصيح: «يا أهل البلدة...! إنكم تعيشون في الوهم، المغارة ليس فيها أي دفين، والعالية خدعة... تكذب عليكم، والمحتل ينهبكم، ادخلوا الغابة التي تخافون منها، ستجدونها تنقص من الأطراف، بمناشير وفؤوس عمال «كلود» الذين يأتي بهم من قرى بعيدة فجرًا ويعيدهم إلى الضيعة ليلًا، احفروا تحت أرض العين الممنوعة، ستجدون القنوات تمتد نحو الأراضي البعيدة والضياع الكبيرة، للعقيد وجماعته، اصحوا يا ناس...! أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله...»

حث العقيد جورج الجنود بإشارة منه بيده على الإسراع بتنفيذ الإعدام شنقًا، لكبح هذا السيل الجارف من المعلومات الخَطِرة، فدفع جندي الصندوق من تحت قدمي **عزوز الأخنس**، فتعلق لحظة واهتز الجسد لغريزة البقاء والحياة، وترنح كديك مذبوح، فتمدَّد بعد تقلُّصات وهدأ، وما هدأ الناس، ولأول مرة، ارتفعت زغرودة بين الحشود لم تُعرف من أي حنجرة صدحت، وتكبيرات من الصدور أربكت الجنود، وهمهمات تطوَّرت إلى صياح استنكار، وصخب الناس على الجنود وما فرَّقهم غير لعلعة الرصاص منذرة من الرشاشات في الهواء.

بموت عزوز الأخنس، مات جزء من الخوف الجاثم على القلوب، وفُتحت فرجة للحقيقة، علها تتوسع بتوسُّع الجماعة المناضلة.

بعد أيام وقع ما كان متوقعًا من قاسم، خرج هائجًا كالمجنون يصيح ويصرخ بين الأزقة والدروب رفقةَ ثلَّة من رفاقه من الشباب المتحمس للحرية والانعتاق، وبضعة عمال من المنجم: «يا أهل البلدة...! المغارة فارغة، وسيدي الفراش غادرها قبل أن تُنسَف، يا أهل البلدة... إن «العالية» تسيطر عليكم بالوهم... يا أهل البلدة...! المغارة فارغة...» تحلَّقَ حولَه الناس بين مستنكر ومتعجب، حتى رشقه البعض بالحجارة بإيعاز من الرقاص الملهوف الذي اقتفى أثره، وتبعه آخرون وهم يرددون: «لو كان الأمر حقيقة، لصرنا أضحوكة للناس، يا للفضيحة...». ووصل الخبر إلى» الذئب» فحرَّض عليه الناسَ تحريضًا، فكادوا يسحلونه، فجاء «سي حمو» لإنقاذه من بين أيديهم وقد اشتبك الكل في شجار تعالت له الأصوات، وانضم إليهم «زخارى» والسوسي وفاريديا، والصخب يزداد، والرقاص الملهوف يحرض على قتله: «أسمعتم... ولد «الفرنساوي» يشكك في أصلكم وفصلكم»، ويخطب خطبة عصماء وقد اعتلى صناديقَ جعل منها منبرًا في الساحة: «يا أهل البلدة، هذه هي عاقبة تربية الراهبات، اليوم خرج عليكم هذا الأحمق مارقًا زنديقًا، يشكك في مجدكم ومصدر عزتكم، ويخرب عليكم كرامات رزقكم، والله لقد تنصَّر فكفر، وما عاشر أحد الراهبات حتى تغيَّر و«تمسَّح»، وقد علمتُ من أمره أنه ارتدَّ عن الملة، والمرتد يُقتَل بلا رحمة، فإن كانت المغارة كما يدعي كذبة، فقد صرتم أضحوكة، فلا تنسوا كم من عليل صار سليمًا معافَى البدنِ والعقل،

وكم من حزين فُرِّج عنه الكرب بماء أمونة المباركة، وكم من عاقر صارت ولودًا من بركة سيدي الفراش، وبنور المغارة يحسب الناس لكم ألفَ حساب، ومن خيراتها تنعمون وتعيشون، وبقاؤها دوامٌ لمجدكم، وقد تُحسَدون فيُدلَّس عليكم ويكيدون لهدم سؤددكم، أستتركون هذا المارق الكافر، يُفسد عليكم العقيدة والحياة، والله إنها مكيدة ومؤامرة يُراد منها، سحب المجد والعز من تحت أقدامكم، فلا تتركوه يشكك في تاريخكم، ومَن أنتم بلا سيدي الفراش، ولالة أمونة السودانية، غير قوم لا تجيدون لا الظعن ولا الزرع، ولا الرعي ولا الزج، ستبور تجارتكم، وتخرب بلدتكم، فأوقفوا هذا المدعي عند حدِّه، في قتله أجرٌ من السماء وعطاء في الحين من «العالية».

ركبَ الناسَ حَميَّةٌ عمياءُ، وجاشت الصدور بالغضب، وتزاحمت الصفوف ركضًا للفوز بالأجرين، وهب الكلُّ للدفاع عن مجدٍ من هباء، وعن تاريخٍ من خواء، مدجَّجين بالعصي والهراوات، وما خرجت لهم العالية، وكانت محتجبةً منذ شهور، حتى إذا ما صار قاسم بين أيديهم، وتنافسوا على قتله، ليضمن الأداء فرديًّا لا دمًا موزعًا بين الناس، لعلع الرصاص من جديد في الأجواء، وشقت سيارة «جيب» الحشود وظهر في سترته العسكرية الرقيب «أمغار» أمام المقود، وفي المقعد الأمامي «صوفيا» مدلَّلة العقيد جورج، تنظر بنظراتٍ حائرةٍ بخوف وحزن، وبجانبها جلس الكابورال «بيهي» الذي ترجَّل وشقَّ الصفوف، وانتزع من بين الأيادي الطائشة، الشاب قاسمًا، وقد غمر وجهه الدم،

ومُزِّقت ملابسه مِن شدٍّ وجذب، وحثَّ الرقيب «أمغار» «سي حمو» والسوسي وزخارى على الصعود، ونزلت صوفيا إلى فاريديا وهرولتا معًا نحو الخمارة، فصعد الجميع ورشاش أمغار موجَّه نحوهم وهم يتراجعون، حتى إذا ما انطلقت السيارة، سُمع دوي لعلعة رصاصة من بندقية «الذئب»، أصابت «سي حمو» في صدره، لكن السيارة لم تتوقف مسرعةً مثيرةً النقع والغبار وراءها، فتبعتهم الغوغاء بتحريضٍ قويٍّ من الرقاص الملهوف وترغيب ورشوة من الذئب.

وصلت السيارة «الجيب» إلى «تل الريح»، فتحصَّن الجميع بالبيت، وتفرَّق الرقيب أمغار والكابورال بيهي في زاويتين من الجدار، مُصوِّبَين سلاحيهما نحو الخارج، أسرع قاسم محاولًا إسعاف «سي حمو»، وضغط على موضع الجرح علَّه يوقِفُ النزيفَ، لكن هيهات، أصيب الرجل في مقتل، بعد لحظات، ارتفعت سبَّابة الفقيه موحِّدة ولسانه ينطق بالشهادتين، ثم فاضت روحه بهدوء وسكينة.

صرخ قاسمٌ منتحبًا وقد ضمَّ الشهيد إلى صدره:

- مات «سي حمو»...! مات «سي حمو»... مات الرجل الطيب.
مات فقيهكم يا بلدة الغرافين...! مَن يجادلني بعد اليوم أطيبَ جدال... من يطيق نزقي وطيشي... أنا السبب... أسأتُ إليكَ حيًّا وتسببتُ في قتلك... سامحني...! سامحني... يا صاحبي!

لم يصدق الكل ما يسمعون، فطفق السوسي يخضُّه خضًّا وهو

يبكي، ويهزه رجًّا عنيفـًا وهو ينتحب بشدة: «ليس الآن... ما زلت في حاجة إليك... يا صديقي... اصح... اصح...! رجاءً...! يا رب... ليس الآن... ليس الآن...»!!

يحمل بيهي الجثةَ، ويُغلق العينين بلمسةٍ سريعة من يده، يمددها على السرير في رفق ورهبة، بعد ما غيَّر وضع السرير من مكانه ليجعل الرأس صوب القبلة، يغطيها بثوبٍ، يقف لحظة في خشوع، ثم يرفع يديه متضرِّعًا في خنوع ويدعو في صمت، ثم يختم بالفاتحة، ويقول: «مات شهيدًا... لا يُغسَّل... وأحسبه في الجنة حسب وعد الله.»

أحاط الحشود بالدار، وصخبوا صخبًا شديدًا ولم يعلموا بعدُ بموت فقيه البلدة الوحيد، فأشعلوا المشاعل وهم يطالبون بضَوْضَى وفوضى، وصياح وتصايح عالٍ مختلط برأس **قاسم**، وما منعهم غير رشاشين واحد بيد الرقيب **أمغار** والآخر بين يدي بيهي، تظهر فوهتاهما من فوق الحائط، فالتحقت بالمكان دورية من الجنود، وترجَّلت بصخب توقع على الأرض وقعًا رتيبًا لتُرهِب القلوبَ بالأحذية العسكرية، ثم حضر «سليمان الغاشي» و«الراضي غربان»، ورأيا من أمر الناس ما رأيا من عزم لئيم على الذبح، فدخل الرجلان، فعلم الأب بموت ابنه الفقيه، فضمَّه حتى أغمي عليه، وحين استفاق، نظر في عيني «الراضي غربان» وقال: «يا أخي...! حان الوقت لنكشف الحقيقة للناس... حان الوقت...».

طأطأ «الراضي غربان» رأسَه خجلًا وحزنًا وخرجا معًا في خطوٍ متثاقل، فأشارا إلى الناس أن يهدؤوا، وقد طوَّق الجنود الحشود، فصاح **سليمان الغاشي** والقلب معتصر، منفطر لموت ابنه ووحيده: «أيها الناس، مات فقيهكم الوحيد، مات «سي حمو»، رحمه الله».

الخبر القاسي شغل النفوس، وبعثر العقول وإن بدَّد الهيضلة، بعد حِدَّة في التراغي، والحدث قمع ريح الضغينة، وكبحَ أنواء الصدور الهائجة، فلانت القلوب، وحلَّت المصايحة كلٌّ يتهم صاحبه، فأشار سليمان الغاشي على الناس أن يسكتوا ويهدؤوا، فرمى الناس بما في أيديهم، كأنهم استفاقوا من سِحر أو غيبوبة، فتبادلوا النظرات القلقة، وأصابهم الحرج والارتباك، وما وجدوا طريقةً للتعزية والمواساة، وقد كانوا جزءًا من هذه الـهَبَّة العمياء، فأطرقوا الرؤوس، وعمَّ الصمتُ الرهيب، وجورج ينظر من بعيد، ينتظر ما سيبوح به «سليمان الغاشي» الذي كفكف دمعه وصاح وكلماته تتقطع من نشيج حاد، أنهكها ثقل مصيبته في ابنه: «الحمد لله... «سي حمو» مات شهيدًا بيد الغدر، وما أراد للبلدة إلا نفعًا بلا رِقٍّ، وخيرًا بلا جهل، عندي سر لكم كنت كاتمَه لمصلحةٍ رأيتها جاريةً عليكم، ولخيرٍ لامستُه في بيوتكم من بركةٍ ادعتها العالية الكذابة، والله...! والله...! لقد كنتُ أنا و«الراضي غربان» آخِر مَن رأى سيدي محمد الحاكي السوسي رحمه الله، وأخرجناه متسللين ليلًا قبل القصف من البلدة مستترين جميعًا بالتفاف الشجر الكثيف، وأخذنا طريقًا مقطوعة الأرجل، مجانِبة لغابة الحسك، فشددنا الرحال

ومعنا راحلتان وبغل، نريح على إحداهما أمونة وكانت متعبةً، وعلى الأخرى سيدي محمد الحاكي الذي كان في غيبوبةِ عقلٍ وحضورِ جسدٍ، وأعراض هذيان من حمى ومعنا ابنهما الصبي **إدريس السوسي**، والله ما رجعنا حتى وارينا الترابَ الولي الصالح قبل وصولنا وجهة رحلَتنا بمنطقة على تخوم وادي الحلفا شمال بلد السودان، وأكملت أمونة الطريق مع ركبٍ متجه إلى الدامر السودانية، وطالت غيبتنا والطريق وعرة وشاقة، من أجواء الحرب والاستنفار في كل قرية، ربما أمضينا عامَيْن، وحين عدنا وجدناكم فيما أنتم عليه من رخاء، وقد ظهر أمر العالية، وأصبح له السؤدد والحرس والعسس، وأنتم راضون عن النعمة، لا تمحصون عن أصلها، فخفنا إن كشفنا الحقيقة عَذَّبنا وسجننا المحتلُّ، أو تخلصت منا العالية بطريقتها، وقد رأينا الخير قد عمَّ، فصمتنا على الوهم... والمغارة ما بها من دفين... والله ما بها من دفين...».

أخذ الكلمةَ باكيًا السوسي وقال: «أنا **إدريس السوسي**» ابن سيدي **محمد الحاكي السوسي**، وقد صدقَكم القولَ الرجلُ، ما كان يعلم مَن أنا، وقد علمتُ برحلة الرجلين ولم أكشف الأمر للوالدين احترامًا للأبوة... ومَن شك في الأمر فعندي صحائف محبَّرة بقلم أمونة أطال الله عمرها، تشهد على الحقيقة، وهي حية ترزق في الدامر حيث فرغَتْ من كل أمر، ولم تلتفت للدنيا بعدُ، واختارت الزهد والتصوف حياةً ومسلكًا، ومن في قلبه بذرة شك، فليشدَّ الرحال إلى الدامر حاضرة

الأنوار بأرض السودان على نفقة أهلها، ليلتقي بالوالدة في خلوة الإشراق».

تبادل «سليمان الغاشي» و«الراضي غربان» النظرات بحزن ودهشة، وبرقت الفرحة مع حزن في مآقيهما، كأنهما وجدا العزاء في السوسي «إدريس السوسي» فارتميا في حضنه في عناق حار وبكاء مؤلم، فبكى معهما كل الناس، حتى علا النشيج والنحيط، ولطمت النساء، وولولت العجائز، وفشا الإغماء من شدة الموقف.

أضاف إدريس السوسي وهو يُخرج صندوق أسرارها، هنا كل الأسرار، هنا الأنوار... هنا الحقيقة والملاذ والسكينة... هنا أسرار أمونة السودانية وما عين الماء إلا نبع تشقَّق من صدع بين الحجارة للسقيا والارتواء، ما فيه سر ولا خفاء، ولا شفاء إلا بالدواء والدعاء، ولالة أمونة السودانية ما هي إلا عابدة تسأل الله كما تسألون، أنتم ترجون الجزاء عاجلًا أو مؤجلًا، أما هي فتعبد الواحدَ الأحدَ لذاته، ولأنه أحقُّ عندها بالعبادة اعترافًا بجميل صنعه لها خلقًا، ولا تنتظر الجزاءَ من السماء، مؤمنة أنه خلقها ورزقها ومتَّعها بالبصر والسمع، والعقل والفؤاد واللسان، فكيف تكون العبادة لمكافأةٍ وقد سبق العطاء، وما انتظر الله منها دعاءً ولا صلاةً في جوف ليل قبل أن يكون المعطي، وهي الفقيرة إليه وهو الغني عن العباد، وكل حسب نيته وجهاد نفسه، فلا غيب خفيًّا تلقيه الولية ولا الولي مهما رفعت لهما السُّتُر والحُجُب، ولا شفاء غير شفاء الله، وما يجري على الأسباب من

طب وعلوم، حان الوقت أن تستفيقوا وتعودوا لبناء بلدتكم بالعمل والجهاد، والإيمان النقي والعقل العاصم».

صاح الرقاص الملهوف وهو يهتزُّ اهتزازًا بين الجموع، يشرئبُّ بعنقه وقد غلبه قِصَر قامته، وبحَّة صوته الضعيف من كثرة الصياح: إنه كاذب... والله...! كاذب... ألم تشفِ «العالية» المجانين والمرضى الصرعى بلمسة من يدها الطاهرة...؟! ألم يغسل ماء عين أمونة عقم العاقر، فتلد من عامها الأول...؟! ألم يُشْفَ العليل الزمين، ببركة الولي الأمين...؟!» فيرد عليه صوت غريب بين الحشود متوار: «أنت الكاذب الكذاب... يا لئيم...! لقد كنتَ تؤدِّي لنا أجر الادعاء، والشهادة بافتراء، فنطوف معك الأمصار شهودًا ممثلين مقابلَ أجرة كجزاءٍ، وما شُفي من رجل أو امرأة إلا بعد اتفاق وتمثيل وعطاء، وتهديدٍ من «الذئب» لكل من كشف السر بالتعذيب حتى يرجو الموت.»

يصخب الناس وتهيج الحشود، فيلوذ «الرقاص الملهوف» بظهر العقيد جورج وهو يُطلُّ برأسه من تحت ضلعه، فيتركونه وينحدرون ومشاعلهم تضيء الطريق في هذه الليلة الظلماء، في خطو حثيث يسيرون نحو المغارة بضجيج صياح، وتبعهم «زخارى» ولم يعد به من ضيق نفس ولا زحير، وقاسم و«إدريس السوسي»، تطوِّق مسيرتهم في هذا الليل البهيم فرقة من العسكر متأهبة برشاشات على السيارات العسكرية، وبندقيات متطلعة الفوهات مصوَّبة، وحين

وصلوا، انتظروا في رهبةٍ أمام المغارة، وصاح بهم «البرق» بصوت قوي، ينازعهم فلا يحرك يديه ولا منكبيه، كأن قوله يصدر من شق صنم من صخرة صماء: «لا تفعلوا يا حمقى! لا تُدنِّسوا مرقدًا أرقى! ولا ترفعوا حجرًا ستر ما وارى، فتندموا وأنتم صرعَى، من لعنةٍ لا تبقي فيكم رضيعًا ولا أنثى، ومن غضبة كالعصف الأعمى» تبادل قاسم والسوسي النظرات، وقد أفحمهما «البرق» بيانًا لا فكرًا، فقال السوسي: «ما يكون هذا الحارس إلا متعلمًا دارت عليه دوائر الزمن». فيرد عليه قاسم: «سمعت من أبي ما يعني أنه بليغ اللسان متعلِّم حافظ للقرآن، وأنه كان فيما مضى قبل أن يضيع، بين أهله رفيع المقام، وتعلم في الزوايا والمدارس البعيدة، وعلم والدي منه ذلك حين يغلب الأعمى الكلام على الصمت القاتل».

وحين سمعت الحشود من «البرق» ما قال توجَّسوا حتى تردَّدوا حينًا وقَلَّبوا عيونهم، فبادر قاسم وطفق يحمل من الحجر ما يطيق ظهرُه، فاطمأنوا وبدؤوا في رفع الجلاميد الثقيلة عونًا وتشاركًا، فغلبتهم بثقلها وكانت صخورًا كبيرة، فمد جورج يد العون في غرابةٍ بالآليات والعربات، فهمست «صوفيا» في أذن قاسم: «يظنون أن أبي معهم، والحقيقة أن الدراسات أثبتت وجود معدن الذهب في باطن الجبل الأخضر، ووفرته في أعماق المغارة، وجاءت الفرصة للتخلص من هذا العائق...».

رُفعت كل الحجارة والصخور، فحرروا المدخل الكبير الأصلي،

فدخلوا المغارة، ليجدوا الفراغ الكلي، والصمت القاتل، تمنَّوْا أن يجدوا ولو رفات عظام، أو بقيةً من جثث، تُكذِّب من ادعى، فينأون بالبلدة عن الفضيحة، لكنهم صُدموا فصدَّقوا وانهاروا ولطموا الأفخاذ والخدود، وتمرغت النساء في التراب ومزقن الثياب، حتى أبكَيْن من فِعلهن أطفالَهن الذين لم يفهموا ما يجري، وفي غيظهم، والدم ما زال ساخنًا في العروق والرأس، عرجوا على الغابة بلا خوف ولا رهبة، فحاول الجنود منعهم، لكن قوة تدافع الجمهور كانت غالبةً، فتفكك الجدار البشري للعسكر، وتدفَّقوا كالهدير بصخبٍ كالموج العاتي وكسيلان الماء الهائج نحو الغابة، لا يصدُّهم نداء ولا طلقة تحذير في السماء، وكانت الصدمة قويَّة والخيبة أكبر، ففي أطرافها وجدوا سِككًا حديديَّة ممدودةً لنقل الخشب، وأفرانًا لصناعة الفحم، ومخازن منتشرة هنا وهناك، ومكاتب إدارية بين الأشجار، وقنوات تجري فيها المياه بغزارة ووفرة من ماء العين المحرمة إلى الضياع البعيدة، فركبهم الغضب الجامح فقصدوا الدار الكبيرة، ومن كثرة الحشود هرب العسس والحراس، فحطموا البوابة الكبيرة، ودخلوا عنوةً بالقوة، فعاثوا فسادًا في الأثاث الغالي من الرياش والأواني، وخربوا الأبواب والنوافذ النفيسة، ومزَّقوا الوسائد حتى تطاير ريشها وهم يضحكون، وكسروا النفائس غيظًا، ومزَّقوا الستائر حنقًا، وهشموا اللوحات الفنية والمباخر النحاسية، وكؤوس «البلور» حقدًا، وبحثوا عن العالية التي لم يظهر لها أثر منذ شهور، فشكُّوا أن تكون قد هربت،

فوجدوا «الذئب» مختبئًا في دهليز تحت أرضي، به زنازين بسلاسل وقيود مربوطة بأوتاد إلى الجدران، فانقضَّ عليه «زخارى» بغضب، وشدَّه من ياقته، وصرعه أرضًا، وكاد يسحق عنقه، وما زحر زحيره الحاد بعد جهد على عادته، كأنه وجد نفسًا جديدًا كان مفتقَدًا، والناس يصيحون ويحضونه: «لا...! لا تقتله يا زكريا...! نريد معرفة المزيد من الكلب...»، فأفلته من بين يديه، واللئيم «الذئب» يحلف حلفًا غليظًا باكيًا وينحط نحيط الصغار، طالبًا الرحمة والمغفرة، جاثيًا على ركبتيه، يُقبِّل الأقدام في مذلة، يُقسِم أن العالية موجودة في حجرتها، وأنه لم يكلمها مباشرةً منذ شهور، وأن «**تافوكت**» ابنتها المتبناة هي الوسيطة في نقل الأخبار والأوامر، فدخلوا الحجرة، ووجدوها مستلقيةً متمدِّدة على سريرها، لم تتحرك عند دخولهم، ولم يُثِرها صخبهم ولا تصايحهم، ولم تنطق غضبًا ولا ضعفًا.

سحبوا عنها الغطاء، بعد تردُّد من رهبة ما زالت في الصدور، فصُدموا مما اكتشفوا وعما كشفوا، لم يبقَ من العالية الطاغية الجبارة غير هيكل عظمي، وشعر خفيف على الجمجمة، والجثة تحللت منذ شهور، وما غطَّى من كان يعلم بالأمر على رائحة الجيفة إلا بالكافور، والمبخرات تنشر الروائح ليلًا ونهارًا، ورش أريج الليمون والخزامى بالمرشات كل لحظة، فسحبوا الذئب من رجليه كالذبيحة إلى الداخل، وعنفوه أشد العنف لطمًا وصفعًا وركلًا، فأقسم أنه لم يرها منذ مدة، وكان يتلقى تعليماته من ابنتها «**تافوكت**» التي غادرت حينما علمت

بخبر موت «سي حمو»، وأشار إليهم جهة الخزينة الحديدية، فوجدوها فارغة، ولطم رأسه وهو يقول: «فعلتها «**تافوكت**»، أخذت الجواهر وكل النفائس، فهي وحدها كانت تعرف أرقام قفلها».

ورغم ما كان فيه قاسم من حزن على الفقيه الشهيد، رفع صوته وهو يضحك ضحكًا شديدًا فيه الأسى أكثر ما فيه من السرور، وهو يشير إلى الجثَّة هازئًا: «حكمتكم جثة شهورًا، ومغارة بلا ولي دفين سنوات، يا لحظكم العاثر...! لا يحكمكم غير الأموات والجثث... للأسف... للأسف...».

وفي غفلة من الجميع شهر «الذئب» مسدسًا كان قد دسَّه تحت سرواله، وقد جحظت عيناه، وبدت نظراته في جنون وشرود وخوف، فصوبه جهة قاسم وإدريس السوسي وهو يردد: «لن تُفلتا بفعلتكما، كما أنهيت حياة «**سي حمو**» اللعين، حان وقتكما... سأُلحِقكما به حالًا...»، ويضغط بحنق على الزناد، فيعترض زخارى الرصاصة مرتميًا بينهما، فتصيبه في قلبه، فيخرُّ صريعًا، يتدافع الناس نحو «الذئب»، يرفسونه ويضربونه بالجِزَم الثقيلة وهو يصرخ، وحين انفضُّوا من حوله، كان جثة هامدة مضرجًا في الدماء.

في الصباح، مشت كل البلدة في جنازة الرجال الشهداء الثلاثة: عزوز الأخنس، والفقيه «سي حمو»، وزكريا، واروهم الثرى جنبًا إلى جنب على تل الريح، فغدا اسمه تل الشهداء الإخوة...

بعد أيام تدفق الناس من حيث لا أحد يدري نحو التل، أقاموا أيامًا به، ثم ظهر من جديد الكهان والعرافون والسحرة، وصحت البلدة ذات صباح على قبتين بنيتا في سر وسرعة، واحدة يرقد تحتها عزوز الأخنس والفقيه حمو، وأخرى على بعد أمتار يرقد تحتها زخارى.

في كل ليلة، تتسلل بعض النساء إلى التل فيُشعلن الشموع، ويتركن طعامًا، ويملأن جفانًا صغيرة بالماء للطيور والحيوانات، والخبز المبلل بالماء، وأرغفة للعابرين، ومن حين لآخر يعلو بكاؤهن ولا يُعرف إن كان من رحمةٍ جارفةٍ، أو من دعاء مريب، من حين لآخر تحط بالتل نساء يهوديات أتين من بعيد، طلبًا لبركة زخارى الذي غدا يسمى «رابي زخارى» **وغدت له هيلولة تقام في الربيع.**

مع الزمن عاد الناس إلى أشغالهم القديمة، وانطلقت أشغال الحفر والتنقيب بالجبل الأخضر، والمهندسون يبسطون خرائطهم فتتطاير بها الرياح، وتفرقت على منحدراته وتخومه حفارات وشاحنات ضخمة، ومضخات للمياه كبيرة الحجم وكثيرة الصبيب، تضخ الماء من عين أمونة نحو الأحواض نحو غرابيل ضيقة العيون من أسلاك سميكة، لغربلة الأتربة ونحو مصافٍ لتصفية ما يجتمع في الأحواض.

نُصبت الخيام في مخيم الأشغال، وقريبة من الورش، لتكون سكنًا للعمال وأكثرهم من أهل البلدة، وبنايات كالعلب مكاتب للمهندسين والتقنيين والفنيين. يجري هذا تحت حراسة فرقة من العسكر، ومراقبة

العقيد المباغتة من حين لآخر، فأجَّل هذا المشروع أزمة الرواج والبيع والشراء التي ستمر منها البلدة بعد سقوط العالية وكذبتها الخرقاء، فظلت المحلات مفتوحة، وإن ظلت حركة مريبة لزوار جدد لتل الشهداء، يشعلون الشموع، ويبكون، ولا أحد يعرف هل يبكون الشهداء أم أنفسهم في دعاء خفي مشبوه.

ذات ليلة اندلع حريق مهول بمنجم الفضة **بـ «جبل الغور»**، فأتلف المعدات والبنايات، وزرع الرعب بين العمال وكبار الموظفين، وكشف البحث والتقصي أن الحريق مفتعل من تدبير فاعل، يجيد استعمال الألغام.

واختفى الضابط «**أمغار**» وال«**بيهي**» بعد ما غادرا الثكنة، ملتحقين **بقاسم** و**إدريس السوسي** و**فاريديا** **وصوفيا** بالمفاوز البعيدة على جبل بكر وعر التضاريس، ضحت الحسناء الشقراء «**صوفيا**» بحياة الترف والبذخ، فتمردت على أبيها وانضمت للمقاومة، وظلت **فاريديا** قريبةً من «إدريس السوسي»، تُبادله حبًّا صار متبادلًا وعلنيًّا، وغدت خمارة «**زخارى**» في السر مقرًّا لتجنيد جنود التحرير، وإرسالهم إلى مقرِّه الغابر بين الجبال، وصندوقًا بريديًّا خفيًّا لرسائل المقاومين وتبادُل الأخبار والمعلومات.

جاءت آخر الأخبار، أن القائد **الشراجي**، قتل برصاصة في الرأس ليلًا، وهو في محفله يرتع، بين رجاله وعلى سريره، بيدِ حارسٍ مقرَّب

منه، التحق بالمقاومة في أغوار الجبل الوعر، وحكى من اقتفى أثر **الرقاص الملهوف** وتتبَّع أثره، أنه كان ما يزال يقيم حلقته بالساحات، وبساحة «**جامع الفنا**» بمراكش على الخصوص، وقد وجد للواقعة مخرجًا، وللفضيحة تفسيرًا، وللمصيبة «تخريجةً»، فينحط كعادته والناس يتابعونه في دهشة مرددًا وهو يمسح دمعه بمنديله: «ماتت **العالية**»، وبموتها انتهت كرامة سيدي الفراش، وبركة ماء عين **أمونة** السودانية، حين فاضت روحها في سلام، ستر الله عن الأعين رؤيةَ الولي والولية والصبي، وما لا يُرى بالبصر بل بالبصيرة وفيض النية، فأغشاهم وهم لا ينظرون، والنظر إلى جثامين الأولياء سر مكنون، وهم ما زالوا في المغارة وإن لم يظهروا للعيان مباشرة، و«الفرانساويون»... ربما... والله أعلم... وهذا أمر قريب غير مستبعد، نقلوا رفاتهم الطاهر خِلسة، لمصلحة مالية كبرى حتى يستغلوا المغارة والجبل، في استخراج الذهب وكل نفيس».

لكنه صمت إلى الأبد حين وُجِد على قارعة الطريق ليلًا، في طريق مهجورة بضواحي مراكش مضرجًا بالدماء، وبجسده عشرون طعنة خنجر وفمه مملوء بالتراب... وقد حزن الكثير عليه خصومه وشيعته... فلا أحد أجاز قتله على قارعة الطريق بتلك الطريقة الهمجية مهما كان السبب، إلا قلة اختلط في فهمها العدل والثأر، وجاشت صدورها بلواعج الانتقام فعميت البصيرة وجنحت لعنف وتنكيل تمجه الفطرة

قبل الدين، ودعه بعض الناس في صلاة جنازة أقيمت بعد الظهر... وأخذ نصيبه من دعاء الأحياء للأموات.

وفي بلدة الغرافين كأنهم نسوا أفعاله المشينة... جلسوا يتحدثون عنه وترحموا وغدا شخصًا يستحق الرحمة لا الشماتة... استغفروا له وصفحوا... قالوا ما قال إدريس السوسي: «إنه رجل ضاع في زحمة الحياة.... لكنه منا...» ورددوا ما قال قاسم: ربما يستحق الموت.... لكن لا أحد من حقه إصدار حكم بالموت على شخص آخر مهما ارتكب من جرم.... إلا المحكمة.. لنتعلم على الأقل هذا من فرنسا.... العدالة والانتقام خصمان... لو كان سي حمو رحمه الله حيًّا بيننا لمات كمدًا.... هو يعرف أن قتل **الرقاص الملهوف انتقامًا** أكبر من جريرته.... ووضع التراب في فمه وهو الميت يمسخ جوهر قضيتنا... المستقبل نذهب إليه بدون أحقاد، وإلا حملنا معنا إلى الأبد عداوات وخلافات الماضي..»

قال **إدريس السوسي** وهو ينقل نظراته بين وجوه الوطنيين في الجبل: «الآتي أصعب.... فمن قتل الرقاص الملهوف بتلك الطريقة يمثل بداية لنوع من التفكير.... تختلط فيه الأحقاد بالعدالة والدين... الآتي أخطر يا رجال... الخلط بين العدالة والانتقام يخلق الوحوش... بناء المستقبل لا يتم بنفوس تشتعل فيها نار الثأر والانتقام.... بل بعقول مؤمنة بالغفران والصفح... والمصالحة..»

ظل الناس يرددون أن ليلة فتح المغارة، غمر نور قوي خلوة أمونة **بالدامر**، فغمرها شعور بالسكينة، وشاهدَتْ ما لن تبوح به وسكتت عنه، لكن أهل **الدامر** بالسودان يقسمون أنها في مقام لم يصله زاهد من قبل... مقام الرؤية والصمت... مقام الوصال وفي الوقت نفسه الفراق....

أليس كل وصال انفصالًا...؟!